Craig A. James

كريغ أ. جيمس

THE RELIGION VIRUS

ڤايروس الدين

لماذا نؤمن بالله ؟

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

الدار الليبرالية

Liberal Library

فيروس الدين: لماذا نؤمن بالله؟

The Religion Virus: Why We Believe in God?

كريغ أ. جيمس

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

الناشر: الدار الليبرالية / برلين

Liberal Library - Berlin

© جميع الحقوق التجارية محفوظة/ All Rights Reserved

الحقوق الثقافية والفكرية ملك التراث الإنساني

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأيّ شكل من الأشكال، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Deutschland _ Berlin _ Schlachthofstrasse 20

+4917621419894 / +963968334411

lllliberallabrary@gmail. com

Liberal Library

إن الدار الليبرالية غير مسؤولة بشكل مباشر عن آراء الكتاب إنما تنشر ثقافة مفتوحة بحيادية، وكُل كتاب يعبر عن آراء مؤلفه وإن كنا لا ننشر إلا ما نحن مقتنعون بأهميته ثقافياً سواء وافقنا الكاتب أم لا، ونحن ملتزمون بقيم الحرية الفكرية بأعلى مستوياتها والاختلاف حالة طبيعية فلا نلزم أحد بقراءة منشوراتنا.

شعارنا

حرية الاختيار تعني اختيار الحرية، فالحرية لا تختار إلا ذاتها.

كريغ أ. جيمس

فيروس الدين
لماذا نؤمن بالله؟

عالِم تطوّري يفسّر لنا سبب وجود الأديان حتى الآن، وقبضتها
المُحكَمَة على الإنسانية

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

2022

تحذير

هذا الكتاب يحتوي على فيروسات عقلية خطيرة، لا تقرأه إلا إذا كانت لديك الرغبة في الإصابة بالعدوى. هذه العدوى قد تؤثّر بشكلٍ ملحوظ أو غير ملحوظ في طريقة تفكيرك، أو حتى قد تغيّر نظرتك إلى العالَم من حولك.

1

﴿لماذا يُشبِهُ الدين مادّة الفيل الوراثية﴾

إله إبراهيم

«حكيمٌ هو ذاك الذي اخترع الله»

[أفلاطون]

سيُفاجَأ أغلب المسيحيين واليهود والمسلمين المعاصرين إذا علموا أنّ «يَهوَه» الذي عَبَدَه البطريرك إبراهيم (كان يُدعَى أيضاً: إيل، إيلوهيم، أو يهوه) كان مختلفاً كلياً عن الإله الذي يعبدونه اليوم كما نعرفه على شكله الحالي. كان إله إبراهيم مكوّناً من لَحمٍ ودم، وكان إلهاً للحرب، إلهاً مُنتقماً وغيوراً، ومستعدّاً دائماً لارتكاب مجازر وأعمال تصفية عرقية، فقد قضى على البشرية بالطوفان، والكثير غيرها من الأعمال التي تضعه على النقيض تماماً من الإله الذي يُزعَم أنّه مُحِبٌ وعطوف كما نعرفه اليوم. ولَن يتقبّل إبراهيم نفسه شكل هذا الإله، كما أنّه سيرفض بتاتاً فكرة أن إلهه الذي عَبَدَه طويلاً هو نفسه الإله الذي يَعبُدَه المؤمنون اليوم.

ليس هذا فَحَسب، بل إنّ إله إبراهيم، إضافةً إلى جميع مِن انحدروا من زمانه

حتى زمن موسى وما بعده، كانوا يعبدون آلهة متعدّدة، أي أنّهم كانوا وثنيين مُشركين. فبالنسبة لهم، كان يَهوَه مجرّد إلهٍ من بين العديد من الآلهة الأخرى. كان هناك الكثير من الآلهة التي يتنافسون على نيل رضاها وحمايتها، وكان يهوه يمدّهم بعناية خاصّة: كان يقدّم لهم الحماية العسكرية، وفي المقابل كان على الإسرائيليين أن يُقصوا جميع الآلهة الأخرى ويعبدوه وحده دون غيره. في أيّام إبراهيم، لم يَكُن يَهوه يملك الطاعة المُطلقة له وحده، كما يحدث اليوم.

إنّ الإله المُحِب والعطوف والحنون الذي تعلّمنا عنه اليوم وقرأنا عنه هو نتيجة أطول عملية «تجميل» و «تزيين» تسويقية حدثت عبر التاريخ _أربعة آلاف عام من التحسينات والتزيينات وإضافة الألوان لصورة يهوه، منذ زمن إبراهيم [طبعاً الحديث هنا بافتراض أنّه كان موجوداً أصلاً] حتى زماننا الحالي، لقد تطوّر يهوه إلى الإله الأبوي العَطوف، إله كل شيء، المُحِب، والغَفور، والرحيم، الإله الواحد والأوحد. لقد اكتَمَلَت عملية تطوّر يهوه حتّى وصلت إلى المرحلة التي بتنا نسميّه فيها باسم «الله، الرب» مع حرف G كبير عندما نكتبه باللغة الإنكليزية God. لسنا بحاجة لتمييز يهوه عن الآلهة الأخرى، لأنّ أغلب الغربيين الآن باتوا موحّدين. يسيطر يهوه عليهم كلياً، ويمدّ سلطانه على الديانات الغربية. والآلهة الأخرى التي آمَنَ بها إبراهيم وموسى إمّا أصبَحَت طَيَّ النسيان، أو تمّ جمعها وتوحيدها تحت عنوان عريض «ميثولوجيا/أساطير».

هل حَدَثَ ذلك فعلاً؟ هل أدركَ أحدٌ ما في زمن إبراهيم أو زمن موسى أنّ يَهوه كان يعاني من مشاكل في صورته النمطية التي كانت تحتاج إلى تلميع؟ كيف تغيّر يهوه من إله إبراهيم، إله الحروب والفيالق، إلى «الله» أو الرّبّ الراعي والعَطوف؟

قد يخبرنا علماء الدين ورجالاته أنّ يهوه نفسه كان دائماً هو الإله الذي

نعرفه اليوم، إلا أنّ فَهمَنَا وإدراكنا لمفهوم الرّبّ قد تغيّر. كان نوح وإبراهيم وموسى قد عاشوا في أزمنة أكثر بساطة من زماننا، لذا قدّم الله نفسه لهم بطريقة أبسط واقلّ تعقيداً، حتى يفهموه فيها ويدركوه. وبعد مرور ألفية كاملة، نَضَجَت مجتمعاتنا وثقافتنا، وأصبح الله قادراً على تقديم نفسه بصورة أوضح وأعقد قليلاً على أنّه الإله العَليم والقدير والمُحِب. قد يخبرنا هؤلاء العلماء أنّ الله قد أرشدَ أنبيائه ورُسُلَهُ عن طريق العناية الإلهية لتأسيس كُتُبِهِ وتعاليمه المقدّسة من خلال القرآن والتوراة والإنجيل، لذلك يمكننا اليوم أن نحمل كلمة الله الفعلية والحقيقية بين أيدينا، وأن نُدرِكَ عَظَمَةَ الله وقدرته بشكلٍ فعلي وحقيقي.

لكننا هنا اليوم لكي نقدّم حكاية مختلفة لعملية تزيين يهوه وتلطيفه، طريقة مختلفة للنظر إلى التاريخ. هذه قصّة تَروي لكم كيف قام البشر باختراع صورة الله، سنتعلّم فيها كيف أنّ عملية تحوّل يهوه إله المعارك والفيالق والجنود إلى إلهٍ مُحِبٍّ وعَطوفٍ ورحيم هي عملية تطوّرية تقود لِجامَها قوى عمياء وعوامل صارِمة وعنيدة وخالية من الرحمة تسمّى «البقاء للأصلح». لكنّها كانت عملية تطوّر ثقافية-حضارية، وليست تطوّراً بيولوجياً، هي التي كانت تزيّن وتلطّف صورة يهوه على مدى ألفية كاملة من الزمن. ولَم يَكُن يهوه وحده نتيجة هذه العملية الطويلة والقاسية، بل إنّ نفس العَوامل قد أنتَجَت كافة معتقداتنا الدينية الأخرى وصاغَتها.

إذن، ما معنى «التطوّر الثقافي» *Cultural Evolution*، وكيف يعمل؟

ميم الدجاجة المتناسِخ

«الله ممثّل كوميدي يؤدّي عَرضاً مُضحِكاً أمام جمهورٍ يخشى الضحك»

[فولتير 1694-1775]

لماذا يَعبُرُ الدجاج الشارع؟... يا لَهَا من طرفة سَمِجَة. لكن لابدّ أنّك سمعتها عشرات المرّات من قبل، أليس كذلك؟ وأنت تعرف جوابها بالفعل. لماذا هذه الطرفة السمجة هي من أكثر المعلومات الشفوية انتشاراً وانتقالاً ويتمّ تمريرها من شخصٍ إلى آخر؟ لماذا يتمّ تناقلها، بدقّة عالية، بين كل ولد تقريباً؟ ما الذي يجعل الأولاد يتناقلونها فيما بينهم ويروونها لبعضهم البعض، عاماً بعد عام، جيلاً بعد جيل؟

هذا السؤال ليس بديهياً أو سهلاً، بل إنّه يستعرض بصائر وأفكار عميقة عن الثقافة الإنسانية، وأنّ بعض الأفكار يتمّ تناقلها شفهياً وبدقة وحِرَفية عاليتين، أضِف إلى ذلك حقيقة أخرى أنّ مقابل هذه الأفكار التي يتمّ تناقلها بدقّة، هناك أفكار أخرى لا يتمّ تناقلها لذلك تختفي وتصبح طيَّ النسيان. هناك شيءٌ ما في نكتة الدجاج الذي يَعبُر الشارع يجعَلها تنسخ نفسها وتتكاثر وتنتشر. الطرفة تتضمّن في ذاتها وسائل بقائها واستمرارها _إنّها تجعل الأولاد راغبين في تكرارها ونشرها.

طرفة الدجاج هي أفضل مثال عن الأفكار ذاتية التناسخ *Self-replicating Ideas* وهي الأفكار التي تُوَلّدُ عند الإنسان رَغبَةً في نسخها وتكرارها أمام شخصٍ آخر. سواءٌ أكانت طرفة، أو أسطورة مدنية، أو رواية عظيمة، أو قصّة قصيرة، أو خَبَر مثير، أو دَرساً قاسياً تعلّمته بصعوبة وتريد أن تنقله إلى الأولاد، كل وحدةٍ من هذه الأمور تحمل بداخلها «بذور» تساعدها

على إعادة سردها، وتناسخها وتناقلها من دماغ بشري إلى آخر. بمعنى آخر، كلٌّ من هذه الأمور تحمل أكثر من مجرّد رسالة ضمنها، إنّها تتضمّن أيضاً «دوافع» تجعلك ترغب في إعادة نشرها. الرسالة واضحة تماماً: «انشُر جزءاً من الطرفة أو القصّة أو الأسطورة». والدافع هو نتيجة محتويات الرسالة، ومع ذلك فهو ضروري للغاية. فمن دون الدافع، تموت الفكرة وتندثر.

لاحِظ عزيزي القارئ أنّ هذه الفكرة تُشبه طريقة عمل جيناتنا: الجينات تحمل معلومات وراثية بداخلها، كما أنّ الطرفة تحمل معلومة. في حالة المادة الوراثية DNA، المعلومات عبارة عن تعليمات كيميائية تُرشِد الخلية وتُملي عليها طريقة بناء البروتينات اللازمة، إنّها عبارة عن «مسوّدة». إن أرَدتَ تسميتها كذلك، المسوّدة التي يحتاجها جسمك للبقاء على قيد الحياة. لكنّ «دافع» المادة الوراثية بنفس الدرجة من الأهمية أيضاً: هذه البروتينات هي التي تساعد الكائن الحي، من البكتيريا وحتى الفيَلَة، على التكاثر، وأن تصنع نسخاً أكثر من نفسها ومن مادّتها الوراثية. من دون هذا الدافع، ستموت المادّة الوراثية وتندثر.

إذن، مادّتكَ الوراثية تتشارك في سمات مثيرة ومميّزة مع الطرف والأساطير والدروس القاسية: جميعها تتضمّن «رسالة» و«دافع» للتكاثر والتضاعف.

كان ريتشارد دوكنز هو أول مَن أشار إلى هذا التماثل بين الأفكار والجينات، لكنّه لم يعتقد أنه مجرّد فكرة ممتعة ومسلّية. لقد أدرَكَ دوكنز أنّ هناك شيء ما أعمَق بكثير، فَمَع أنّ هناك فارق كبير ما بين الحياة البيولوجية والأفكار، إلا أنّ هناك نظرية راسخة وهامّة تربط بين الاثنين. لأنّ هذه الأفكار المتضاعفة والمُنقَسمة ذاتياً تشبه كثيراً الجينات، صاغ دوكنز مصطلح «الميمات» meme = gene.

قبل دوكنز بزمنٍ طويل، كان آينشتاين قد أدرَك أنّ المادّة والطاقة هما الشيء نفسه، مُسَمّيان مختلفان لمفهوم واحد. وقبل آينشتاين، أدرَكَ كُلّ من مايكل فاراداي وكليرك ماكسويل أنّ الكهرباء والمغناطيسية _ظاهرتان مختلفتان ظاهرياً_ هما وجهان لعملة واحدة. وقبل ذلك بزمنٍ طويل أيضاً، بيّنَ كلٌّ من رينيه ديكارت وبيير دي فيرمات أنّ الجبر والهندسة _مجالين منفصلين من الناحية الظاهرية في دراسة الرياضيات_ هما الشيء ذاته جوهرياً. وفي كل حالة من هذه الحالات، كان هناك عقلٌ عظيم أدرَكَ أنّ فكرتين مختلفتين ظاهرياً هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة، وجهان لمبدأ واحد ما أن يتمّ اكتشافه ورفع الغطاء عنه حتى تتّحدَ هاتان الفكرتان ضمن فكرة موحّدة تقدّم فَهماً أفضل وأوضح للفكرتين السابقتين.

أدرَكَ دوكنز أنّ تناسخ المعلومات وتناقلها هو المبدأ الأساسي الكامِن والمُشتَرَك ما بين الجينات والميمات. وقبل ذلك بقرنٍ من الزمن، كان تشارلز داروين قد اكتشف مبادئ التطوّر عن طريق الانتقاء الطبيعي، والذي بالرغم من الكَم الهائل الذي كُتِبَ عنه، كان بَحثَهُ يدور حول ثلاث مبادئ أساسية: التكاثر، والطفرات، والانتقاء الطبيعي (البقاء للأصلح). إذا أعَدنا صياغة هذه المفاهيم الثلاثة في سياق نظرية المعلومات، سنقول: النسخ (التناسخ)، والأخطاء (الطفرات)، والفَلتَرَة (الانتقاء الطبيعي). وتنطبق هذه المفاهيم على كلٍ من الجينات والميمات على حَدٍّ سواء. ومع هذا «التوحيد الأعظمي» لهذين المجالين، وضَعَ دوكنز أُسُسَ علم الميمياء *memetics*، الذي يُعَدُّ أساس علم التطوّر الداروينيّ للتنبّؤ بأسس الثقافة والمعرفة الإنسانيتين وتفسيرهما.

تأتي الميمات بأشكال وصيغ مختلفة، لكنّ الطرف بشكلٍ خاص تشكّل أمثلة رائعة على الميمات. النكتة بسيطة، وحدة صغيرة من المعلومات المتضمّنة

ذاتياً، ومن الممتع دراسة النكت والطرف. إنّها تستعرض أُسُسَ علم الميمياء بطريقة طريفة.

مثال: «أسوأ قائد فرقة موسيقية [conductor= ويعني باللغة الإنكليزية موصِل كهربائي أيضاً] في العالَم سَمِعَ أنّ عَمَلَه سينتقل إلى منافِس آخر أفضل منه. وبدافع من الغيرة، قَتَلَهُ. لكنه ولكَونِهِ موسيقار وليس قاتل، لم يخفي آثار الجريمة بشكلٍ جيد، فألقَت الشرطة القَبض عليه، واقتادته إلى المحكمة، وحُكِمَ عليه بالموت على الكرسي الكهربائي. وعندما وضعوه على الكرسي وثَبّتوه ووضعوا الخوذة الكهربائية على رأسه وأداروا مفتاح الكهرباء، لَمَ يَحدُث شيء! بل ظَلّ جالساً على الكُرسي حياً وهو يُدَمدِمُ ويُرَدّد المقطوعة التاسعة لبيتهوفن بسعادة. حاولوا مِراراً وتكراراً صَعقَهُ، لكن دون جدوى. في النهاية صَرَخَ بهم غاضباً: «انسوا الأمر أيّها الحمقى... لا يمكنكم صَعقي بالكهرباء، فأنا أسوأ ناقل في العالَم [أي أنّه أسوأ قائد أوركسترا]».

لقد نَسَخَت الطرفة نفسها ما أن انتهيتَ من قراءتها، لذلك زادت شعبيتها شخصاً آخر: عندما أخبركَ نكتة، وأخبرك النسخة الجنسية للنكتة، أكون عندئذٍ أستخدم دماغَكَ لصنع نسخةٍ منها (ميماً) كان موجودٌ أصلاً داخل وسط جماعي. إنّها تستخدم مصادر عقلكَ لتُبقي نفسها حَيّةً وتحافظ على بقائها (حيث يتمّ تخزينها وحفظها داخل عصبوناتك)، وإذا كانت الطرفة مُضحِكَة ومسلّية، فإنّكَ سترَغب بإعادة سَردها وتكرارها أمام شخصٍ آخر، وبذلك زيادة شعبية طرفتكَ بإضافة شخصٍ آخر إلى دائرتها. الأمر يشبه العدوى الفيروسية، صحيح؟

نَسخ المعلومات

«ضمن سياق العلم، كثيراً ما يحدث أن يقول العلماء: «هذه حجّة رائعة... أتدري، لابدّ أنني كنتُ مخطئاً»، ثمّ يغيّرون آرائهم ومواقفهم فعلياً ولا تعود تسمَع منهم رأيهم القديم إطلاقاً... ذلك يحدث كل يومٍ تقريباً. ولا أتذكّر آخر مرّةٍ أقدَمَ على ذلك رجلٌ سياسي أو رجلَ دين»

[كارل ساغان]

الفيل أكبر من البكتيريا بـ 1000.000.000.000.000.000 (10)[18] مرّة، ومع ذلك تربط بينهما حقيقة مذهلة هي أنّ الفيلة والبكتيريا يمتلك كلٌّ منهما مادّة وراثية، الهدف أو الغاية القصوى للفيل أو البكتيريا هي نفسها: أن يصنعوا نسخاً أكثر من أنفسهم (مادّتهم الوراثية). وهناك حقيقة أخرى أكثر إثارةً للدهشة وهي أنّ المادّة الوراثية عبارة عن معلومات فقط. مع أنّ معلومات الـDNA «مكتوبة» على شكل سلسلة طويلة من القواعد الثنائية على شكل حلزوني، إلا أنّها ليست أكثر من مجموعة من المعلومات، مثل الكلمات في هذه الصفحة. ومن دون الشخص الذي يقرأ هذه الكلمات من الصفحة، تبقى مجرّد توليفة من الذّرّات. ومن دون الخلية الحَيّة التي تترجم سلسلة الجينات في المادة الوراثية، ستبقى مجرّد عناصر كيميائية. الكلب لا يمكنه التمييز بين هذه الصفحة الورقية وورق المرحاض، والحَجَر لا يمكنه التمييز بين الدنا DNA وثنائي إيثيل أميد الليسرجيك LSD. لكن مع وجود شخص يقرأ هذه الصفحة، وخلية تترجم معلومات المادة الوراثية، تصبح المعلومات مفتوحة ومَصدرية.

النكتة عبارة عن: معلومات. لكنّ النكت، والمادة الوراثية للبكتيريا،

والفيل جميعها تمتلك ميزة هامّة أخرى تميّزها عن المعلومات العادية: المعلومات التي تحتويها تساعدها على صنع نسخ من نفسها. وكل شيء آخر حول حياة هذه الأشياء الثلاثة يُعتبَر عَرَضِياً وغير ضروري بالنسبة لعملية نسخ نفسها. وذلك لضمان بقائها ونجاة مادّتها الوراثية واستمرارها إلى الأبد.

مع أنّ النكت والطرف ضرورية من أجل استعراض أسس ومبادئ فكرة الميمات، لكن لا تَنخَدِع ببساطتها. يمكن للميمات أن تكون غنية جداً، ومعقّدة، ومُرَكّبة، ومتداخلة، ومستقلّة ذاتياً.

المخالفات المرورية الباهظة

«من أبشع التناقضات وأكثرها وحشيةً وهمجية تلك المتعلّقة بأمور لا يوجد دليلٌ كافٍ يدعَمها بأيّ شكلٍ من الأشكال. كانت محاكم التفتيش تستخدمها في اللاهوت، وليس في علم الحساب»

[برتراند رسل]

سأقدّم لكم هنا مثال عصري عن المعلومات ذاتية التناسخ. فأثناء كتابتي لهذا الكتاب، وصلتني الرسالة التالية على بريدي الإلكتروني من أحد أقاربي:

«مرحباً... لقد تلقّيتُ هذه الرسالة للتَّوّ، مَرّرها. الأمر جَدّيٌ فعلاً. احذروا يا أصدقائي. غرامات جديدة على القيادة لعام 2007.

1) تجاوز خطّ المُشاة لأوّل مرة غرامته 1068.5$ بدءاً من 2007/1/7. لا تَفعَلها مجدّداً لأنّ الغَرامة ستكون مُضاعَفَة في المرّة الثانية. ومَضروبةٌ في ثلاثة في المرّة الثالثة. وفي المرّة الرابعة ستُضرَب بأربعة.

2) مخالفة تغيير الطريق بشكل مُخالِف 380$. لا تَقطَع الطريق عند الخطوط أو النقاط المحدّدة.

3) سَدّ تقاطُع أو إعاقته 485$.

4) ركن السيارة على الرصيف أو السير عليه بالمركبة 450$.

5) استخدام الهاتف الجوّال أثناء القيادة _غَرامَة مُضاعَفَة بدءاً من 2007/1/7. يجب استخدام سمّاعات الرأس أثناء القيادة.

6) إذا كان السائق أو الراكب فوق سن 18 ولا يضع حِزام الأمان

_سيتمّ مخالفة كلٌّ من السائق والركّاب.

7) لا يمكن القيادة بأسرع من الحَدّ الأقصى لمسافة 3 أميال.

8) عند تاريخ 2007/1/7 يجب استخدام الهاتف الجوّال بدون يدين أثناء القيادة. والمخالفة غرامتها 285$. وسيبحثون عن هذه المخالفات بجنون، فهي بمثابة مالٌ سهل بالنسبة لقسم الشرطة».

يبدو هذا الكلام مريعاً. وقد تمّ أخذَهُ على مَحمَل الجِدَ (مثلي ومثل الكثيرين غيري). وخلال فترة زمنية لا تتجاوز يوماً أو يومين، تبيّن أنّ الأمر برمّتهِ مجرّد مزحة مألوفة تجتاح الإنترنت. كانت هذه الرسالة الإلكترونية بكاملها مزيّفة! ولا وجود لهذه الغَرامات. ومع ذلك انتشرت هذه الرسالة الفيروسية كالنار في الهشيم. كل معارفي وأقاربي وأصدقائي تلقّوا هذه الرسالة، وهذا يعني أنّه في غضون عشرة أيام، انطلق هذا الميم «الأسطورة» من شخصٍ واحدٍ ليَنتقل إلى عشرات الملايين من الأشخاص.

كان هذا الميم مُصاغاً ومُقَولَباً بطريقة مثالية. إنّه يتمتّع بجميع الخصائص والسمات التي تحتاجها الأساطير الشعبية والمدنية:

- قابليتها للتصديق. لقد تمّت صياغتها بشكل احترافي ومثالي لتكون شنيعة بعض الشيء، لكن ليس إلى ذلك الحَدّ المُبالَغ فيه.
- تخصّ الجميع. فهي تهمّ كل إنسان تقريباً. وهي مرتبطة بأشياء جميعنا بحاجة لمعرفتها.
- إنّها مخيفة. جميعنا نحبّ إفزاع بعضنا البعض.
- سَهلَة الانتشار والانتقال. اضغط فقط على زر Forward ضمن صفحة بريدك الإلكتروني، اختَر كل قائمة معارفك، وستتضاعف

الرسالة.

ولأنّها مُصاغة بشكل احترافي، فإنّ أسطورة «الغرامات الجديدة على مخالفات القيادة» قد أصبَحَت وباء، وانتشرَت بمعدّل أُسّي عبر جميع أنحاء البلاد.

هذه الرسالة مثالٌ رائع عن الميم وطريقة عمله، الأفكار ذاتية التضاعف والانقسام. إنّها معلومات تعمل _بطبيعتها_ على نسخ نفسها مِراراً وتَكراراً داخل عقول الناس والكمبيوترات.

ميم تحت أي مُسَمّى آخر

«إذا كانت الطبيعة قد خَلَقَت شيئاً أكثر قابليةً للتأثير من كافة السمات والخصائص الحصرية، فإنّه سيكون فعل التفكير نفسه الذي نطلق عليه عادةً اسم «فكرة idea»، والتي يمكن لأي فرد أن يمتلكها بشكل حصري طالما أنّه يبقيها لنفسه. لكن في اللحظة التي يبوح فيها بها، فإنّها تفرض نفسها على عقول الجميع، ولا يعود بمقدور المتلقّي تطهير نفسه منها. إنّ ذلك الذي يتلقّى فكرةً منّي، يتلقّى أوامر وتعليمات من دون أن يقلّل من فكرتي أو يُنقصها، كذلك الذي يوجّه مصباحه نحو مصباحي، فإنّه يتلقّى نوراً من دون أن ينقص نوري: إنّ فكرة انتقال الأفكار من شخصٍ لآخر في جميع أرجاء العالم، من أجل النموّ الأخلاقي المتبادل بين بَني البشر، وتحسين ظروفهم، هي فكرة مُصَمّمة من قبل الطبيعة بطريقة غريبة وأنيقة»

[توماس جيفرسون 1743-1826].

هذا الاقتباس الرائع عن الناطق اللامع، والعالِم والفيلسوف توماس جيفرسون، لأنّه يغلّف فكرة الميم، ويسبق دوكنز أكثر من قَرنٍ كامل ونصف من الزمن.

لقد عَرَفنا سابقاً أنّ تعريف الميم بسيطٌ جداً: إنّه مجرّد فكرة، مفهوم، معلومة، أو رأي قابل للتمرير من عقلٍ لآخر، الأمر الذي يولّد عندك «الدافع» والرغبة بتمريره ونقله.

كُتّابٌ آخرون كُثُر كرّسوا العديد من الصفحات والمؤلّفات والطاقات الفكرية محاولين تعريف هذا المصطلح، كل واحدٍ منهم لديه تعريفه الخاص به، والمنحرف بعض الشيء عن الموضوع الأساسي. هل الميم ظاهرة لسانية

فقط؟ أو أغنية أو جزء من مقطوعة موسيقية، أو لوحة، أو فعل ما كَنَحتِ حَجَر السّجّ لصنع نصل رمحٍ مُدَبّب؟ أم أنّ الميم يصبح ميماً إذا تمّ تدوينه على ورق؟ أو في حاسوبك؟ ما الفرق بين الميم والميمات المركّبة *memeplex*؟ إذا كنّا عاجزين عن تحديد المفهوم، كيف بإمكاننا دراسته إذن؟

إنّ التعريفات الحَذِرَة للمصطلحات ضرورية للغاية وحيوية ضمن الدوائر المعرفية للمجالات الأكاديمية كالفلسفة وعلم الاجتماع، ونظرية المعلومات. ولكن هذا الكتاب هو كتاب شعبي، ولا يحمل أي صبغة أكاديمية صارمة أو جامدة. برأيي، إنّ الميم هو أي قطعة أو جزء من المعلومات التي يمكن تمريرها ونقلها من عقلٍ إلى آخر، وعبر أي آلية ممكنة. إذا قمتُ بتعليم صديقي مصافحة سرية معينة، وكان صديقي يعتقد بأنّها طريفة ومحبّبة، ثمّ علّمَكَ إيّاها، عندها يمكننا القول أنّ هذه المصافحة السرية قد باتت ميماً. النقطة الأساسية والمحورية هنا هي كالتالي: الجينات والميمات كلاهما معلومات ذاتية التناسخ. قد يتكاثران بطريقة مختلفة عن بعضهما، الأولى عن طريق العمليات البيوكيميائية، والثانية عن طريق التواصل والاحتكاك بين شخصٍ وآخر، لكنهما من الناحية الجوهرية مجرّد معلومات. والأهم من ذلك هو أنّ نفس المعلومات التي تحتويها كلٌ من الجينات والميمات تشكّل القوّة المُحَفّزة والطاقة الدافعة لتكاثرها وتضاعفها.

ثلاثة مصادر للمعرفة

هناك ثلاثة مصادر أساسية للمعرفة بالنسبة للبشر: الغريزة، والتجربة، والثقافة.

«الغرائز» هي المعرفة التي تأتي معنا منذ الولادة. لا أحد يعلّمنا إياها، إذ لا أحد يعلّمنا كيف نخاف من المرتفعات، أو أن نَلجأ إلى أحضان أمّهاتنا لحظة الخطر، وأن نخاف من الأفاعي، أو أنواع الأطعمة التي يمكن تناولها والتي لا يجب أكلها. لا أحد يعلّم المراهق أنّه باتَ قادراً على ممارسة الجنس (بل العكس تماماً هذا أمرٌ طبيعيٌ جداً، لكنهم يخبرونه بعدم وجوب ممارسته!). هذه المعرفة متجذّرة ومتأصّلة في عقولنا وأدمغتنا، وفي أدمغة الكثير من الحيوانات الأخرى.

إنّ الخبرة تعلّمنا أنّ العُشب يبدو ناعماً تحت أقدامنا، وأنّ الأشواك ستؤلمنا إذا انغرست في إصبعنا، وأنّ النار ساخنة ومُحرِقة. المعرفة التجريبية هي معلومات نكتسبها من خلال تفاعلنا مع العالَم من حولنا والأشخاص المحيطون بنا. هذه المعرفة بحدّ ذاتها ليست فطرية.

أمّا التربية الثقافية، أي قدرتنا العالية والمتطوّرة على نقل الأفكار (الميمات) من شخصٍ إلى آخر، هي قدرة بشرية مقتصرة على الإنسان وحده، وهي القدرة التي تجعل من البشر حيوانات متميّزة عن غيرها من الأنواع الأخرى. وقد ظهرت بعض الأبحاث التي تبيّن أنّ بعض الحيوانات كالشمبانزي والغوريلا قادرة على نقل المعلومات ثقافياً، لكنّ قدرتها بدائية مقارنةً بالإنسان.

من هنا، يمكننا رؤية أنّ معتقداتنا الدينية يمكن تصنيفها كميمات, فعندما

وُلِدت، لم تكُن لديك أي معرفة دينية، ولا تعرف شيئاً عن ديانة أبويك، أو أي معلومات عن الأديان أو الآلهة (إنّها ليست معرفة فطرية-غريزية)، ولم تتعلّم شيئاً عن الدين من خلال تفاعلك مع بيئتك أو الطبيعة من حولك (إنّ الدين ليس معرفة تجريبية). بل هناك أحدٌ ما علّمَكَ كل ما تعرفه عن الدين والله. حتى إذا لَم تَكُن تؤمن بالله، فمازال لديك ميم الله في عقلك. إنّه ميمٌ تمّ حشره داخل رأسك من خلال أهلك وأقاربك ومجتمعك ومدرستك، وأهلكَ بدورهم جاؤوا به عن طريق أهلهم والمجتمع الذي كان يحيط بهم، وهذا رجوعاً في الزمن حتى بداية التاريخ.

مع هذه النظرة الميميائية الجديدة التي تعالج الأفكار بوصفها قِطع أو أجزاء معلومات ذاتية التكاثر، يمكننا الآن أن نعرف أنّ الدين عبارة عن فيروس ينتقل إلى دماغك. قد تفكّر قائلاً: «حسناً، لابدّ أنّك تتحدّث بطريقة مجازية. فالدين منظومة عقائدية كاملة، وليس مجرّد جرثومة». لكن في الواقع، عندما أستخدم عبارة «فيروس الدين»، فأنا أقصد ذلك بطريقة حَرفية تماماً. فيروس الدين ليس كيان فيزيائي أو مادي، يحتوي مادة وراثية أو بروتينات وغيرها، لكنّه بمعنى ما، فيروس حقيقي. والتشابه بين الفيروسات التي تنتقل إلى أدمغتنا والتي تنتقل إلى أجسادنا مذهلة بحق. وفي نهاية هذا الكتاب، آمل أن أقدّم لكم فَهماً مفصّلاً عن الطبيعة المُعدِيَة، والتكاثرية، والطفيلية لفيروس الدين وأثَره على الثقافة والمجتمع والسياسة، ومستقبل البشرية.

طريقنا

«إذا لم يكن هناك إلهٌ ،لكان من الضروري أن نخترعه».

[فولتير 1694-1778]

سنقوم بدراسة ثلاث طرق أو سُبُل بالتساوي. الأولى هي علم التطور الكلاسيكي، الذي كان أول مَن تحدّث عنه هو تشارلز داروين، أحد أعظم العقول في التاريخ. عِلم التطوّر الداروِيني مذهل في قدرته التفسيرية، ففي كتابٍ واحدٍ، أسّس داروين واحداً من أكثر العلوم أهميةً في التاريخ البشري. كلّ ما سنفعله هنا هو أن نخدش القشرة الخارجية فقط، فدراسته ستتطلّب وضع مجلّدات ضخمة، لكنّ ذلك ضروري جداً لرحلتنا.

الثانية، سنتعلّم أكثر عن الميمات؛ مجال دراسة جديد يسمّى «علم الميمياء *memetics*»، سنتعلّم كيف أنّ الميمات تخضع لنفس القواعد والقوانين التطورية التي تحكم الحياة العضوية التي قام داروين بدراستها، حيث أنّ هذه الأفكار والمفاهيم «تحيا وتتكاثر» داخل أدمغتنا، وسنتوسّع في علمنا التطوّري لنرى كيف يسلّط الضوء على عملية «التطور الثقافية».

الثالثة، سندرس الدين نفسه. وسنبيّن أنّ الدين يمكن تفسيره وتعليله بسهولة وبشكلٍ كامل في سياق علم الميمياء، والدروس التي نتعلّمها من علم التطوّر الداروِيني. لقد بيّن داروين أنّ الله لم يخلق الإنسان، والآن ومن خلال دراستنا لعلم الميمياء، سنتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّ الله لم يخلق الأديان. وباستخدام مبادئ داروين في التطور، وتطبيقها على مجال الثقافة من خلال نظرية الميمات، سنرى أنّ الأديان الحالية هي نواتج

نهائية لعملية التطور الداروينية التي كانت جارية على كلٍ من الثقافة والأفكار. في هذه الحالة، إنّ بقاء الأقوى أو الأصلح لا يعني بالضرورة بقاء الأصَحّ.

قليلاً عن التطور

«طبعاً، الله هو الذي علّم الطيور الطيران إذ أنّ عظامها مكوّنة من ذهبٍ خالص، وعروقها يجري فيها النحاس السائل، ولحمها أثقل من الرصاص، وأجنحتها صغيرة إلى أقصى حَد. لكنه لم يفعل ذلك، وهذا يعني شيئاً. فمن أجل أن تحمي جهلك فإنّك تضع الله عند كلّ زاوية ومنعطف لتَلجأ إلى المعجزة»

[غاليليو غاليليه]

أغلب القرّاء يعرفون أطروحة دَاروين الأساسية: أنّ الأحياء تطوّرت عن طريق عملية تسمّى بالانتقاء الطّبيعي. فالأنواع عرضةً للتغيّرات العشوائية في جيناتها، وعلى مَرّ ملايينٍ ومليارات السنين والأجيال، سمحت هذه العملية_ التي أطلق عليها تشارلز داروين اسم بقاء الأصلح أو الأقوى *Survival the of Fittest* _ بظهور تشكيلة متنوّعة وغنية من النباتات والحيوانات على الأرض.

وقد رأينا في القسم الأول من هذا الفصل أنّ الميمات والجينات كلاهما يقدّمان أمثلة عن المعلومات المتكاثرة ذاتياً. لسنا بحاجة لأن نتفاجأ عندئذٍ بأن ينطبق مفهوم «بقاء الأصلح أو الأقوى» على الميمات كما ينطبق على الحياة البيولوجية. قد تتغيّر الفكرة (تتطفّر) خلال انتقالها من شخصٍ إلى آخر، وتتنافس الأفكار فيما بينها لتحتلّ لنفسها «حيّزاً»

داخل دماغك، كما أنّها تتنافس من أجل زمن التكاثر بانتقالها إلى شخصٍ آخر. أفضل النكت هي الناجية، أمّا أسوأها «فتنقرض وتندثر».

كما سنرى لاحقاً، هذا المبدأ نفسه ينطبق على الأفكار الدينية: الأفكار الدينية الأفضل وحدها هي التي تنجو، أمّا الأفكار غير المناسبة والسيئة فتندثر وتنقرض، بالأصح، تلك هي الأفكار التي تجعل الناس يرغبون بتصديقها والإيمان بها، سواءٌ أكانت جيدة أم رديئة، خيّرة أم شريرة، مفيدة أو ضارّة. يمكن لأي فكرة أن تنجو وتستمرّ لأنها تستجيب لآمالنا وتطلّعاتنا، غرورنا وكبريائنا، أو الوعد بالجنّة والفردوس وجوائزهما. نحن نخاف العقاب الأبدي بالنار، نحن بحاجة للحماية من أعدائنا، نحن نخاف الموت، ونخاف من المجهول. والأفكار التي تتغذّى وتعتاش على هذه المخاوف يمكن أن تكون مناسبة، بمعنى أنّها تعيش وتبقى أيضاً، كتلك التي تتغذّى على المشاعر الإيجابية.

عندما تتطوّر الميمات، فإنّها تتطوّر نحو البقاء والاستمرار ،تتطوّر لتصبح ناجية _وهي الميمات التي تكون أكثر قابليةً للتصديق، ،والتي تستجيب لآمالنا وتطلّعاتنا، في حين أنّ الميمات الأقل قابليةً للتصديق والاستجابة تنقرض وتخرج من الذاكرة. تلك هي قاعدة: «البقاء للأصلح» الكلاسيكية، ضعها في عقلك وحافظ عليها هناك، فسنبدأ الآن رحلتنا عبر التاريخ الطبيعي لفيروس الدين.

ملحق

جَدّي وغروب الشمس

«لا أعلمُ حقّ اليقين إذا كان الله موجوداً، لكن من الأفضل عدم وجوده نهائياً نظراً لسُمعَتِهِ السيئة».

[جولز رينارد 1864-1910]

خلال إحدى الأمسيات عندما كنت في سنّ الثانية عشر من عمري، كنا قد وقفنا أنا وَجَدّي صامتين عند السياج الأمامي لحديقة منزل مزرعة العائلة في وادي كاليفورنيا، ليس بعيداً عن موديستو. كان المكان هادئاً جداً، ذلك النوع من الهدوء الذي لا تحصل عليه إلا في أماكن بعيدة عن المدينة، بعد توقف جميع الأعمال في المزرعة، صمتت الجرّارات، ومضت جميع الشاحنات على الطريق السريع إلى وجهتها. بدأت بعض الجَداجِد تغنّي نشيدها. حلّقت بومة فوق حقل الفاصولياء من فوق الحظيرة القديمة واتجهت نحو الجهة الجنوبية للمزرعة حيث أقامت عشّها.

أمّا المشهد الذي جذب انتباهنا كان مشهد غروب الشمس، أحد أروع وأجمل المشاهد التي تعقب عاصفة ربيعية، عندما يصبح الهواء دافئاً ورقيقاً فوق مزارع الوادي الكبير في كاليفورنيا. كانت أشعة الشمس الغاربة تنير سفح الهضبة، والغيوم المعيقة لها تَلمَعُ بمختلف الألوان، من البرتقالي الساطع بالقرب من خطّ الأفق، إلى الأحمر الزاهي فوقنا، إلى الأرجواني الخافت خلفنا على خلفية قمّة جبال سييرانيفادا المغطّاة بالثلوج.

مع هبوط الشمس نحو الغروب أكثر، قال جدي من دون أن يلتفت: «لا أدري كيف يمكنك رؤية هذا الغروب الرائع من دون أن تؤمن بوجود الله».

ومن دون تفكير، أجابه الصبي الذي يبلغ اثنا عشر عاماً الكامن في داخلي: «أنا لا أرى وجود أي صلة بين الأمرين يا جدّي. لقد فسّر آينشتاين سبب زرقة السماء وتحوّلها إلى اللون الأحمر وقت الغروب، لقد حاز على جائزة نوبل بفضل ذلك. هذا بسبب التأثير الكهروضوئي. كما ترى، فإنّ الأكسجين...» .

التفت إليّ جدّي ورمقني بنظرته، فتوقفت عن الحديث. لم يكن جدّي إنساناً عادياً، إنّما كان مزارعاً يحمل شهادة من جامعة كاليفورنيا. في الواقع كان جدّي ضمن أوّل دفعة دراسية عام 1929، حيث حاز على درجة البكالوريوس من هناك بعد 49 عاماً. كان جدّي يعرف الكثير عن العلم، والقليل عن الفيزياء، وكان يعرف جيداً بأنني مهووسٌ بالعلم.

سادت لحظةٌ من الصمت. ثمّ أردف قائلاً: «لا أعرف كيف كنت لأعيش من دون إلهٍ يا بني. كانت حياتي لتغدو صعبةً للغاية ومليئة بالمآسي والأحزان، لكنني لم أستسلم لأنني كنت أعرف بأنّ هناك مكافأة بانتظاري في الجنة عندما أموت. ومن حينٍ لآخر، يريني الرّبّ جلاله وعظمته في غروب الشمس».

لم أعرف حينها بماذا أجيب، حياة جدّي كانت صعبةً ومليئة بالأحزان؟ كيف يعقل ذلك؟

«حتى وإن لم تكن تؤمن بالله يا بني، عليك أن تمنح نفسك بعض

الوقت متى أمكنك ذلك لتقف وتراقب هذا الغروب الرائع. لا تنسى ذلك أبداً».

ولم أنسى ذلك بالفعل. ما زلت أتذكّر جدّي كلّما شاهدتُ غروباً. أنا أعرف تفسير آينشتاين الذي قدّمه عام1906، لكنّه مازال أحد أجمل المشاهد التي رأيتها من قبل... شكراً لك جدّي.

لكنني لن أنسى أبداً تلك الكلمات الحزينة: «لا أعرف كيف كنتُ لأعيش من دون إله». هذه الكلمات كانت بمثابة سجن بالنسبة لجدّي. كان بحاجة إلى مكافأة خيالية في الجنة لمساعدته على تقبّل تعاسته ومعاناته. وبدلاً من جعل حياته أفضل ممّا هي عليه، فعل ما تعلّم فعله بنو البشر على مدى آلاف السنين: تقبّل مصيرك، وارضَ بالقضاء والقدر، لا تشتكِ، لا تمتعض من حياتك، لأنّ جائزتك تنتظرك في الجنة وستنالها لاحقاً.

لقد علّمني جدّي الكثير بكلماته الحزينة هذه، أكثر من تفسيره لمجد الرّبّ وجلاله في هذا الغروب الجميل. لقد ألهمني استسلامه وساعدني على جعل حياتي أفضل، لإصلاح الأمور العالقة في حياتي، وألا أستسلم أو أضعف أبداً. لا وجود للجنة، ولا وجود للنار. فإذا كانت حياتي سيئة ومزرية الآن، فمن الأفضل أن أسعى لتحسينها وجعلها أفضل هنا والآن، وذلك لعدم وجود فرصٍ أخرى.

حياتي رائعة وجميلة... شكراً لهذا الدرس يا جدّي.

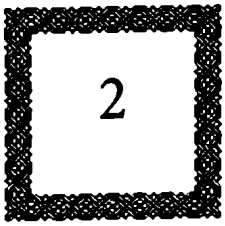

﴿طفولة الدين﴾

إنّ الديانات الإبراهيمية الحديثة والمعاصرة التي نجدها في أيامنا هذه (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) جميعها مُصاغة من نسيج مُشتَرَك فيما بينها. سنبدأ بدراسة فيروس الدين من خلال ثمانية نقاط أساسية تطوّرت خلال الألفية التي سَبَقَت عصر يسوع المسيح. وخلال دراستنا لكل فكرة، حاول النظر إليها بوصفها ميماً: كياناً متطوّراً، متناسخاً، متضاعفاً يتنافس مع غيره من الكيانات (الميمات) الأخرى، محاولاً الحفاظ على بقاءه واستمراره، والانتقال إلى الجيل التالي، مثل الجينات تماماً. أغلب دراسات تاريخ الأديان تركّز على كيفية اكتساب مجموعة من الأفكار أهمّية معينة وكيفية جَمعها وصياغة ديانة أو عقيدة منها. في نسختنا الحالية من التاريخ، سنتعرّف إلى سبب بقاء هذه الأفكار وانتشارها، بينما لَم تنجو أفكار أخرى وانقرضت لتصبح طَيّ النسيان.

الميم المُسَمّى «إله الغايات الشاملة»

«لو قُيّضَ لله أن يعيش الحياة التي فَرَضَها هو على البشر، لَقَتَلَ نفسه على الفور»

[ألكسَندر دوماس، «فِلْس»]

تقع جزيرة غينيا الجديدة شمال أستراليا عن الحافّة الجنوبية الغربية للمحيط الهادئ، وهي ثاني أكبر جزيرة في العالَم. اكتشفها الأوروبيون في أوائل القَرن السادس عشر، لكن تمّ تجاهلها حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما بدأ المبشّرون والتجّار بالاستقرار هناك. احتُلّت غينيا الجديدة وهُجِرَت أكثر من مرّة من قبل الأمم الأوروبية، وفي النهاية أصبح الجزء الغربي منها Irian Jaya الذي باتَ يُسَمّى الآن «بابوا» إقليم إندونيسيا، وفي عام 1975 حصل القسم الشرقي منها على استقلاله وبات يسمّى اليوم بابوا غينيا الجديدة.

خلال فترة الثلاثينيات من القرن الماضي، حَدَثَ أمرٌ مذهل. كان عمق الأراضي الغينية مكوّناً من جبال شاهقة وشديدة الانحدار، مُغَطّاةً بطبقة سميكة من الغابات المطيرة، وكان يُعتَقَد أنّها غير مأهولة إطلاقاً. جَمَعَت الحكومة الهولندية _على أمل الاستفادة من مُستَعمَرَتها_ بعثة استكشافية للدخول في أعماق غينيا واستكشافها بَحثاً عن الذهب أو أيّة موارد أخرى في الجبال الوَعِرَة. ولدهشتهم البالغة، بدلاً من أن يجدوا غابات وأدغال غير مأهولة، اكتشفوا حضارة كاملة. وليس مجرّد قبائل أو مستعمرات متفرّقة ومُشَتّتة، بل حضارة مُكَوّنة من حوالي مليون نسمة. وعلى مَدى العقود اللاحقة، استمرّ اكتشاف المزيد والمزيد من القبائل داخل هذه السهول والهضاب الوَعِرة والمنحدرات وكان ذلك بمثابة أخبار صاعقة بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا، في الحقيقة كان هذا آخر أعظم اكتشاف لمجتمع كبير و «بدائي» في العالَم. وبالرغم من المعجزات والعجائب التكنولوجية التي تمّ تحقيقها في القرن العشرين، كان هناك حوالي مليون شخص معزولين تماماً عن باقي البشر في العالَم.

إحدى القبائل التي كانت تقطن هذه المرتفعات سُمّيَت بشعب الـ«أمونغ»

Among تيمّناً بالجبال الوَعِرَة والوديان السحيقة في إقليم غينيا الجديدة، كان شعب المرتفعات مُنعَزِل ومُنفَصِل تماماً عن شعب الأراضي المنخفضة أو السهول، وأغلب القبائل كانت معزولة عن بعضها البعض لآلاف السنين. وقبل أن يُعاد تحديد مواقعها من قِبَل الحكومة الهولندية وكَهَنَة ومبَشّرو الكنيسة الكاثوليكية لاستغلال أراضيهم واستعمارها، كان الأمونغ يشغلون سبعة عشر وادياً في جبال سودرمان.

كان شعب الأمونغ يعتنق عقيدة أرواحية نموذجية *animism* ونظاماً عقائدياً روحياً كاملاً، اعتمدت فيه على الأرواح/الأنيما *anima* بشكل أساسي لتعني (الروحي) بمعناها الحرفي. وقامت الباحثة د.كارولين ود. تورنيسكي كوك بدراسة معمّقة لشعب الأمونغ ومعتقداته، فكتبت قائلة: «الشعوب البدائية والفطرية كشعب الأمونغ، يؤمنون بأنّ المادّة حيّة _جميع أشكال المادة وبمختلف أنواعها. يمكنهم رؤية الحياة في الحجارة، والأنهار، بالإضافة إلى الناس... ويتضمّن نظامهم العقائدي مزيجاً من أرواح الأرض [و] أرواح الأجداد...».

بمعنى آخر، لم يكُن الأمونغ يملكون أي فكرة عن الله أو الآلهة سواءٌ كانت مستقلّة أو منفصلة عن الطبيعة، فالأرواح والطبيعة هما شيء واحد. لم يكن الدين منفصلاً عن حياتهم اليومية الاجتماعية، مثل الكنيسة التي ترتادها يوم الأحد، بل كانوا مُشبَعين وغارقين في ديانتهم التي تربّوا عليها طوال حياتهم. بمعنى أنّ الأرواح جزءٌ من المجتمع وليست منفصلة عنه.

إذا قمتَ بإحصاء أعداد الآلهة على مَرّ التاريخ منذ فجر التاريخ المكتوب، سترى اتجاهاً واحداً يبرز أمامك: بمرور الزمن، كانت أعداد الآلهة تقلّ وكانوا يتناقصون، لكنّ تلك الآلهة التي بقيت، اكتسبَت قوى وقدرات أكثر فأكثر.

إنّ المعتقدات المبكّرة التي يمكن تصنيفها كمعتقدات دينية هي الأرواحية عادةً، كالتي يعتنقها شعب الأمونغ. اي أنّ الناس «سَيُرَوحِنون» جميع الأشياء والموجودات التي كانت ضرورية لحياتهم وبقائهم. كالمحاصيل، والأشجار، والغزلان والدّبَبَة، والشمس والقمر، والغيوم الماطرة، والرمح والفأس _جميع هذه الأشياء كانت ضرورية وهامّة بالنسبة لهم_ إذ كانوا يتصوّرون أنّها تمتلك شخصيات ودوافع ورغبات خاصّة بها. دوّامة مفاجئة في النهر تريد ابتلاع القارب وإغراقه، وعلى قائد القارب أن يكون حكيماً وأذكى من الدّوامَة ليتفوّق عليها (إنّها مسألة شخصية، قائد القارب ضدّ الدوّامة). قد تشعر غيمَة عابرة بالشفقة على القرية وتمنَح سكّانها المطر إذا استعطفوها وناشدوها وعَرَضوا عليها حاجتهم وقاموا بالطقوس المناسبة واللازمة. قد يوافق الغزال على التضحية بنفسه إذ شَرَحَ له الصيّاد سبب صيده له وأخبرهُ أنّه يريد إطعام أولاده الجوعى.

يمكن طَلَب المشورة من هذه الأرواح، وتفادي غضبها وسخطها، واسترضائها والتضرّع لها، وخِداعها، وطَلَب حِمايتها، كل ذلك جزء جوهري وأساسي من حياة أي شخص. يتفاعل الناس ضمن هذه المجتمعات مع هذه الأرواح مثلما يتفاعلون مع بعضهم البعض _بمساواة متفاوتة. كل روحٍ أو نفس لها غاية واضحة أو هَدَفٌ واضح: روح الغزال تحمي الغَزال، وروح القمر تُرشِد القمر عبر السماء، وروح الغيوم تقرّر موعد هطول المطر وأوانه. فإذا كنتَ بحاجة لمساعدة الروح، عليك أن تتضرّع إليها، وتسترضيها، ثمّ تطلب حاجتكَ منها.

كتبت الدكتورة كورينسكي كوك عن حياة شعب الأمونغ اليومية:

«كل شيء يمثّل أهمية قصوى، حتى أصغر الأشياء وأتفهها، الحجارة، والهضاب، والجداول تجري من دون اسم في أرض الأمونغ. جبال الأمونغ

في الشمال هي مَرتَع أرواح أجدادهم. إنّها جبالٌ مقدّسة وترتبط بها العديد من القصص والأساطير والحكايات الشعبية. إنّ حياتهم اليومية تعكس المكانة الروحانية عند شعب الأمونغ وارتباطهم بأرضهم.

إنّ القيم والقيود التي يفرضها النظام الاجتماعي لدى الأمونغ تعكس احتراماً وتقديراً بالغين لبعض القوى غير البشرية، لنسَمّها أرواح السلف أو الأجداد أو أرواح الأرض... وهذا يمنحهم سياقاً عاماً لتفاعلاتهم اليومية وعلاقاتهم مع الآخرين».

مع مرور الزمن ونضوج المجتمعات، تقوى الرابطة بين الأرواح العليا *meta-spirits* (أو الأرواح المافوق_الأرواح) والجماعات أكثر من ارتباطها بالأشياء أو الموجودات غير الحية: قد تكون هناك روح دُبّ مسؤولة عن جميع الدّبَبَة الأفراد، أو روحٌ للطقس هي المسؤولة عن جميع الغيوم. هذه الأرواح تصبح أكثر قوّةً مع مرور الوقت، وتنفصل أكثر فأكثر عن الأشياء المادية في هذا العالم. إنّ الخَطّ الفاصل ما بين «روح» و «إله» عبارة عن منطقة رمادية في الواقع، ولكن بعد فترة من الزمن ستغدو هذه الأرواح قويةً جداً وتكتسب قوى وتأثيرات جديدة، ويصبح من الأنسب تسميتها بـ«آلهة».

ما أن تصبح الآلهة كيانات مجرّدة (أي مستقلّة عن العالَم وموجوداته)، فإنّ الخطوة التالية في مسيرة تطوّرها هي أن تصبح آلهة مفاهيمية أكثر من كونها آلهة شيئية. هذه الآلهة بإمكانها الاستجابة للدعوات والصلوات من أجل مفاهيم مجرّدة، كالحبّ، والعَدل، والحرب. والدّعاء لروح الحجر أو الغزال لا يساعد في الحصول على الحب، لكنّ الصلاة إلى «الله» قد تنفع في ذلك.

كانت هذه هي الخطوة الأولى في مسيرة تطوّر «ميم» إله الغايات الشاملة والكلية. لقد تطوّر الدين من آلهة أرواحية (أرواح) كانت متّصلة ومرتبطة

بأشياء مادية معيّنة (دِبَبَة، أشجار) بغايات وأهداف محدّدة وضيّقة، إلى آلهة مسؤولة عن فصائل وأنواع كاملة من الأمور (جميع الدّبَبَة، جميع الأشجار)، ثمّ إلى كيانات مفاهيمية مجرّدة بشكلٍ كامل (كالحب) أو نشاطات متعلّقة بالإنسان (كالحرب).

ويستمرّ الميل والبحث عن آلهة أقل وأقوى. تبدأ الآلهة بتولّي بعض المَهام، إذ بإمكانكَ الصلاة لأحد الآلهة من أجل عَدد من الأمور والأشياء المختلفة. هناك أيضاً تراتبية هيراركية [أبوية-سلطوية] تتخلّل هذه المجموعة المُقَنّنَة من الآلهة، آلهة أقل وأعظَم وأقوى. عاجلاً أم آجلاً سيظهر الإله الأعظم والأقوى، في بعض الأحيان بشخصية الأم، وفي أحيان أخرى بشخصية الأب.

هذا الميل ضمن سياق التاريخ التطوّري الديني نتجَت عنه تنويعة رائعة من المجتمعات الإنسانية. ليس جميع المجتمعات طبعاً، وبالتأكيد هناك مجتمعات لم تَطَأ «عَتَبَةَ» التوحيد حتى، لكن ضمن سياقٍ أوسع، تميل معظم المجتمعات للبدء من المرحلة الأرواحية، ثمّ تنتقل إلى المرحلة التعددية (أي مرحلة عبادة آلهة متعدّدة)، ثمّ نحو الآلهة الهيراركية، والتي تُقَنّن في النهاية إلى عدد من الآلهة المسيطرة، أو إلهٌ واحد مُهَيمن. هذا تعميمٌ جامح بعض الشيء، لكنّه يعرض أمامنا صورة شاملة وواضحة.

لم يَكُن إبراهيم (منذ حوالي 2000 إلى 1900 ق.م) ولا حتّى موسى (حوالي 1200 ق.م) موحّدين. بل كانا جزءاً من ثقافة تعدّدية واسعة تضمّنت العديد من الآلهة. لَم يَكُن إبراهيم ولا نسله من بَعده وصولاً إلى موسى والإسرائيليين الأوائل يؤمنون بيَهوه (كما نعرفه اليوم) كإله وحيد. بل كانوا يؤمنون بعدّة آلهة منها بَعل، وأشيراه، وأنات، والعديد غيرها.

حسب كتاب التكوين أقام إبراهيم ميثاقاً مع الإله «إيل»، واعداً إيّاه بأنّه إذا اعترف به كإله واحد لا شريك له، فإنّه سيباركه ويَرزقه بذرية مباركة ووفيرة، وأنّه سيحمي شعبه ويحفظه من كل سوء. من الواضح أنّ إبراهيم كان وثنياً: لماذا يطلب إيل منه الولاء إذا كان إبراهيم وثنياً أصلاً؟... وعندما وافق إبراهيم على هذا الميثاق (الذي لَمْ يَكُن قد سُمّيَ بهذا الاسم بعد) حامي الإسرائيليين، ووعدهُ الإسرائيليون بأن يمتَنِعوا عَن عبادة اي آلهة أخرى.

لكنّ ذلك لَمْ يجري على النَحو المُخَطّط له. كيف يمكن لأحدهم الصلاة ليَهوه، إله الحروب والجيوش والفيالق، لضمان خصوبة الأرض ونموّ الزرع؟ كان أغلب الإسرائيليين قد أدركوا ذلك. لقد قدّموا تبجيلهم واحترامهم إلى يَهوه، لكنّهم أيضاً كانوا يصلّون للآلهة التقليدية الأخرى عند الحاجة إليها. اعتَقَدَ الإسرائيليون أنّ ذلك من قَبيل الطيش والحَماقة تجاهل الآلهة الأخرى والتضرّع من أجل بركاتها، فقط بسبب أنّ يهوه كان إلهاً «غَيوراً». في أوقات السلم، كان من السهل تناسي الميثاق الذي أقامه إبراهيم مع الرّبّ وتجاهُلِهِ.

في زمن موسى، كانت هناك الكثير من الحروب والأوبئة والأمراض، وجميعها كانت تتهاطل على الإسرائيليين، وقد زعم التقليديون منهم أنّ هذه الفاقات ما هي إلا عقابٌ لهم: لقد أخلَفوا بالميثاق مع الإله الحَق «إيل»، وبذلك خسروا تفضيل الرّبّ لهم. لذا وبحسب التاريخ الكتابي/التوراتي، ظهر يهوه لموسى، وعَقَدَ معه ميثاقاً جديداً: سَنَّ يهوه قوانين جديدة، وقد جَدّدَ الإسرائيليون وعدهم بالالتزام بعبادة يهوه وحده دون غيره من الآلهة.

ومن المثير بشكلٍ خاص ما قاله يهوه لموسى عندما ظهر له في الأجَمَة المشتعلة، إذ أصَرّ وشَدّدَ على القول بأنّه «إيل شاداي» _إله إبراهيم. «أنا إله أبيكَ، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب» [سفر الخروج، 3: 6].

كان موسى يؤمن بعدّة آلهة، لذا كان على يهوه أن يفسّر لموسى أنّه لَمْ يَكُن إله والد موسى فقط، بل أيضاً إله إبراهيم وذريته. طبعاً، يؤكّد يهوه في سفر التكوين ثلاث مرّات أنّه هو نفسه الإله الذي عَبَدَه إبراهيم. والآن وَجَدَ الإسرائيليون أنفسهم ملتزمين بوعدهم، فقد وَعَدوا بتقديم فروض الطاعة والولاء إلى يهوه مرّتين، الأولى مع ميثاق إبراهيم، والثانية مع ميثاق موسى، ومع ذلك كانت أوامر يهوه وقيوده وتحريمه إيّاهم عبادة آلهة اخرى يتخلّله الكثير من المشاكل: كيف يمكن ليهوه _إله المعارك والفَيالق والجيوش_ الذي عُرِفَ بلقب «يهوه ساباؤوث» أي إله الجحافل، أن يساعدهم عندما يتعلّق الأمر بإنجاب طفل صحيح ومعافى، أو ضَمان حَصاد وفير؟ لِمَن يجب أن تُصَلّي الفتاة الشابة من أجل الحُب؟ لِمَن يجب أن يتوجّه الأب المريض في صلاته ودعواته ليَستَرِدّ صحّتهُ وعافيته ويعود لمزاولة عمله ليُطعمَ أسرَتَهُ؟ مَنْ يستجيب لصلاة الراعي من أجل أن يستعيد ثوره عافيته؟ لقد سَبّبَت هذه الإشكاليات الإجهاد لعقول الإسرائيليين: فوَعدُهُم ليهوه كان يتعارض مع حاجاتهم الروحية. ومع مرور الوقت، دخل مفهوم الإسرائيليين عن يهوه المسار الذي تحدّثنا عنه سابقاً: أصبح يهوه (في عقولهم) أكثر قوّةً وقدرة، حتى أضحى في النهاية سَيّدَ كل شيء، وليس سيّد الحرب والجحافل فحسب. قيل أنّ يهوه كان قادراً على الاستجابة لجميع الصلوات، وشيئاً فشيئاً وَجَدَ الإسرائيليون أنّه من الأنسب الصلاة إلى يهوه فقط. وفي زمن يسوع، آمَنَ اليهود أنّ يهوه كان «الإله/الرّبّ العظيم»، خالق الكون وكل ما فيه، مُطلَق الحكمة، ومُطلَق العلم والمعرفة، ومُطلَق القوّة والمقدرة، كما أنّه القادر على الاستجابة لجميع الصلوات.

كانت هذه هي الخطوة الأخيرة في مسيرة تطوّر ميم «إله الغايات الشاملة». سابقاً، كان يهوه يطالب الإسرائيليين بالطاعة والوَلاء المطلقين لنفسه، وكان

من الصعب عليهم طاعته لحاجتهم لمساعدة الآلهة الأخرى. لكن بعد أن تطوّر ميم يهوه ليصبح «إله الغايات الشاملة»، بات من الممكن، ولأوّل مرّة في التاريخ البشري لإله أن يطالب بالطاعة المطلقة لنفسه ولوحده، ويحصل عليها بالفعل.

لماذا كان ميم «إله الغايات الشاملة» طفرة جيّدة لتركيبة يهوه الميميائية؟ لأنّه من السهل عبادة «ميم إله الغايات الموحّدَة» أكثر من عديد من الميمات الإلهية المتخصّصة والمتفرّقة. بإمكانك أن تطلُبَ جميع حاجاتك في صلاةٍ واحدة. لقد تحوّل ميم يهوه من إله تخصّصي لا يؤدّي سوى غَرَضٍ وحيد أثناء الحروب فقط، إلى إله يُلَبّي لكَ جميع احتياجاتك وطلباتك. كان هذا بمثابة خطوة هائلة وطفرة نوعية نحو تحويل يهوه إلى «الرّبّ العظيم» الذي نعرفه اليوم.

قد تبدو هذه القصّة جديدة بعض الشيء على أسماع بعض القُرّاء، إلا أنّ أيّ مؤرّخ سيشير إلى أنّنا قد أعَدنا للتّوّ سَرد قصّة يمكن العثور عليها ضمن الآلاف من كُتُب التاريخ، ومن بينها العَهد القديم نفسه. ومن هنا بالضبط تنبع دراستنا للميمات. تخبرنا كتب التاريخ كلّ ما حَدَث، لكنّ مبادئ داروين في التطوّر، عندما نطبّقها على الميمات، تساعدنا على فهم ما حَدَث بشكلٍ أفضل، ولماذا حَدَثَ ذلك.

لَم يَكُن ميم «إله الغايات الشاملة» _في لحظة من التاريخ_ مفهوماً موحّداً، بل كان كتلة ضخمة من أفكار متشابهة تَمّ تلقيننا إيّاها عن طريق الأهل، والمدرّسين، والكَهَنَة، والزعماء الدينيين. إنّ ميم «إله الغايات الشاملة» يجيبنا أساساً على سؤال «ما الصلوات التي يستجيب لها يهوه؟».

يمكنك تأمّل جواب كل شخص على هذا السؤال واعتباره «ميماً قائماً

بذاته»، وأجوبة الجماعات ككلّ _أو المجتمع_ «كأنواع من الميمات» التي تتطوّر مثل النباتات والحيوانات، كل فَرد (كل جواب يقدّمه شخصٌ ما على هذا السؤال) يمتلك القدرة أو الإمكانية على التكاثر، إذا ما قَبِلَ أحدهم هذا الجواب واعتنقه وتبنّاه ضمن منظومته العقائدية. يعني مصطلح «البقاء للأصلح» أنّ النُسَخ المُجَمّلة والمقبولة ليهوه سوف تنتشر وتزدهر، أمّا لنسخ السيئة والرديئة وغير المقبولة فسوف تموت وتندثر. وقد استمرّت هذه العملية مع كل جيل. الأفكار ليست ساكنة، بل تتغيّر باستمرار وتتحوّل كلّما تمّ سردها وتناقلها، ومع تغيّر المجتمع، ومع تغيّر البيئة الماديّة (العالَم)، مع وجود الكثير من العَوامل والقوى التي تعمل على تغيير أفكار الناس وآرائهم. مع مرور الأجيال والألفيات، استمرّ ميم «إله الغايات الشاملة» بالتغيّر والتطوّر والتحوّل بأساليب وطرق مختلفة، ونسخ مختلفة تمّ اعتناقها والإيمان بها بدرجة مختلفة مع الجيل التالي.

في زمن يسوع، كان الجواب على هذا السؤال مختلف جذرياً عن الجواب في زمن إبراهيم. فإله إبراهيم: يهوه _إله الجيوش والجحافل والحروب كان إلهاً متخصّصاً، إله حرب، ولم يَكُن ميم «إله الغايات الشاملة» قد تطوّر بعد. لكنّ العملية القاسية والطويلة للتطفّر والانتقاء الطبيعي قدّ عدّلَت وغيّرت هذا الجانب من يهوه. كان ميم «إله الغايات الشاملة» هو الناجي وهو الأصلح للبقاء، لذلك انقرض ميم إله الحرب واندثر.

ميم التوحيد

«الآلهة أيضاً تعشق النكت»

[أرسطوطاليس 384-322 ق.م]

عندما أصبح يهوه إلهاً لجميع الغايات، لم يَعُد من الضروري عبادة الآلهة الأخرى _كان بإمكان يهوه تدبّر جميع الحاجات وتلبية كافة الصلوات للإسرائيليين. لكن ليس هذا هو أصل التوحيد اليهودي، فبالرغم من أنّهم عَبَدوا يهوه وحده، كان الكثير من الإسرائيليين بل أغلبهم حتى وثنيين طوال القرون التي سَبَقَت زمن موسى. إنّ فكرة أنّ يهوه كان هو الإله الوحيد تبدو سخيفة لأغلب الإسرائيليين، بالرغم من أنّهم عبدوه حصراً.

في زمن إبراهيم، كان الإسرائيليون _وجميع شعوب العالم_ وثنيين ومشركين، وكانوا يعبدون بنشاط ظاهر عدّة آلهة. فحسب التاريخ الإبراهيمي المعروف بالتاناخ (اليهود) أو العهد القديم (المسيحيين)، فإنّ الإله إيل قد أظهر نفسه لإبراهيم. مع أنّ بذرة التوحيد كانت قد غُرِسَت، إلا أنّها لَم تنبت حتى زمن موسى، وحتى عندها، لم يكن اليهود قد تحوّلوا إلى التوحيد بشكلٍ كامل حتى زمن يسوع. كانت العادات والتقاليد القديمة تكافح وتستبسل في صراعها من أجل البقاء. كان أغلب الإسرائيليين يعرفون أنّ يهوه كان إلههم الخاص، والمتميّز، لكنهم كانوا يؤمنون بالآلهة التقليدية الأخرى.

ويمكننا ملاحظة ذلك في العديد من المقاطع التوراتية، على سبيل المثال: «الآن عَلِمتُ أنّ الرّبّ أعظَمُ من جميع الآلهة، لأنّه في الشيء الذي بَغوا به كان عليهم» [خروج، 18: 11]. «والبيت الذي أنا بانيهِ عظيمٌ لأنّ إلهنا أعظمُ من جميع الآلهة» [أخبار الأيام الثاني، 2: 5].

لقد تأسّس التوحيد الحقيقي عند اليهود مع موسى، وهي القصّة التي ذكرناها باختصار في القسم الماضي، ميم «إله الغايات الشاملة». فخلال زمن موسى، جَدّدَ اليهود ميثاقهم مع يهوه، لكن الأهم من ذلك، وخلال الألفية التالية، باتوا مقتنعين تدريجياً بأنّ يهوه كان الإله الواحد والوحيد، وأنّ الآلهة الأخرى كانت خيالية. على وجه التحديد، كان شعب موسى موحّدين، أي أنّهم كرّسوا عباداتهم للإله الواحد، يهوه، لكنهم كانوا يعتقدون بوجود عدّة آلهة غيره.

خلال الفترة التي رأى فيها إشعيا النبي رؤياه (حوالي عام 746 ق.م) كان التوحيد يثبّت اقدامه فوق أرض اللاهوت اليهودي. «أنا هو الأول والآخر، ولا إله غيري» [إشعيا، 44: 6]، وبعد إشعيا بفترة قصيرة، نلاحظ أنّ سِفر التثنية كان له أثَر عميق على التوحيد بين اليهود. مع أنّ تاريخ كتابة سفر التثنية غير دقيق أو مضبوط، يبدو أنّه كُتِبَ حوالي عام 700 ق.م. يتضمّن سفر التثنية على الأقل على عدد من التحذيرات ضدّ الوثنية وعبادة الأصنام، ومن الواضح أنّ ذلك بدا بمثابة ثورة ضدّ يهوه. في سِفر التثنية، لا مكان لتعدّد الآلهة أو للشرك.

لكنّ الفكر التعدّدي الشركي لَمْ يَكُن قد اختفى بَعْد بين اليهود_الكثيرون كانوا ما يزالون يعبدون آلهةً أخرى. النبي إرميا، الذي عاش في الفترة التي دُمّرَ فيها الهيكل (حوالي 587/586 ق.م)، كان يستمع إلى شكاوى النساء اليهوديات في مصر: «لم نطيعك فيما خاطبتنا به من كلام باسم الرّبّ بل نعمل بمقتضى ما تَعَهّدنا به، فَنَحرق بخوراً لملكة السماء ونقرّب لها السكائب كما سبق أن فعلنا نحن وآبائنا ومُلوكنا ورؤسائنا في مُدُن اليهودية وشوارع أورشليم، فكانت لنا وفرةٌ من الطعام وتَمَتّعنا بالخير ولَمْ يُصِبنا شَرّ. ولكن منذ أن اهمّلنا إحراق البخور لملكة السماء وتقريب السكائب لها، افتقرنا إلى كل

شيء، وفنينا بالسيف والجوع» [إرميا، 44: 16-18].

بالرغم من وقوع حوادث كهذه، كان الشعب اليهودي يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شعبٍ موحّدٍ بالكامل. وقد جادَلَ الفلاسفة والحكماء اليهود بأنّ يهوه لم يكُن فقط إلههم المتخصّص، بل كان الإله الأوحد. لقد تحوّل يهوه من إلهٍ مُحارب يتناول العشاء مع إبراهيم وكأنّه جاره، إلى إلهٍ جَبّارٍ قاهِر ظَهَرَ أمام موسى شخصياً حتى خاف الأخير منه، إلى الرّبّ العظيم، مُطلَق العلم، والمُجَرّد الخَفي.

كان لميم التوحيد أثرٌ عميقٌ على الموحّدين، لدرجة أنّه لم يقنعهُم فقط أنّ يهوه هو الإله الأوحد، بل محى أيضاً كل تاريخهم السابق وأعاد صياغته من جديد، مُقنعاً المؤمنين بأنّ الإسرائيليين كانوا دوماً موحّدين. ومع ذلك هناك بعض السَمات الشركية-التعددية تبدو واضحة وجليّة في العهد القديم حين يناقش موضوع الآلهة الأخرى: «الرّبّ يترأسُ ساحة قضائِهِ، وعلى القُضاة يُصدرُ حُكماً... أنا قلتُ: إنّكم آلهة، وجميعكم أبناء العَلي. لكنكم ستموتون كالبشر، وتنتهي حياتكم مثل كل الرؤساء» [المزامير، 82]. «فَمَنْ مِثلَكَ يا رَبُّ بين كل الآلهة؟» [خروج، 15: 11]. «ويَصنَعُ المَلِكُ ما يَطيبُ له. ويَتَعَظّم على كل إله، ويُجَدّف بالعَظائم على إله الآلهة» [دانيال، 12: 36]. «لأنّكَ أنتَ العَليّ فوق كل الأرض، والمُتَسامي جداً فوق كل الآلهة» [مزامير، 79].

كان ميم التوحيد فعّالاً وقوياً لدرجة أنّ أغلب اليهود والمسيحيين والمسلمين اليوم لا يُدرِكون حتى أنّ الإسرائيليين منذ زمن إبراهيم وحتى زمن موسى كانوا مُشركين/أي يؤمنون بوجود عدّة آلهة. لقد أقصى ميم التوحيد التاريخ الشركي-التعدّدي الصحيح ونسخه بتاريخٍ آخر يقول أنّ اليهود كانوا موحّدين منذ البداية.

ما الذي يمكن لنظرية التطور الداروينية أن تخبرنا عن التوحيد؟ إحدى أهم نتائج الانتقاء الطبيعي والبقاء للأصلح هي أنّه إذا كان هناك نوعان يَشغلان نفس الحَيّز البيئي، أي إذا كان كلا النوعين يعيشان نفس الأسلوب بالضبط، فإنّ أحدهما سيَسود بسرعة وينقرض الآخر ويندثر. نوعان يعيشان ضمن حالة توازن مثالية في نفس النظام البيئي تشبه حالة توازن مسمار واقف على رأسه المُدَبّب: إنّها حالة غير مستقرّة أصلاً، وسيسقط المسمار في النهاية بالرغم من جميع محاولاتك المُجهِدَة لموازَنَتِهِ.

في حالة الأنواع المتنافسة، إذا كان أحدها يمتلك أصغَرَ قَدرٍ من الأفضلية على الأنواع الأخرى، (في الحياة الفعلية، هناك دائماً اختلافات) فإنّ القوى والعَوامل القاسية لعملية الانتقاء الطبيعي تقوم بعَمَلها بسرعة على الأنواع الأقل تكيّفاً.

في حالة العقيدة الأرواحية البدائية، لكلّ روح نظام بيئي محدّد وخاص بها _روح الدّبّ مسؤولة عن الدّبَبَة، وروح الغيوم مسؤولة عن الطقس، وهاتان الروحان لا تتنافسان فيما بينهما ولا يتقاطع مجالاهما، بل لكل واحدةٍ منهما مجالها الخاص بها. لكنّنا تعلّمنا مسبقاً كيف أنّ _مع مرور الوقت_ تعدّد الأرواح تمّ تقنينه إلى عدّة آلهة، ثم لبضعة قليلة. في نفس الوقت، هذه الآلهة أصبحت أكثر عمومية وشمولية في تخصّصها، وهنا تكمن المشكلة بالتحديد: في مرحلة ما، بدأت مجالاتها وعوالمها البيئية بالتداخل والاندماج، وبدأت في التنافس مع بعضها البعض على البقاء والاستمرار. وكما يحدث في الطبيعة، إذا كان هناك إلهين يخدمان نفس الغاية، فسيسود أحدهما على الأرجح، والآخر سيَنقرض ويَندَثر.

هناك تماثل كبير وبين تطوّر يهوه والجنس البشري. لقد أصبح البشر عموميين، أي متعَدّدي الوظائف والمجالات، وابتعدوا عن التخصّص:

فنحن بإمكاننا العيش في أيّ مكانٍ على الأرض، وبإمكاننا تناول كل شيء تقريباً. لقد أصبحنا منافسين لأكبر حيوانٍ على وجه الأرض، حتى أنّ بعض الأنواع قد وَصَلَت إلى حافّة الانقراض، أو انقَرَضَت بالفعل، لأنّنا _نحن البشر_ تعدّينا على مصادرها ومواردها الغذائية، واستولينا على بيئاتها أو قُمنا بتدميرها.

وبنفس الشكل، أصبح يهوه أكثر عمومية. فقد اغتصب أدوار ومجالات جميع الآلهة ونسبها لنفسه، ممّا أدّى إلى انقراضها تقريباً في العالَم الغربي. وتتنبّأ نظرية التطوّر الميميائية بنوع الأديان التي توجد اليوم: لقد تمّ استبدال الآلهة العديدة قديماً بإلهٍ وحيد وشامل، متعدّد الاختصاصات، وهو الوحيد الذي شَغَلَ أو احتَلّ كامل النظام البيئي الديني.

ميم التعصّب

«في كلّ بَلَدٍ، وفي كلّ عصرٍ، كان الكاهن من ألَدّ أعداء التحرّر. وكان في حالة تحالف دائم مع المستبدّ، مبرّراً انتهاكات وظلم الطغاة مقابل حماية مصالحه الخاصّة».

[توماس جيفرسون، رسالة إلى هـ. سبافورد، 1814]

إنّ الآلهة القديمة، ومن بينهم يهوه نفسه، كانت تتخلّلها العديد من العيوب والنواقص البشرية في طبيعتها. ديونيزوس على سبيل المثال (والذي يُعرَف أيضاً باسم باخوس) كان إله الخمرة والاحتفال والخصوبة. وقام أبولّلو بقتل مارسياس لأنّه تفوّق عليه بالعَزف خلال حفلة موسيقية. وأفروديت غالباً ما يتمّ تصويرها بالخائنة وغير الوفية لزوجها، الطائشة، وعصبية المزاج، وغالباً ما تشعر بالإهانة بسهولة. «ذنوب» زيوس وخطاياه أكثر من أن تُعَدّ أو تُحصى: مُغتَصِب، قاتل، كذّاب، مخادع وفتّاك. الملكة إيزيس، بالرغم من أنّها كانت تُعبَدُ بوصفها الزوجة المثالية والأم الحنون، قد تزوّجت من أخاها (سِفاح قُربى). وحتى يهوه نفسه معروفٌ بأنّه أنزَلَ الطوفان، والأمراض والأوبئة، والمجاعات، والكثير غيرها من العاهات والآلام.

لكن بالرغم من كافة عيوب الآلهة اليونانية والرومانية القديمة وآلهة الأديان الوثنية وخطاياها، إلا أنّها كانت تتمتّع بميّزة أو فضيلة كونية عامة وهي: أنّها لَم تَكُن تطالب عُبّادها بقتل الآخرين الذين يعبدون غيرها. فهذا المَطلَب كان من اختصاص يهوه وحده.

في الأزمنة الغابرة، لم يَكُن يَهُمّ ما هو الإله الذي تعبَدَهَ في منزلك، كان ذلك يعتبَر عَمَلاً خيّراً ومقبولاً، والأجمل من ذلك أن تحترم إله ضيفك عندما

يزورك، أو مضيفُكَ عندما تزوره. كان المسافرون يتوقّفون عند المعابد المحلّيّة في كل مكانٍ يحلّون فيه، وكانوا _من باب التهذيب والاحترام_ يقدّمون أعطيات وهدايا للآلهة المحلية _حتى وإن لَم يكونوا يؤمنون بها_ احتراماً وتقديراً لها، إلى جانب آلهة مضيفيهم. كما كان من الشائع أيضاً، ومطلوباً، عبادة آلهة مختلفة لغايات وأهداف مختلفة. لَم يَكُن منَ المُجدي عبادة آلهة الحُبّ عندما كنتَ تزرع حقلك، أو تقدمَة أضاحي لإله الحرب إذا كنتَ تريدُ طَقساً أفضل. فعلى مدى التاريخ الإنساني كلّه، لم تَكُن فكرة عبادة إله واحد مقبولة بالنسبة لأيّ إنسان.

النتيجة الطبيعية لذلك كانت أنّ المؤمنين الوثنيين لَم يكونوا مُلزَمين بإخبار بعضهم البعض أو الآخرين عن ماهية الإله الذي يعبدونه أو يصلّون له، إنّ تعدّد الآلهة عبارة عن منظومة عقائدية متسامحة إلى أبعد حَدّ، كما أنّها تتميّز بابتعادها عن التشدّد أو التعصّب، كانت نوعاً من فلسفة «عِشْ ودَعْ غيرَكَ يعيش». بالنسبة للوثني، كان خيار أيّ الآلهة ستَعبُد مسألة براغماتية وظَرفية بحتة، أي أنّها تقوم على حاجاتك وضروریاتك، والأسباب التي دَفَعَتك للصلاة. إنّ الرّجل أو المرأة اللذان عَبَدا إلهاً خاطئاً أو غير مناسب قد يُعتبَران أحمقين، ولكن لَم يشكّل ذلك أيّ إهانة للمؤمنين الآخرين.

بالتأكيد كان هناك استثناءات. والاستثناء الأشهر كان ما عُرِفَ بثورة المكّابيين، التي أطلِقَ عليها احتفالاً من قِبَل اليهود «عيد الهانوكا»، كان الإمبراطور أنتيوخس أبيفانيس، إمبراطور السَلوقيين، قد حَرّمَ الممارسات والشعائر الدينية اليهودية، كما أنّه خَرّبَ هيكل أورشليم الثاني، وطالَبَ اليهود بتقديم أُعطيات وأضاحي للآلهة الإغريقية. أشعل ماتياس الحَشموني وأبنائه الخمسة (ويُعرَفون أيضاً بالمكّابيين) ثورة أطاحَت في النهاية بالحكم السوري واستعادوا الهيكل الثاني والحرية الدينية لليهود.

بطبيعة الحال، حتى هذا المثال عن التشدّد الديني الوثني ليس كما يبدو هنا. في الحقيقة، لم يكُن ذلك تشدّداً دينياً على الإطلاق، بل كان تكتيكاً سياسياً حربياً استراتيجياً: المراسيم الدينية المعادية لليهود التي سَنّها أنتيوخس كانت وسيلة للضغط والتخلّص من أعداءه. في زمن أنتيوخس، كان أغلب اليهود موحّدين، ومن المثير للعَجَب والدهشة (في ذلك الوقت) أنّهم رفضوا عبادة آلهة أخرى حتى وَهُم تحت التعذيب والموت، رفضوا أن يَعمَلوا في أيّام السبت، وأكل لحم الخنزير. أدرَكَ أنتيوخس حقيقة الأمر: الهَشاشة والضعف العسكريين. لقد كان من السهل تمييز اليهود والتعرّف عليهم، وخصوصاً اليهود المتشدّدين والمُلتَزمين، وذلك من خلال مطالبتهم بالصلاة لآلهة أخرى إلى جانب يهوه.

المفارقة هنا أنّه حتى بالرغم من أنّ اليهود كانوا ضحايا للاضطهاد والتعسّف نتيجةً لدينهم، إلا أنّ الدين اليهودي هو الذي تحوّل في النهاية إلى مَهد التشدّد والتطرّف الديني.

قبل مراسيم أنتيوخس المعادية لليهود وثورة المكّابيين، كان اليهود قد وَضَعوا مُسبقاً أحجار الأساس لترسيخ التعصّب الديني. وقد سَبَقَ أن دَرَسناها: ميم إله الغايات الشاملة، وميم التوحيد، وميثاق موسى مع يهوه ليكون إلهه الحصري. باختصار، تشير هذه الأفكار الثلاثة إلى أنّه بإمكانك عبادة إلهٍ واحد، وأنّه يجب عليك أن تعبد إلهاً واحداً، وأنّ باقي الآلهة الأخرى غير حقيقية ومزيّفة. أي أنّ اليهود هُم مَن ابتكروا فكرة: «نحنُ على صَواب، وأنتم في ضَلال». إنّ الولادة الحقيقية لميم التعصّب موجودة في كتاب التثنية الذي كُتِبَ حوالي عام 700ق.م، عندما أصبحت عبادة الآلهة الأخرى تُعتبَر من الخطايا الكبرى والمحرّمات. أمّا قبلَ ذلك، حتى بالرغم من أنّ اليهود قد آمنوا أنّهم كانوا الشعب المختار والمفضّل عند يهوه، وأنّ حماية يهوه لهُم تقوم

أساساً على وفائهم وولائهم له، لَم يَكُن لدى اليهود أي مشكلة تجاه أولئك الذين لا يلتزمون بدينهم. على غرار الوثنيين، كان اليهود يعتبرون الآخرين بأنّهم ضالّين. لكن مع ظهور سِفر التثنية، نَضَجَ ميم التعصّب، وباتَ يُنظَرُ الآن إلى عبادة آلهة أخرى من الخطايا غير المغفورة والقاتلة بالنسبة ليهوه، وينبغي مَنعها وتحريمها.

إنّ ظهور ميم التعصّب قد تَسَبّبَ بإطلاق أوّل عملية إبادة جماعية على أساس ديني، على يَد الملك اليهودي يوشيّا (622 ق.م): «في السنة الثانية عشرة ابتدأ يطهّر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسَواري والتماثيل والمَسبوكات، وهَدَموا أمامه مذابح البَعليم، وتماثيل الشمس عليها من فوق قطعها، وكَسّرَ السواري والتماثيل والمَسبوكات ودَمّرَها ورَشّها على قبور الذين ذَبَحوا لها، وأحرَقَ عِظامَ الكَهَنَة على مَذابحها وطهّرَ يهوذا وأورشليم...» [أخبار الأيام الثاني: 34]. كانت هذه مأساة مريعة بكل معنى الكلمة في تاريخ الجنس البشري. لكنّها مُبَرّرة من خلال ميم التعصّب الجديد: «ودَفَعَهُم الرّبّ إلهكَ أمامَكَ، وضَرَبَهُم، فإنّكَ تحرّمهم، ولا تَقطَع لهم عَهداً، ولا تُشفِق عليهم، ولا تُصاهرهم... تُهَدّمون مذابحهم، وتُكَسّرونَ أنصابهم، وتُقَطّعون سواريهم، وتَحرقون تماثيلهم بالنار... لأنّكَ أنتَ شَعبٌ مقدّسٌ للرّبّ إلهك، وإيّاكَ قد اختار الرّبّ إلهك لتكون له شَعباً أخَصَّ من جميع الشعوب الذين على وَجه الأرض... لا تُشفِق عيناكَ عليهم ولا تَعبُد آلِهَتَهُم، لأنّ ذلك شِركٌ لك» [سِفر التثنية: 7].

كانت هذه طفرة في غاية الأهمية تخلّلت التركيبة الميمائية للدين. ولأوّل مرّة في التاريخ، أصبح لدينٍ رئيسي سياسة رسمية مكتوبة تُشَجّع على تدمير التركيبات الميمائية للديانات الأخرى، وليس فقط تجاهُلها أو التسامح معها.

قارن ذلك مع عملية التطوّر البيولوجية. لقد أعادَت تركيبة يهوه الميميائية ابتكار إحدى الاستراتيجيات التي نجدها في عالَم الحيوان: فبالإضافة إلى التفوّق على المنافسين الآخرين بإكثار النسل، يمكنكَ قتل منافسكَ على الفور لتُفسِحَ مجالاً أوسع لذرّيتك. وهناك مثالٌ مريع يوضّح هذه العملية اكتشفته الدكتورة جين غودال ضمن أنواع من الرئيسيات كالشمبانزي. تخبرنا د. غودال أنّ ذَكَرَ الشمبانزي قد يقتل شمبانزي طفل من أنثى غريبة. وفي الوقت الذي تصيبنا فيه هذه الحقيقة بالرعب، فإنّها طبيعية جداً ومنطقية ضمن سياق تطوّري: الشمبانزي قِرَدة مُخالِطَة وعابثة وتميل نحو التعدّد في الشركاء داخل مجموعتها، لذا فإنّ ذَكَر الشمبانزي لا يستطيع تمييز صغاره ضمن مجموعته ومعرفة أياً منهم هو ابنه الحقيقي. لكنّ طفل الأنثى التي التَحَقَت بالمجموعة لتوّها بالتأكيد هو ليس من ذرّيّته أو من ذَرّيّة أحد ذكور المجموعة. ومن خلال قَتله لذلك الرضيع، فإنّ ذَكَرَ الشمبانزي يجعل الأنثى ترجع إلى فترة الخصوبة والتزاوج بشكلٍ أسرع، وهذا ما يزيد من فُرَص إنجاب وَلَد من نَسلِهِ منها.

وهذا ما فَعَلَته تركيبة يهوه الميميائية، حسب رواية سِفر التثنية: بدلاً من التنافس مع الميمات الإلهية الأخرى لنيل الأهلية والأسبقية (أي إلهٍ هو الأقدَر على الاستجابة لأكبر عَدَدٍ من الصلوات؟ أو أيّ إله هو الأقدر على حماية أتباعه؟)، تطفّر ميم يهوه، دافعاً أتباعه لقتل جميع المؤمنين بميمات الآلهة الأخرى. وعن طريق تدمير كافة معابد الديانات الأخرى وقتل كَهَنَتها وسَدَنَتها، ضاعَفَ ميم يهوه فرصه في البقاء والتكاثر والاستمرار، تماماً كما فعل ذَكَر الشمبانزي بقتله الطفل الغريب.

ميم العَولَمَة

«الدين رجلٌ يحمل عصا تنبّؤ... والفلسفة رجلٌ يستخدم مِعوَلاً ومِجرَفَة»

[مجهول]

لقد سبق وناقشنا كيف أنّ الأديان القديمة، التي كانت أرواحية في أغلبها، تَضَعُ أرواحاً وأنفُساً داخل الأشياء والموجودات، كالأشجار والحيوانات. ومن الناحية الأخرى من التاريخ، وجدنا أنّ يهوه إله اليهود والمسلمين والمسيحيين، قد خَلَق الكون وكل ما فيه، وتَسَيّدَ على كلّ شيء، ويعرف كل شيء. وهذه نَقلة نوعية في كيفية عَرض وتقديم الكائنات الماورائية والنظر إليها.

عندما جرى تصوّر الإله أو الكائن الماورائي لأوّل مرّة، تمّ ربطه بمكانٍ مُحَدّد.

«أولئكَ الشعب هُم مِن نَسل الكَلدانيين، وكان أوّل مقامهم فيما بين النهرين لأنّهم [الإسرائيليون] أبوا اتّباع آلهة آبائهم المقيمين بأرض الكَلدانيين، فَتَرَكوا سنَنَ آبائهم التي كانت لآلهة كثيرة وسَجَدوا لإله السماء الواحد، وهو أمَرَهَم أن يخرجوا من هناك» [يهوديت، 5: 6-9] بمعنى آخر، كانت آلهة الإسرائيليين القديمة، آلهة آبائهم وأجدادهم، آلهةً محلّيّة، محصورةً ضمن منطقة مُحَدّدة. لكن إذا غادَرت تلك المنطقة لَم يَعُد بمقدور آلهتكَ سماع صلواتك.

يتطوّر ميم الله عن طريق ميم العَولَمة *Globalization meme*، أي يتحرّر الإله من ذلك المكان الضيّق ويخرج منه، ينتقل إلى مناطق أخرى ويتحوّل إلى إلهٍ لمنطقة أوسع، أو للعالم كله. ما أن يَتَعَولَم، حتّى يصبح ذلك

الإله يستجيب لجميع الصلوات، ويساعد الأصدقاء، ويعاقب الأعداء، في أيّ مكانٍ بالعالَم.

تَصَوّر لو أنّ شعب هاواي قَرّرَ نشر عبادة الإلهة «بيلي Pele»، إلهة البراكين، إلى باقي أنحاء العالَم. أولاً، بيلي تعيش على جبل ماونالوا، ومعروفٌ عنها مِزاجها السيئ والعنيف، وحبّها للعدل. أمّا القُساة والسيئين فستدمّر حقولهم ومنازلهم بالماغما السائلة من البركان. لكن إذا أرسَلَ شعب هاواي بعثَة تبشيرية إلى دينيي (شعب النافاهو) في الجنوب الغربي من أمريكا، فعلى الأرجح أنّهم لَن يجدوا أي أحَد يؤمن بآلهتهم أو يعتنق ديانتهم. سيقدّم شعب الدينييه احترامه وتقديره لإله شعب هاواي، لكنّها ستكون مَضيعَة للوقت والجهد بالنسبة لشعب الدينييه إذا عَبَدوا الإلهة بيلي _ماذا يمكن أن تقدّم بيلي لهم؟ كيف يُمكِن لبيلي أن تُعاقب المذنبين والخُطاة من الدينييه؟... بيلي تعيش على جبل ماونالوا، ولا يمكن لِحِمَمها البركانية أن تصل إلى الدينييه.

حتى يهوه نفسه بدأ كإلهٍ مَحَلّي. وأثناء الخروج، عندما اضطرّ اليهود لترك موطنهم ومغادرته، خاف الكثيرون من احتمال عَدَم قدرة يهوه على سماع صلواتهم وتضرّعاتهم إذا كانوا داخل أراضي وأقاليم غريبة. وقد تبدو هذه المخاوف سخيفةً اليوم، لكنّ ذلك فقط لأنّ ميم العَولَمَة قد قام بعمله على أحسن وجه: جميع الديانات الإبراهيمية الآن تؤمن بفكرة أنّ يهوه إلهٌ عالميٌ وشامل، ومن الممكن عبادته من أي مكانٍ بالعالَم. وعلى غرار ميم التوحيد، فقد قام ميم العَولَمَة بتغيير مسار التاريخ وإعادة كتابته، ويمكن ملاحظة ذلك في إنكار جميع مَن يؤمنون بيهوه اليوم أنّ يهوه الذي عَبَدَه إبراهيم ليس هو نفسه الرّبّ العظيم الذي يعبدونه. لكنّه لَم يَكُن أمراً عادياً في زمن الخروج، لأنّ ميم العَولَمَة لَم يَكُن قد أنجَزَ عَمَلَه بالكامل بعد، فتَركُ موطنهم وإلههم كان أمراً صادِماً ومُصاباً جَلَلاً بالنسبة لغالبية الشعب الإسرائيلي.

إحدى أهَمّ وألمع بصائر تشارلز داروين كانت حجّته التي تقول أنّ حَجم السكّان وحدَهُ كفيلٌ بالتنبؤ ببقاء الأجناس: لنتخيّل أنّ هناك نوعين من الذئاب التي تتنافس مع بعضها على الغذاء والمأوى وغيرها من الموارد الأخرى، وأنّ أحد هذين النوعين يتمتّع بمَدى أكبر وأوسع، والكثير من الذئاب الأفراد، أكثر من النوع الآخر. ما عَدا هذين الأمرين، لا شيء يميّز أحدهما عن الآخر. فإنّ النوع ذو العَدَد الأكبر من الذئاب هو الذي سيبقى ويسود ويحلّ مَحَلّ النوع الآخر. لماذا يحدث ذلك؟

بدايةً، إنّ النوع ذو الأفراد الأكثر هو الأرجح بأن يدوم ويستمرّ خلال الشدائد والكوارث (شتاء قارس، أو أوبئة وأمراض قاتلة): ولسببٍ بسيط وهو أنّ عدد أفراده كبيرٌ جداً. لكنّ الأهم من ذلك هو أنّ النوع ذو الأفراد الأكثر يتمتّع بتنوّع جيني أكبر، كما أنّ التغيّرات التي تَطرأ على جينات هذا النوع (الطَفَرات) تشكّل مادّةً خام لتطوّره. ومع تغيّر الظروف المحيطة، يَظهَر منافسون جُدُد، وتُهاجم النوع أمراضٌ وأوبئة جديدة، وما إلى هنالك، وكلّما كان التنوّع الجيني للنوع أكبر، كان أقدَر على التكيّف ومواجهة تلك الظروف. إنّ مبدأ «بقاء الأصلح» لا يعمل إلا عندما يكون هناك اختلافات بين الأفراد، وكلّما زاد عَدَد الأفراد، كان التنوّع والاختلاف أوسع. نعود إلى ميم العَولَمَة، الذي حَوّل يهوه من إلهٍ إقليمي محلّي إلى إلهٍ عالمي يمكن أن يُعبَدَ في أي مكان، يصبح بإمكاننا ملاحظة أهمية الأمر وعَظَمَتَه. فميم الإله المحلي أو الإقليمي لديه عدد افراد أقَلّ، وتنوّع ميميائي أقل حتى (طفرات قليلة) من الإله الذي يُعبَد في منطقة أوسع وأكبر. مع اتساع نطاق يهوه ومجاله، أصبح ميم يهوه أكثر قدرةً على البقاء والاستمرار، على غرار الذئاب، لم تكن هناك أي محنة أو كارثة (مجازر دينية أو صراعات مذهبية، أو ديانات أخرى منافسة) قادرة على تدميره، وكأيّ مجتمع لديه عدد كبير من السّكّان/الأفراد،

فإنّ التنوّع المتزايد في الأنواع (وجود عدّة أفكار أو مفاهيم عن ماهية يهوه أو جوهره أو طبيعته) قد منحه قدرة أكبر على التكيّف، مَوادٌ خام أكثر لتقوم عملية الانتقاء الطبيعي بعملها على أحسن ما يُرام. من دون ميم العَولَمَة، لَن يكون الإسلام ولا المسيحية ولا اليهودية أكثر من مجرّد ظواهر محلية ضيّقة جداً ومحصورة ضمن منطقة الشرق الأوسط، وستكون نهايتها الاندثار والفَنَاء. لكن مع وجود هذا الميم، تمكّنت هذه الديانات من الانتشار على نطاقٍ واسع.

ميم «الإله المُجَرّد»

«الدين مجرّد فَصل تذكاري في تاريخ الفرد البشري»

[وليام جيمس]

قد لا تكون آلهة المجتمعات البدائية مختلفة عن آلهة المجتمعات الحديثة. في الواقع، كان يُعتَقَدُ أنّها «من الأرض»، أي أنّها مصنوعة من نفس المواد التي تكوّننا أنت وأنا، لكنّها مَكسوّة بعَباءة ماورائية وقوى خارقة. في الحقيقة، كان يُعتَقَد أنّ أغلَبَ الآلهة القديمة بدأت كبشر عاديين، لكنّهم عند موتهم، اكتسبوا قوى وقدرات ماورائية خارقة.

إلهة شعب هاواي، بيلي، التي تحدّثنا عنها سابقاً، هي مثالٌ واضح عن هذا النوع من الآلهة. فحسب الأسطورة، كانت بيلي فتاةً تاهيتية عصبية المزاج وعنيفة، لذا تمّ نفيها من تاهيتي بسبب مزاجها والمشاكل التي كانت تثيرها دوماً (وبشكلٍ خاص مع أختها). انطلقت بيلي على مَتن زورق، ولاحَقَتها اختها، أقتتلت الأختان بالقرب من هانا على جزيرة ماوي، حيث قامت أخت بيلي بقتلها وتمزيق جسدها. تحوّلَت بيلي إلى إلهة، وجعلت من بركان كيلاويا في جبل ماونا لوا، على جزيرة هاواي الكبرى، مسكَناً لها.

يمكننا القول أنّ بيلي كانت تتكوّن من نفس المادة التي نحن مصنوعون منها، كانت مصنوعة من مادّة أرضية، مع أنّها امتَلَكَت قوى إلهية وماورائية.

كان يهوه إله إبراهيم وموسى مصنوعٌ أيضاً من نفس مادّتنا. تأمّل معي هذا المقطع جيداً: «فَبَقِيَ يعقوب وحده، وصارعه إنسانٌ حتّى طلوع الفجر. ولمّا رأى أنّه لا يقدر عليه، ضرب حُقَّ فخذه، فانخلع حُقَّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: «أطلِقني، لأنّه قد طَلَعَ الفجر». فقال: «لا أطلقك إن لم

تباركني». فقال له: «ما اسمك؟» فقال: «يعقوب». فقال: «لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لأنّك جاهدت مع الله والناس وقَدِرت»» [تكوين، 32: 24-28].

خلال القرن الأول ما قبل الميلاد، كان هذا النمط من القصص والروايات يبدو سخيفاً وسطحياً بالنسبة لليهود _رجلاً عادياً يمكنه مصارعة يهوه والتغلّب عليه. لكن عندما كُتِبَ سِفر التكوين، كان ذلك معقولاً ومنطقياً، لأنّ يهوه كان بشراً مصنوعاً من نفس المادة التي صُنِعَ منها باقي البشر_ مادّة الأرض. تأمّل هذا المقطع: «ثمَّ ظَهَرَ الرّبّ لإبراهيم وهو جالِسٌ على بلّوطاتِ حُمْراً وقت اشتداد حَرّ النهار، فَرَفَعَ عينيه وإذا به يرى ثلاثة رجال» [تكوين، 18: 1-2].

يبدو أنّ إبراهيم قد عرف على الفور أنّ الذي يَقِفُ أمامَهُ هو يهوه بشحمه ولحمه ومعه ملاكين، لأنّه عَرَضَ عليهم ضيافته على الفور. لكنّ زوجة إبراهيم _ساره_ سخرَت من نبوءة يهوه عندما بشّرها بأنّها ستُنجِبُ طفلاً وهي العَجوز المُسِنّة. ولَم تُدرِك ساره حقيقة هذا الرجل وهويته إلا عندما قال: «وهَل يَستَحيل على الرّبّ شيء؟». عندها خافت ساره لأنّها سخرت من الرّبّ. وبعد ذلك بعدّة أجيال، كان يهوه إله موسى قد أصبح أكثر عُلُوّاً ورِفعَةً، لكنّه ظَلّ يزور موسى شخصياً في خيمته. طلب منه موسى أن يريهُ مَجدهُ وعَظَمَتَه، لكنّ يهوه رَدّ عليه قائلاً: «فقال [موسى]: «أرِني مَجدَكَ». فقال يهوه: «أجيزُ كلّ جودتي أمامك. وأنادي باسم الرّبّ أمامك. وأترأّفُ على مَنْ أترأف، وأرحَمُ مَن أرحَم». وقال: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش». وقال الرّبّ: «هوذا عندي مكانٌ، فتَقف على الصخرة، ويكون حتى أجتاز مَجدي، أني أضعُكَ في نَقرةٍ من الصخرة، وأستُرُكَ بيدي حتى أجتاز. ثمّ أرفع يدي فتنظر ورائي، وأمّا وَجهي فَلا يُرى» [خروج،

33: 18-23]

بمعنى آخر، كان يهوه ما يزال إلهاً مصنوعاً من مواد أرضية، مصنوعٌ من نفس المادة التي تكوّننا أنا وأنت، لكنّ تَرَفّعهُ وقواه قد ازدادت وعَظُمَت لدرجة أنّه لَم يَعُد بإمكان أيّ إنسانٍ فان أن يَنظُرَ إلى وَجهِهِ، بل من وراءه.

من الصعب التوفيق بين إلهٍ مصنوعٍ من مواد أرضية، ومن نفس المواد التي تصنعنا، وهو إلهُ إبراهيم وموسى، وبين فكرة أنّ هذا الإله هو خالق الكون وكل ما فيه. لقد سبق وأن دَرَسنا ثلاثة من أهمّ الميمات ذات العلاقة بالموضوع: إله الغايات الشاملة (يستجيب لجميع الصلوات)، وميم التوحيد (الإله الواحد)، وميم العَولَمَة (الإله الموجود في كلّ مكان). كيف يمكن لإلهٍ يتناسب مع جميع هذه المعايير الثلاثة، أن يكون مصنوعاً من مادّةٍ أرضية؟ كيف يمكن لإلهٍ خالقٍ للكون وكل ما فيه أن يكون جزءاً منه؟

لم تَكُن هذه الأسئلة تشكّل إرباكاً للإسرائيليين حتى بعد عهد موسى، على الأرجح لأنّ الميمات المذكورة سابقاً لَم تَكُن قد تطوّرَت بعد بشكل كُلّي. كان يهوه قد تغيّر كثيراً منذ عهد إبراهيم، حيث أصبح أقوى، وأقلّ شَبَهاً بالإنسان، إلا أنّ الإسرائيليين لَم يكونوا قد صاغوا بَعد السؤال التالي بشكل فعلي: «هل يهوه جزءٌ من هذا العالَم وموجودٌ فيه، أم أنّه مستقلٌ ومنفصل عنه؟». كان يهوه قوياً، لكنّه كان ما يزال إلهاً يَشغَل مكاناً فيزيائياً في هذا العالَم مثلَه مثل باقي البشر.

في مكانٍ آخر من العالَم، كان الإغريق يطوّرون إحدى أهَمّ المدارس الفلسفية وأكثرها تأثيراً في تاريخ العالَم. ابتداءً من طاليس، وفيثاغورث، والعديد من الفلاسفة ما قَبل السقراطيين، بدأ الإغريق برَفض التفسيرات الغيبية والماورائية للطبيعة وَشَرَعوا في البحث عن تفسيرات أكثر عقلانيةً

ومنطقية. لكن علينا أن نتوخّى الحَذَرَ والحيطة هنا عندما نستخدم مصطلح «عقلانية» لأنّه قد يبدو أنّه يشير إلى أنّ الديانات الأخرى كانت «لا-عقلانية» بالمعنى المعاصر والحديث والسلبي للكلمة، وليس هذا ما نقصده هنا. إنّ كلمة «عقلاني *rational*»، عندما نستخدمها في سياق كلامنا عن الفلسفة، لها تعريفٌ محدّد شبيهٌ بالتعاريف الرياضية. إنّها تعني منظومة عقائدية من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي لا تقوم فيها الحقيقة على أساس الدليل الحسّي أو العاطفي، بل تبدأ من حقائق معروفة مسبقاً، ثمّ تستخدم الفكر والمنطق الاستدلالي/الاستنتاجي للتوسّع في الحقيقة ونقلها إلى مستويات جديدة. وقد استمرّت دراسة هذا الفكر العقلاني عن طريق سقراط، وأفلاطون وأرسطو، هؤلاء الثلاثة أسماؤهم معروفةٌ الآن بالنسبة لكل شخص في العالَم الحديث.

أولى الإغريق _وخصوصاً أرسطو_ اهتماماً كبيراً بمسألة أصل الكون والعالم، وكانوا هُم أوّل مَن صاغوا سؤالاً واضحاً حول مسألة الروح والجسد والإله المادي مقابل الإله الروحي. بمعنى، هَل روح الإنسان مصنوعة من نفس المادة التي صُنِعَ منها جسده؟ وهل الآلهة مكوّنة من نفس المواد التي صُنِعَ منها الكون؟

وفقاً للاهوت الأرسطي، لا يمكن أن يكون الخالِق إلهاً شخصياً، ولا يمكن _منطقياً_ أن يكون خالِقاً للعالَم، وجزءً منه في آنٍ معاً، إذ كيف يمكن للإله أن يكون جزءاً من كونٍ قام هو بخلقه؟ توصّل أرسطو مستخدماً مناهج الفكر العقلاني إلى نتيجة مَفادها أنّه ما أن خَلَقَ الله الكون، لَم يَعُد له أي تأثيرٍ فيه. وبسبب هذا الانفصال، صاغَ أرسطو عبارَة «المحَرّك الذي لا يتحرّك» لتصوير مفهومه عن الخالِق.

تقابل اليهود مع الإغريق عبر التاريخ في القرن الرابع قبل الميلاد، عندما

هَزَمَ الإسكندر المقدوني الملك داريوس الثالث ملك بلاد فارس، وبدأ الإغريق بالتوجّه نحو الشرق باتجاه آسيا وإفريقيا. التقى اليهود بحضارة مُشبَعَة بالعقلية العَقلانية اليونانية، حضارة لَم تَكُن تعرف أي شيء عن إلههم يهوه، وكما هو الحال في أغلب حالات الاستعمار، بدأت الحضارتان بالاندماج، كلّ واحدَةٍ تتعلّم من الأخرى وتؤثّر فيها وتتأثر بها. هناك يهودٌ كثيرون وجدوا العقلانية الإغريقية أمراً مثيراً واعتبروها عامِلاً مُجَدّداً. كان الإغريق ما يزالون مُشركين مخلصين لآلهتهم الكثيرة، لذا كان من السهل بالنسبة إليهم أن يشملوا دراسة يهوه ضمن دينهم. قرأ الإغريق العَهدَ القديم أي الكتاب المقدّس عند اليهود (والذي سُرعان ما جَرَت ترجمته إلى اللغة اليونانية، حيث ظَهَرَت نسخة سُمّيَت Septuagint)، وكثيراً ما استَمَعوا إلى طقوس وشعائر حكماء اليهود.

كان «مُحَرّك» أرسطو الذي لا يتحرّك أمراً مثيراً من الناحية الفكرية، لكنّه كان إلهاً بعيداً وغير شخصي. وعند مقارنته مع يهوه الذي عَبَدَه اليهود، كان محرّك أرسطو مُملاً جداً (من وجهة نظرنا الميميائية، لَم يكُن محرّك أرسطو الذي لا يتحرّك ميماً ناجحاً، لذلك لَم ينجُ _لَم يَكُن يُلَبّي رغبات وتطلّعات الجماهير المؤمنة لذلك انقرض واندثر). إلا أنّ فلسفة العَقلانيين الإغريق كان لها بالغ الأثر على اليهود، لأنّها وضعتهم وجهاً لوجه أمام السؤال الصعب: هل يهوه من نفس المادّة التي صُنِعَ منها العالَم؟ أم أنّه من مادة مختلفة تماماً؟

لَم يَدُم الوِفاق الفكري بين اليهود والإغريق لفترةٍ طويلة _لقد كان التوحيد اليهودي ورفضهم القاطع تكريم آلهة الإغريق واحترامها أمراً مهيناً بالنسبة للإغريق العَريقين. لكنّ البذرة كانت مغروسة. لقد طُرِحَت الأسئلة.

بموازاة «الغَزو» الإغريقي العقلاني للفكر اليهودي، أصبح مفهوم اليهود عن يهوه أكثر تجريداً أو تعالياً، تحت تأثير ميمات إله الغايات الشاملة،

والتوحيد، والعَولَمَة. وقد أصبح هذا التجريد يفرض مشكلة بالغة الأهمية والصعوبة: كيف يمكن ليهوه المُتعالي والمُجَرّد أن يجلس على طاولة الطعام مع إبراهيم، أو أن يعقد المواثيق مع أنبياءه كما جاء في التوراة؟

لقد أدّى ذلك إلى حدوث نشوز وتنافر في المعتقدات اليهودية. فمن جهة، إنّ التوراة تحتوي عَدداً من القصص والروايات التي تصف يهوه بمصطلحات بسيطة وواضحة، إذ أنّه كان مصنوعاً من مادّة أرضية، نفس المادّة التي نحن مصنوعون منها. ومن جهةٍ أخرى، قدّم الإغريق فكراً عقلانياً من الصعب تجاهله، مُظهرين استحالة هذا النوع من الآلهة منطقياً. ناقش رجال الدين اليهود وحكمائهم هذا السؤال، وقدّموا عدّة إجابات وتفسيرات لهذه القصص، وليهوه نفسه. تذكّروا أنّ الشّرك أو تَعَدّدَ الآلهة لَم يَكُن قد زال كلياً من الثقافة اليهودية خلال الفترة الزمنية ما بين موسى ويسوع، لذا كان هناك البعض ممّن يعتقدون أنّ يهوه قد خُلِقَ مِن قِبَل إلهٍ أعظم منه. وجادل آخرون بأنّ العقلانيين كانوا مخطئين، وأنّ إلهاً مثل يهوه لم يكُن محكوماً بالمَنطق ويمكنه أن يخلق الكون ويكون جزءاً منه في نفس الوقت. وجادل آخرون بأنّ يهوه شبيهٌ بإله أرسطو، منفصلٌ عن العالم والكون، وأنّ قصص يهوه وأخباره كانت مجازية، وليست تاريخية.

في النهاية، الميم الذي بقي، «الأصلح»، كان مزيجاً جديداً من الأفكار، ذلك المزيج الذي أرضى كلاً من العقلانيين والتاريخيين المؤمنين بروايات سفر التكوين. قال الميم الجديد أنّ يهوه كان منفصلاً ومُستقلاً عن أعماله على الأرض. هذا المفهوم الجديد يشير إلى أنّنا لا نستطيع معرفة يهوه بذاته، الذي يتجاوز الفهم والإدراك الإنسانيين، لكنّ يهوه قادرٌ على تغيير الأحداث على الأرض وتسييرها، أو التحدّث مع البشر، عن طريق خَلق صور وظهورات له (مستخدماً مواد أرضية) تخدم أهدافه على الأرض. هذه الظهورات

الطيفية أو الشبحية، ليس هي يهوه نفسه، الذي تصارع معه يعقوب، والذي عقد ميثاقاً مع موسى.

هذا هو المَنشأ والأصل الحقيقي لميم الإله المجرّد. فالله ليس مصنوعاً من نفس المادة التي جُبِلنا منها، بل هو كائنٌ مختلف تماماً وغير معروف أو قابل للإدراك، خارج الكون المادي، الذي خَلَقَهُ، لكنّه مازال قادراً على الفعل في العالم المادي والتأثير فيه عن طريق ظهوراته الطيفية الشبحية التي يمكننا احتمالها نحن البشر وإدراكها.

لاحِظوا كيف أنّ مفهوم اليهود الجديد عن يهوه كان يمثّل تحسّناً وتطوّراً بالغين في لاهوتهم، واللاهوت الأرسطي أيضاً. فشل محرّك أرسطو الذي لا يتحرّك في امتحان البقائية التطوّرية، لأنّه لَم يَكُن هناك شيء ليُعبَد. لماذا نصلّي لإلهٍ غير قادرٍ على التفاعل مع كوننا والتأثير على عالمنا؟ لقد تبنّى اليهود (أو بالأحرى أعادوا اكتشاف) المفهوم الأرسطي للإله المجرّد والمُستقلّ عن هذا العالم، وأدخلوا عليه تحسينات وتطويرات جديدة. لقد ألغوا مُعضلة الإله المصنوع من نفس مادّتنا، لكن على عكس أرسطو، كان يهوه اليهود قادراً على التغلّب على الأعداء، والاستجابة لصلواتهم وتضرّعاتهم، وأن يكون الأب المُحِبّ لهم والعَطوف عليهم أيضاً.

لماذا ميم الإله المجرّد على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة للديانات الإبراهيمية؟ ظاهرياً، يبدو هذا الموضوع ذو طبيعة روحانية-باطنية جداً. الميمات التي دَرسناها سابقاً لها تأثير مباشر على قدرة يهوه على نشر ميماته والتغلّب على الميمات الأخرى. إنّ ميم الإله المجرّد أكثر ثَباتاً واستقراراً: إنّه يدعم ويُعزّز الميمات الأخرى، وبشكلٍ خاص ميم إله الغايات الشاملة. فقد قامَت بتحويل يهوه من كائن شخصي شبيه بالإنسان، إلى كيان غيبي مجهول لا يُدرَك. علاوةً على ذلك، قامت الفلسفة العَقلانية اليونانية بوضع عَتَلة في

العجلات مشيرةً إلى أنّ الله لا يمكن أن يخلق العالَم ويكون جزءاً منه في وقتٍ واحد. لذا قدّم ميم الإله المجرّد حَلاً لهذه المُعضلة عن طريق جعل يهوه إلهاً مجرّداً، لكنّ ظهوراته تقع ضمن نطاق الفهم والإدراك الإنسانيين. يمكن ليهوه أن يخلق العالَم (من دون أن يكون جزءاً منه)، ويساهم في هذا الكون.

مع أنّ ميم الإله المجرّد كان مُؤَسّس بشكل جيد قبل ميلاد المسيح، فإنّ حياة يسوع وموته طرحا نفس المشكلة من جديد، وكانا عامِلاً رئيسياً في الانقسام الرئيسي الأول عبر تاريخ المسيحية، والذي يسمّى «الانشقاق الديني الكبير»، أو «انقسام الشرق-الغرب»، الذي قسّم المسيحيين إلى كنيستين رومانية ويونانية. سُمّيَ الإمبراطور الروماني قسطنطين (280-337م) الإمبراطور المسيحي الأول، مع أنّه كان هناك الكثير من الشكوك التي تدور حول اعتناقه للمسيحية وقبوله يسوع المسيح ربّاً في حياته. خلال عهده، أنهى الإمبراطور زمن التعسّف والاضطهاد الرسمي للمسيحيين، وأعلَنَ أنّ جميع الأديان مقبولة ومسموحٌ بها في الإمبراطورية الرومانية. ويبدو أنّ تحالُفَه مع المسيحيين كان سياسياً أكثر من كونه اعتناقٌ للدين الحق، لكن بغضّ النظر عن دوافعه، أصبح بإمكان المسيحيين _ولأوّل مرّة_ أن يعبدوا ويمارسوا طقوسهم بشكلٍ حُرٍ وعلانية، وبات بإمكانهم مناقشة التفاصيل اللاهوتية لمعتقداتهم بشكل عَلَنيَ، جَهاراً نَهاراً.

كان أغلب المسيحيين في القرن الثالث للميلاد يؤمنون بأنّ يسوع كان إلهاً. لكنّ هذا الاعتقاد لم يخلُ من مشاكل، وهذا مَرَدّه إلى ميم الإله المجرّد: إذا كان يسوع إلهاً أو من طبيعة إلهية، هل كان إنساناً ايضاً (مصنوعاً من نفس المادّة التي صُنِعنا منها)، هل كان من نفس طبيعة الإله-الأب (يهوه)، أمّ أنّه كان هو الأب نفسه؟ هل كان يسوع هو نفسه يهوه، أم كان كياناً إلهياً منفصلاً ومستقلاً؟ هل وُلِدَ إلهاً، أم أنّه ترقّى إلى مَرتبة الألوهية كإشارة لتفضيل يهوه

له عند وفاته؟

من الناحية الجوهرية، تمّت إعادة طرح هذا السؤال: هل الله هو من نفس المادّة التي نحن منها، أم أنّه إلهٌ أثيري، لكن هذه المرّة، كان السؤال يدور حول يسوع، وليس يهوه.

هذه الأسئلة اللاهوتية الخاصّة في ظاهرها والتي لَم يُجَب عنها سَبَّبَت جدالاً حادّاً ضمن المجتمع المسيحي نفسه، وسَبَّبَت انقساماً هائلاً ضمن صفوفه. فبالنسبة للشخص غير المسيحي، يبدو الجدال معقّداً على نحوٍ عَويص، بل وعبثياً تقريباً، بفِرَق ومَذّاهب مختلفة تتجادل بلا طائل حول مواقف يصعب التمييز بينها. أمّا بالنسبة للمسيحيين، كان هذا الجدال يصبّ في صلب إيمانهم ومركز عقيدتهم.

كانت الكنيسة المسيحية عندئذٍ تمتلك سلطة قوية داخل الإمبراطورية، والجدال حول تفاصيل ألوهية يسوع أصبح حامياً لدرجة لَم يَعُد بمقدور الإمبراطور قسطنطين تجاهله. في البداية أصدر أوامر لجميع قادة الكنيسة «... كلّ واحدٍ فيكم، يُظهِرُ احترامه للآخر، ويُصغي جيداً لموعِظَة زميله». لكنّ الخلافات زادت واتّقَدَت نارها أكثر، وفي عام 325م استدعى قسطنطين في النهاية رجال الدين وعقد مجلساً كنسياً في مدينة نيقيا لحلّ المسألة مرّةً وإلى الأبد. أمّا النتيجة فكانت وثيقة نيقيا، الوثيقة التي أصبحت أساس المسيحية الغربية المعاصرة، والكنيسة الرومانية الأرثوذكسية على وجه الخصوص، حيث أعلَن فيها المجلس أنّ:

«إنّنا نؤمنُ بالرّبّ الواحد، الأب العظيم، خالق جميع الأشياء الخفية والمرئية. وبالإله الواحد يسوع المسيح، ابن الرّبّ، مولود الأب الوحيد، أي أنّه من جوهر الأب، إلهٌ من نور، نورٌ من نور، إلهٌ حَقٌّ من إلهٍ حَقٍّ، مولودٌ

غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، الذي بواسطته وجدَت كل الأشياء، التي في السماء والتي على الأرض».

بمعنى آخر، ساد مذهب «من نفس طبيعة الأب». لكن بالرغم من أنّ مُجَمّع نيقيا قد أصدر هذا المذهب وأعلنه مذهباً رسمياً، استمرّ الجدال بشكل أوضح. وقد تمّ إقصاء أعضاء بارزين من مذاهب أخرى ونفيَهُم ثمّ إعادة استدعائهم، ونالوا حُظوَة لدى الإمبراطور، ثمّ خسروها.

بعد ذلك بخمسة عقود، تَمّ عقد مؤتمر ثانٍ في نيقيا كمحاولة للتوفيق بين هذه المسائل المختَلَف عليها. كان مجمّع نيقيا قد أعلَنَ بدايَةً: «نحن نؤمن بالروح القُدُس، وبالرّبّ واهب الحياة، الذي انبثق عن الأب...». أمّا القسم الغربي من الكنيسة (الروم) فقد أدخلوا مفهوم *filioque clause* إلى مجمّع نيقيا، مغيّرين العبارة إلى «انبَثَقَ عن الأب والابن»

بمعنى آخر، لقد مُنِحَ يسوع مكانة مساوية لمكانة يهوه نفسه، وهذا التصريح صريحٌ وواضح حول الطبيعة الإلهية ليسوع. لكنّ الكنائس الكاثوليكية الشرقية (اليونانية) خالَفَت هذا المَذهب بشدّة، وبعد ذلك بـ700 عام أصبح هذا المذهب أحد أكبر الأسباب التي كانت وراء الانقسام الكبير في عام 1054 للميلاد (أمّا السبب الآخر فكانت السلطة الباباوية) الذي فَصَلَ الكنيسة الكاثوليكية إلى قسمين: الكنيسة الرومانية والكنيسة اليونانية.

لذلك نرى أنّ ميم الإله المجرّد قد تحوّل منذ المراحل الأولى من حياة يسوع وموته. إنّه لَم يَكُن سؤالاً أكاديمياً مجرّداً، بل كان ينصَبّ في صلب العقيدة المسيحية وطبيعة يسوع المسيح نفسه.

ميم الأصل الإلهي للأخلاق

«بالكاد يحلم البشر بإلهٍ متفوّقٍ عليهم. أغلب الآلهة تمتلك أخلاق ومِزاج صبيٍ مُدَلّل»

[روبرت هاينلاين، وقتٌ كافٍ للحب

[Time Enough for Love

«أعظم مأساةٍ في تاريخ الجنس البشري هي احتكار الدين للأخلاق»

[السير آرثر سي. كلارك]

كنّا قد تحدّثنا سابقاً عن شعب الأمونغ الذي يقطن مرتفعات غينيا الجديدة، الشعب الذي يَمتلك معتقدات أرواحية. لم يَكُن الأمونغ يمتلكون أيّ فكرة عن «الآلهة» المنفصلة عن الطبيعة، فالأرواح والطبيعة هما شيءٌ واحد، الشيء نفسه. لم يَكُن دينهم منفصلاً أو مستقلاً عن حياتهم، كالكنيسة التي ترتادها يوم الأحد فقط، بل كانوا مُشبَعين بدينهم خلال حياتهم اليومية، وكانت أرواحهم جزءاً من المجتمع وليست منفصلة أو مستقلّة عنه.

إنّ القيم والمبادئ الأخلاقية في أي مجتمع أرواحي كشعب الأمونغ تكون عادةً براغماتية. أي أنّهم طوّروا منظومة قيم أخلاقية، ولَم يتلقّوها من عند الرّبّ. بل جاءت نتيجة تطوّر الجانب الطبيعي لحياتهم اليومية والحاجة للحفاظ على النظام والرتابة في حياتهم. والحال أنّ الأرواح والقوى الطبيعية تساهم مساهمتها في الأخلاق، لكن بوصفها مجرّد «رقيب وشرطي صارم» وليس كمصدرٍ لهذه الأخلاق.

وحتى من دون وجود إله يسَلّمَهُم الألواح الحجرية، كان الأمونغ

يمتلكون منظومة مبادئ وقيَم أخلاقية (قامَت الدكتورة تورينسكي كوك من خلال مقابلات مطوّلَة مع أفراد من الأمونغ بتأكيد ذلك) شبيهة إلى حَدٍّ كبيرٍ بالأخلاق الغربية. على سبيل المثال، السرقة، الكذب، الزنا، الربا، وممارسة الجنس داخل الأماكن المقدّسة، جميع هذه الأمور كانت مُحَرّمَة ومبغوضة، في حين أنّ الكَرَم، والإحسان، والتعاون، والتشارك، واحترام الكبار جميعها أموراً محمودة ومُشَجّعٌ عليها. هنا أورِدُ لكُم مثالاً عن أحد قيَمهم الأخلاقية:

مبدأ أخلاقي: لا يمكننا ممارسة الجنس مع أي أنثى أو امرأة نُطلق عليها: أمّي، أختي، عَمّتي، خالَتي، أو أي امرأة من حريم أبي.

أمر تحريم: إذا اقتَرَفَ رجلٌ عمل سِفاحِ قُربى، ستُقفِرُ أراضيه وبساتينه، وستموت حيواناته. ونفس اللعنة ستَحلّ على باقي عائلته ونَسلِهِ. وعقوبة سِفاح القُربى هي الموت. سيَقتله إخوته ليُحَرّروا العائلة من اللعنة التي جَلَبَها عليهم. يُلقى مُرتكِبو جريمة سِفاح القُربى بالنهر بعد قتلهم بالسهام. ولا يجب أن يُراقَ دَمُهُم على الأرض.

لاحظوا أنّ الثواب والعقاب _بخلاف المسيحية_ فوريّان ومباشران، ولا يؤَجّلان إلى ما بعد الموت أو الحياة الأخرى. يجد القرويون أنفسهم مدفوعين أو مُجبَرين على تنفيذ العقوبة، لأنّهم إذا لَم يَفعَلوا ذلك، فستُقفِرُ الأرواح الغاضبة أراضيهم وتُميتُ حيواناتهم. لكنّ الأهم من ذلك هو أنّه لا توجد أي إشارة إلى أخلاق أو مبادئ مَصدرها الأرواح. إنّها ليسَت مُنزَلَة من عند الآلهة، بل هي أخلاق طبيعية، وبراغماتية يوافق عليها المجتمع (والأرواح أيضاً). لا يقول الأمونغ أي شيء حول أصول أخلاقهم، بل يتلقّونها ويتعلّمونها في سِنٍّ مبكّرة من كبار القرية وحكمائها. وهناك اعتقادٌ عام تقريباً تؤمن به المجتمعات اليهودية والمسيحية والمسلمة حول العالم: إنّ الأخلاق مصدرها الله. لكنّ الأمر لَم يَكُن كذلك دوماً. فالمجتمعات كشعب

الأمونغ في غينيا الجديدة يُظهِرون ما يبدو أنّه نمطٌ نموذجي من المجتمعات الأرواحية ما قبل التوحيدية _أخلاقهم وقيمهم ومبادئهم الأخلاقية تنبع من قوانين براغماتية طوّرها البشر عبر الزمن للتآلف مع بعضهم البعض وحَلّ مشاكلهم وخلافاتهم اليومية. يقول ميم المصدر الإلهي للأخلاق أنّ الله (أو الآلهة) هو المصدر الأساسي والوحيد والشرعي للأخلاق، والنتيجة الطبيعية هي أنّ البشر غير قادرين على معرفة الخير والشّرّ من دون مساعدة الله وعونه.

يبدو أنّ ميم الأصل الإلهي للأخلاق قد تطوّر منذ حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف عام. كان حمّورابي (1810-1750ق.م) الملك السادس لبابل، ومن خلال توسّعه بالغزو أصبح الملك الأول للإمبراطورية البابلية. كان حمّورابي يعتقد أنّ الآلهة قد اختارته ليوصِلَ قوانينها وشريعتها إلى البشر. وقبل موته بفترة قصيرة، يُقال أنّ إله الشمس البابلي (شَمَش) قد سَلّمَه قائمة مؤلّفة من 282 مادّة قانونية، والتي باتت تسمّى بـ«شريعة حمّورابي». أمَرَ الملك بنقش هذه القوانين على مِسَلّة حجرية كبيرة، وكان لهذه المِسَلّة قيمة رمزية كبيرة، إذ قال حمّورابي: «قوانين الآلهة وشرائعها لا يمكن تغييرها، حتى من قِبَل الملك نفسه».

وبعد ذلك بـ600 عام، صَدَرَ ما باتَ يُعرَف بأشهر القوانين ذات الأصل الإلهي حتى الآن وهي «الوصايا العَشر» التي سُلّمَت لموسى من قبل يهوه (حوالي عام 1200ق.م) وبعد موسى، تسَلّمَ كُلٌ من يسوع ومحمد شرائع جديدة، وفي كلتا الحالتين يُزعَمُ أنّها نَزَلَت مباشرةً من عند الله، يهوه نفسه. كَرّسَ يسوع حياته لتلقين دروسه الأخلاقية لأتباعه، وأغلب عِظاته موجودة في الإنجيل المسيحي. والقرآن بدوره يتضمّن أخلاقاً وقيَماً إسلامية، ويُقال أنّه مُنزَلٌ من عند يهوه الذي خاطَبَ البشر من خلال نبيّه محمد على مَدى

حوالي 23 عاماً.

هنا أعرض مثالاً يوضّح لكم مكانة ميم الأصل الإلهي للأخلاق ضمن منظومات الأديان الإبراهيمية العقائدية المعاصرة. بالرغم من أنّ الاقتباس التالي مأخوذٌ عن الموسوعة الكاثوليكية، إلا أنّه يلخّص وجهة نظر كلٍ من اليهود والمسيحيين والمسلمين:

«من ناحية أخرى، لطالما أكّدَت الكنيسة على أنّ الأخلاق واللاهوت متّصلان جوهرياً، وأنّه بعيداً عن الدين لا يمكن قيام أي مبادئ أو قيَم أخلاقية» [الموسوعة الكاثوليكية 1913]. بمعنى آخر، من دون عناية يهوه وإرشاداته، لا يمكن أن يكون هناك أخلاق.

بالإضافة إلى الأخلاق البراغماتية في المجتمعات القديمة، والأخلاق الإلهية، يَظهَر نوعٌ ثالثٌ جديدٌ من الأخلاق عند الإغريق، هذه الأخلاق الجديدة تتمثّل في العَقلانية الإغريقية. كان لأعمال كُلٍ من سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة الإغريق العظماء الأثر الأكبر على تاريخ العالَم، حيث تمّ تدريسها في أثينا لأكثر من ألف عام، حتى جاء الإمبراطور الكاثوليكي جستينيان الأول وأغلق كلّ المدارس الفلسفية غير المسيحية.

استنتج العَقلانيون الإغريق أنّ الفضيلة والرذيلة يمكن تعريفهما وتحديدهما من خلال سلسلة منطقية تبدأ من سعادة الإنسان، وتأسيسها على أساس ما نطلق عليه اليوم اسم «القاعدة الذهبية». إنّ عبارة «كل شيء في الاعتدال أو التوسّط» أفضل تجسيد لهذه القاعدة، لكن مع تحذيرٍ صارم: يجب وضع خطّين عريضين تحت كلمتي «كل شيء» و«اعتدال».

لقد قاموا بتعريف الفضيلة على أنّها توازُن بين نقيضين: «الشجاعة» مثلاً كانت فضيلة ومَركزها في المنتصف بين التهوّر والجُبن. ولا يُمكن القول عن

الرجل الثَمِل فاضلاً، فالفضيلة تنبع من الاستمتاع بشُرب الخمر باعتدال. كما أنّ النَهَمَ ليست فضيلة ولا فقدان الشهية أيضاً، فالفضيلة تَنبُعُ من تناول تنويعة مختلفة من الأطعمة باعتدال. الوَطني الفاضل لا يدافع عن وطنه بشكلٍ أعمى ومن دون سؤال، كما أنّه لا يهرب عند أوّل إشارة على اقتراب المعركة.

دعونا نعود إلى تاريخنا المختصر لميم الأصل الإلهي للأخلاق. لقد سَبَقَ وذكرنا الالتقاء بين الحضارتين الإغريقية واليهودية خلال الألفية الأولى قبل الميلاد. كانت هذه فترة زمنية عصيبة لميم الأصل الإلهي للأخلاق.

لَم يَسبق لليهود أن قابلوا مثل هذا الشكل من العقلانية، لكن كان من حُسنِ حظّهم أنّ ميماً آخر _وهو الميم المضاد للعقلانية_ يتطوّر هو الآخر أيضاً، وهذا موضوعٌ سنناقشه باستفاضة أكبر لاحقاً خلال هذا الكتاب. يَنُصّ الميم المُضاد للعقلانية بأنّ الإيمان _وليس المنطق_ هو أساس الفَهم الصحيح والحقيقي. لقد اكتَشَفَ اليهود طريقة لرَفض الحجج العقلانية الإغريقية حول الأصل الإلهي للأخلاق وتجاهل التسلسل المنطقي الذي اكتشفه العقلانيون الإغريق. والباقي _كما يُقال_ بات من الماضي: والنتيجة أنّ كل اليهود والمسيحيون والمسلمون اليوم يؤمنون بأنّ الأخلاق مُنزَلَة من عند الله/يهوه، ولا يمكن قيام أي أخلاق من دونه.

إنّ تاريخ الفلسفة العقلانية اليونانية لَم يَصِل نهايته مع ظهور المسيحية، مع أنّها غابَت في سُباتٍ عميق لفترة طويلة جداً: ساد ميم الأصل الإلهي للأخلاق على الفلسفة واللاهوت الغربيين لأكثر من ألف عام. وكانت العقلانية اليونانية قد غابَت في غَياهب النسيان تقريباً، حتى استَفاقت من سُباتها أخيراً مع حلول عصر النهضة ما أن تَمّ اكتشاف الكتابات والأعمال اليونانية وتسليط الضوء عليها وإعادة طباعتها من جديد. أصبح الفكر

العَقلاني قوّة حقيقية مع ظهور ما يُسَمّى بالنزعة الإنسانوية *Humanism*، وهي فلسفة تقوم على أساس القدرة على البَتّ في المسائل الأخلاقية عن طريق الفكر العقلاني وحسب ظروف وشروط إنسانية. واجَهَ الفكر الإنساني أوقاتاً صعبةً في بداياته، فقد صُنّفَ بأنّه فِكرٌ «خطيرٌ»، لكنه اكتسب في النهاية العديد من الأتباع خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. واليوم، باتَ لدى أنصار النزعة الإنسانوية العديد من المؤسسات والمنظمات الكبرى، والمواقع الإلكترونية، وجماعات الضغط السياسية في أمريكا، كما أنّهم يتمتّعون بشعبية كبيرة جداً وكافية لإثارة غضب وحَنق المبشّرين والوعّاظ الإعلاميين والزعماء الدينيين. لقد انبَعَثَت النزعة الإنسانوية وشكّلت من جديد تحدّياً أساسياً ورئيسياً عنيداً لميم الأصل الإلهي للأخلاق.

ميم العَطف والرأفة

«الرجال المتوحّشون والقُساة يؤمنون بآلهة متوحّشة وقاسية، ويستخدمون إيمانهم ذريعةً لتبرير قسوتهم ووحشيتهم. فقط الرجال اللطفاء والمسالمون هُم الذين يؤمنون بإلهٍ وديعٍ ومُسالِم، وهم سيكونون لطفاء وفق ما تمليه عليهم طبيعتهم الطيبّة»

[برتراند راسل 1872-1967]

إنّ النسخ والأشكال الأدنى من الآلهة _كونها كانت مصنوعةً من نفس المادّة التي صُنِعنا منها_ كانت تتخلّلها الكثير من العيوب والنواقص البشرية، ومن بينها المشاعر والعواطف الإنسانية: كالانتقام، والغضب، والحسد، والوحشية القاسية. هذا من شأنه أن يخلق الكثير من القصص والأساطير، لكنّه لم يشكّل مشكلة في الديانات التعددية/الشركية، حيث تلعب آلهة متنوّعة أدواراً مختلفة. لا يضرّ اللاهوت في شيء إذا كان إله الحرب قاسياً وفَظّاً بطبيعته، أو كان إله الخمر ثَملاً وعربيداً، أو إذا كانت إلهة الحُب والخصوبة مغوية، ولَعوب، ولديها عدّة شركاء.

لكن بعد أن ظهرت ميمات الإله متعدّد الاختصاصات _»إله الغايات الشاملة»_ وميمات التوحيد بدأت بالترسّخ، تحوّلت هذه الميّزات إلى مشكلة. فإذا كنتَ تعبُدُ إلهاً واحداً فقط، فإلى مَن ستلجأ لتلبية جميع حاجاتك الروحية، ستكون راغباً في معرفة ما إذا كان هذا الإله ينظر إليك بعين العَطف والرأفة، هل هو نوع من شخصيات الأب الذي يحمل لكَ كلّ المَوَدّة والحُبّ في قلبه. لننظر إلى زيوس مثلاً: قام بقتل سلمونيوس لأنّه سجنه فقط، وحوّل بانداريوس إلى حَجَر لأنّه سَرَق، وحوّل كيلونه إلى سُلحفاة لأنّها رَفَضَت

حضور زفاف، وحوّل الملك هايميوس والملكة رودوبه إلى جبلين بسبب غرورهما وكبريائهما. كان زيوس يتميّز بِمِزاجٍ سيئ للغاية.

أمّا يهوه فكان أسوأ بكثير، وقد عبّر دوكنز عن ذلك بإيجاز:

«إنّ إله العَهد القديم هو أسوأ شخصية خيالية على الإطلاق: إنّه غيورٌ ويُفاخِرُ بذلك، مُتَسَلّطٌ ظالِم، قاهِر، مثير للشفقة، مُطَهّر عرقي ناقِم مُتَعَطّشٌ للدماء، كما أنّه مُتَنَمّرٌ كارِهٌ للنساء والمِثليين، مُتَعَصّب، قاتل للأطفال، مجرم، مُتَوَحّش، ضار، مُوبِئ، مُصاب بجنون العَظَمَة، سادي، مازوشي، زئبقي ومُتلاعِب مخادع لأبعَد حَد».

هذه ليست نكتة _وأيّ دارِسٍ للعَهد القديم بإمكانه التعرّف بشكلٍ مباشر على الأرجح عن أيّ كتابٍ يتحدّث عنه دوكنز هنا: غيور؟... اقرأ الوصية الأولى من الوصايا العَشر لتعرف. مُتَعَطّش للدماء؟... اقرأ سِفر التثنية، والخروج، وعدّة اسفار أخرى. مُجرِم، متوحّش، مُوبِئ؟... كل هذه الأمور موجودة في الكتاب المقدّس بالأبيض والأسود. وكما كتبت كارين آرمسترونغ[1]:

«هذا إلهٌ قاسٍ، مُتَوَحّش، مُتَحَيّز، وقاتل... إنّه إلهٌ محارب، ولا يملكُ ذرّة عطفٍ أو رحمة تجاه أي أحَدٍ آخر باستثناء المفضّلين لديه، وهو ببساطة إلهٌ قبلي وعَشائري. إذا بقي يهوه مثل هذا الإله المتوحّش والبربري، فالأفضل أن يختفي بسرعة».

---

(1) كارن أرمسترونغ (بالإنجليزية: Karen Armstrong) مؤلفة بريطانية لعدة كتب في مقارنة الأديان وعن الإسلام. كانت راهبة كاثوليكية لكنها تركت الكاثوليكية وفضلت التصوف المسيحي. وهي عضوة في الحلقة الدراسية عن يسوع. من مؤلّفاتها: «تاريخ الرّبّ» (1993)، وموجز تاريخ الأسطورة» (2005)، و«التحول العظيم: بداية تقاليدنا الدينية» (2006).

لكنّ يهوه لَم يظلّ ذلك الإله المتنمّر والمتوحّش الذي تحدّث عنه العَهد القديم. تتابع آرمسترونغ قائلة:

«... لَم يبقَ يهوه ذلك الإله القاسي والفَظّ والعنيف كما صوّره لنا سِفرُ الخروج... فقد حَوّله الإسرائيليون إلى رَمزٍ للتعالي والتعاطف».

هذا هو أساس وجوهر ميم العَطف: يهوه الذي يُعبَد من قِبَل اليهود والمسيحيين والمسلمين حول العالَم اليوم هو إلهٌ عطوف، حنون، كريم، وعادل، ومُحِبّ. يهوه هو الأب الذي نتمنّى جميعنا أن يكون آبائنا على شاكلته، الأب الذي سيُحافظ علينا ويَهدينا ويُبقينا على الصراط المستقيم، والذي سيُعاقبنا عِقاباً عادِلاً إذا أخطأنا، والذي سيَحمينا من الأخطار، وفوق كل ذلك، سيحبّنا بشكلٍ غير مشروط.

كانت هذه طَفرة خطيرة أخرى في تركيبة يهوه الميميائية، طفرة ستقيم تعاوناً هامّاً مع غيرها من الميمات الأخرى التي سبق ودرسناها. لم تَكُن المشكلة ما إذا كان الإله الإغريقي زيوس، أو آلهة هاواي بيلي، أو إله الإسرائيليين يهوه العجوز، تتمتّع بمزاجٍ سيئ أو صعب لأنّ المؤمنين لديهم آلهة أخرى يلجؤون إليها لتلبية حاجاتهم العاطفية. كان من المفروض أن يكون يهوه إله العَهد القديم، يهوه ساباؤوت، أو إله الجيوش والفيالق، لئيماً وقاسياً. لكن في زمن يسوع، تحوّل يهوه إلى ذلك الإله المجرّد، كلّي الغايات، إله كل شيء، ولم يكن يناسبه أن يكون ذلك الإله الغَيور والمُتَعَطّش للدماء كما كان في زمن إبراهيم.

على غرار ميم الإله المجرّد، إنّ ميم العَطف والشفقة يَدعَم ويُعَزّز الميمات الثلاثة الأولى التي حوّلَت يهوه من إله قبلي عشائري إلى إله لجميع الأشياء وجميع البشر. وبصفته الإله الواحد الأوحَد، كان على يهوه أن يكون إلهاً

جديراً بالمَحَبّة والاحترام، وليس إلهاً طفولياً غير مُهَذّب وغيور ومزاجي صَعب المِراس.

الميم اللاجنسي

«الجنس أفضل متعة في عالَم الإنسان، ومع ذلك لَم يَجعَله الله جزءاً من جنّته»

[مارك توين 1835-1910]

الميم اللاجنسي *Asexual meme* مرتبط بقوّة مع ميم العَطف الذي درسناه في الأعلى. كانت الآلهة الأولى، كونها كانت مصنوعة من نفس المواد التي نحن مصنوعون منها، تميل إلى ممارسة الجنس، وتعشقه. وكانت متقلّبة المزاج، أحياناً أخلاقية، وأحياناً أخرى غير أخلاقية. يمكننا النظر إلى أي ديانة وملاحظة ما يلي: كان زيوس يقيم علاقة مثلية مع الشاب غانيميد، كما أنّه تجسّد على هيئة إوزّة واغتَصَبَ ليدا، ملكة إسبارطة. وفي الميثولوجيا المصرية، نجد الإله أتيرن وهو يمارس العادة السرية ليُنجِبَ الإلهين التوأمين شو وتيفنوت، ويُقال أنّ الأخين العاشقين نوت (آلهة السماء) وأخوها الإله غيب (إله الأرض) يعيشان دوماً في حالة دائمة من التزاوج والعِناق الدائمين. وحتى يهوه نفسه، إله الإسرائيليين، يَعتَقِد كثيرون أنّه يمتلك زوجة _اعتقد بعض الإسرائيليين أنّ مَلِكَةَ السماء (إيزيس/عَشتار)، إلهة الحب والجمال، كانت زوجة يهوه.

وبما أنّ الجنس ليس عَمَلاً لا أخلاقياً بالنتيجة، نرى أنّ جنسانية الآلهة مُرتبطة عادة بعيوب ونواقص أخرى، كالاغتصاب، والغيرة، وسفاح القُربى، والبيدوفيليا[1] وكافّة التجاوزات والانتهاكات الإنسانية الأخرى

(1) البيدوفيليا Pedophilia: التحرش الجنسي بالأطفال أو الاعتداء الجنسي على الطفل.

التي تترافق مع النشاط الجنسي. وقد تحوّل هذا الأمر إلى مشكلة حقيقية مع تطوّر يهوه، وبشكلٍ خاص ضمن سياق ميم الأصل الإلهي للأخلاق. إذا كان يهوه هو مَنْ سَلّمَ الوصايا العَشرة لموسى فينبغي أن يكون متعالياً عَن لَوم نفسه.

إنّ ميم اللاجنسانية هو في الحقيقة نتيجة طبيعية لتطوّر ميم الإله المجرّد. وبذلك من الطبيعي أن يتحوّل إلهٌ مصنوعٌ من مادّة تشبه المادّة التي صُنِعنا منها إلى إلهٍ أكثر تجريداً أو أقل شَبَهَاً بالإنسان، من الطبيعي جداً أن يفقد ذلك الإله بعض السّمات والخصائص البشرية كالجنسانية. ومع ذلك، فخسارة يهوه لجنسانيته ونشاطه الجنسي خلال ألفية من الزمن هو موضوعٌ منفصل وفي غاية الأهمية، ونحن بحاجة إلى فهمه كميم ضمن سياقه الخاص.

في فصلٍ لاحق، سنرى كيف أنّ ميم الجنسانية على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لبعض المسيحيين، كالكنائس الأمريكية المحافظة على سبيل المثال، التي ترى أنّ الجنس ذنبٌ كبير وخَطيئة لا تُغتَفَر. بالنسبة لهؤلاء المسيحيين، إنّ لاهوتَهُم غير متوافق مع يهوه جنساني على الإطلاق.

ومن خلال تحويل يهوه إلى كائن لاجنساني، فقد امتَلَكَ بذلك أرضية أخلاقية عالية، على عكس زيوس وآلهته، لم يكُن يهوه قادراً على ارتكاب أيّة خطايا أو أفعال جنسية مُشينة. لذلك، يدعَم ميم اللاجنسانية ويُعَزّز ميم الأصل الإلهي للأخلاق، لأنّ الإله الذي أنزَلَ علينا أخلاقنا وقِيَمَنا يجب أن يكون هو نفسه متعالياً عليها ومتجاوزاً لها.

تَضافُرَ الميات الثمانية

«الفعل للقوّة فقط... أمّا الضعف فلا يسعهُ سوى التسوّل»

[دوايت د. آيزنهاور]

لقد درسنا ثمانية أنواع من الميمات الدينية. دعونا نستعرض كل ميم على حِدَة وبسرعة وباختصار، ونرى كيف أنّ هذه الميمات الثمانية، «أو خطوط التطفّر الميميائية»، متضافرة:

- مِن إله ضيّق التخصّص إلى إله كُلّي الغايات.
- من التعدّدية/الشركية إلى التوحيد.
- من التسامح وتقبّل الآلهة الأخرى إلى اللاتسامح.
- من الآلهة المحلّيّة إلى الآلهة العالمية.
- من المادّي (نفس المادّة التي صُنِعنا منها) إلى المجرّد.
- من الأخلاق الطبيعية/البراغماتية إلى الشرائع المُنَزّلَة من عند الله.
- من الفَظاظة إلى العَطف والرّأفة.
- من الجنسي إلى اللاجنسي.

إذا «عُدنا إلى الوراء بالزمن» بعقولنا لحوالي أربعة آلاف عام، قبل تطفّر الميمات التي دَرَسناها في الأعلى، تتّضح أمامنا أهمية هذه الميمات وأثرها. خُذْ أياً من الآلهة التي كانت تُعبَد في زمن إبراهيم: إيزيس، يهوه (إيل، إيلوهيم)، بَعل، أشيراه، أو أناة، واسأل نفسك: هل يمكن أن يكون أحد هذه الآلهة قد أصبح على درجة كبيرة من الشعبية وانتَشَرَ ليُصبح هو الإله الذي يعبده

المسيحيون والمسلمون واليهود اليوم؟

سيكون الجواب بالتأكيد: كلا! لم تَكُن تلك الآلهة القديمة تمتلك ما هو ضروري لتحقيق «النجومية»، للسيطرة على العالَم كلّه. لقد كانت أعدادها كبيرة، وكلّ واحدٍ منها كان يخدم مجالاً محَدّدَاً وخاصاً من حاجياتنا، كانت محصورة ضمن أقاليم ومناطق معيّنة، كما أنّها لَم تَكُن غير متسامحة مع بعضها البعض فقط، بل تغار من بعضها الآخر، بعضها كان وقحاً ومُشاكِساً (مثل يهوه نفسه)، متنمّراً مكروهاً، كانوا لا أخلاقيين أو معدومي الأخلاق، ولَم يقدّموا للبشر سوى القليل من الإرشاد الأخلاقي، وفي بعض الأحيان لَم يُقَدّموا شيئاً. وفوق كل ذلك، كانوا عرضَةً للتحدّي من قبل مفكّرين عَقلانيين كأفلاطون على سبيل المثال. كلّ واحدةٍ من الميمات الثمانية في الأعلى كان بحدّ ذاته على درجة كبيرة من الأهمية. لكن على غرار عملية التطوّر في عالَم النبات والحيوان، كان صنع جنسٍ سائد ومُهَيمن يتطلّب أكثر من مجرّد أمرٍ واحد. تتضافر الطفرات _سواءٌ كانت في الميمات أو الجينات_ وعادَةً ما تبنّى فوق بعضها البعض. الدماغ البشري الكبير على سبيل المثال مهمٌ جداً، لكنّ هذا الدماغ الكبير بحدّ ذاته، لَم يَكُن هو الذي جعل البشر يسودون الأرض. والحال أنّ الدماغ الكبير عندما تتضافر معه عوامل من الحركة على ساقين، الإبهام، اللغة، الاعتماد على مصادر متنوّعة من الغذاء، وغيرها من الخصائص والسمات الأخرى عندها تكون النتيجة الناجمة عن هذه التركيبة هي سيطرة الإنسان وسيادته على الأرض.

بنفس الشكل، كلّ واحدةٍ من هذه السّمات والخصائص في الميمات الدينية، وبشكلٍ خاص ميم يهوه، مهمّة جداً، لكنّ التعاون أو التضافر بين جميع هذه العوامل أو الميمات هو الذي جعل من يهوه الإله الوحيد والأوحد للعالَم الغَربي، ذلك الإله الذي ندعوه «بالرّبّ».

ملحق: إجراء قطع القناة الدافقة

يتمتّع المهندسون، وبخاصّةٍ مهندسو البرمجيات، بسمعة طيّبة لكونهم مهووسين. خُرَقاء بعض الشيء. جاهلون في شؤون المرأة والتواصل الاجتماعي. ثابتي المزاج بشكل محبط، ولا يُظهِرون الكثير من المشاعر حتى عندما ترميهم الحياة ببعض كرات الوحل. حبّ حديث أو علاقة فوق الصخور، فوز فريقنا الوطني ببطولة العالم أو خسارته، مكافأة كبيرة في العمل أو تسريح من العمل ... كل هذه الأمور ترسل أصدقائنا المُرهَفين/ العاطفيين إلى مرتفعات السعادة أو قاع اليأس، بينما يستمرّ المهندس في الإبحار على عارضة مستوية.

في الكلية، أخبرنا أحد أساتذة الهندسة عن اجتماع أعضاء هيئة التدريس حيث اتّهمه أستاذ اللغة الإنجليزية بأنه «مفكّر خطّي». جلسنا جميعاً هناك في انتظار ردّ اللكمة، حتى أوضح لنا أنّ أستاذ اللغة الإنجليزية اعتبر هذا إهانة. الآن كان ذلك مضحكاً _كان ذلك المسار المنطقي المستقيم لإيجاد حل لمشكلة صار إهانة! ثمّ سأل أحدهم: «هل يؤيّد أستاذ اللغة الإنجليزية المنطق الدائري؟»، الأمر الذي جلب المزيد من الضحك. كنّا جميعاً مهووسين.

يسعدني أن أبلغكم أنّ ميم «كل المهندسين مهووسو دراسة»... صحيح. سهلٌ وبسيط، إنّه الواقع. لقد عملتُ مع عددٍ كبيرٍ من المهندسين _مهندسين ميكانيكيين، وكهربائيين، وكيميائيين، ومدنيين، وبرمجيات_ وسأقول دون تردّد أنّ المهندسين مهووسون جدّاً. لا، لم يكن لديهم جميعاً خُوَذ واقية بلاستيكية، ولم يرتدوا جميعاً أطواقاً سفلية. كان بعضهم موسيقيين ممتازين، أو لاعبو خفّة محترفون، أو بحّارة سباقات عظماء، أو راكبو درّاجات نارية

أشدّاء. لكنّهم جميعاً شاركوا هذا العنصر الأساسي في «التفكير الخطّي» الذي يعمل جيداً في مجال الهندسة، و (لسوء الحظ بالنسبة لأصدقائهم وأحبّائهم الأقلّ ذكاءً) فإنّهم يحملون هذه العقلية حتى في حياتهم الشخصية.

ولهذا السبب، في ربيع عام 1982، فوجئت تماماً بتجربة عاطفية عميقة وغير متوقّعة أو عقلانية تماماً. تعرّضت حياتي، التي لطالما أبحرت على عوارضها، لعاصفة عاطفية هَوجاء لدرجة أنّها ضَرَبَت جانبيّ الطوف، وغمرت حوافه كلها. كان سبب إعصار العواطف هذا عبارة عن حزمة صغيرة تحتوي على سبعة أرطال فقط من اللحم الطريّ. كان انجذابي لهذه الحزمة شرهاً وبدائياً، وعميقاً جداً من داخلي، بقوّة لم أشهدها من قبل. بالتأكيد، لقد شعرتُ بالحبّ والشهوة وخيبة الأمل والسعادة والغضب من قبل. لكن لا شيء يعادل مثل هذه الجاذبية البدائية الطبيعية البحتة، التي تقول لي، «هذا هو طفلك». كانت الرابطة فورية. كنت أعرف، في ذلك الوقت وهناك، أنّني سأقف عن طيب خاطر في طريق الأذى، أو حتى أمنح حياتي، في سبيل حماية طفلي. لم أشعر أبداً، أبداً، بأي شيء بدائي ومكثّف لهذه الدرجة حتى عن بعد، كما شعرت به في تلك الدقائق.

لطالما اعتقدتُ أنّ هذا النوع من تجربة الترابط كانت مقتصرة على الأمهات وليس على الآباء، وطريقة تفكيري الخطّيّة جعلتني غير مستعدٍ تماماً لهذه التجربة العاطفية الرائعة والغريزية وغير الخطّيّة تماماً. كنت أكثر استعداداً عندما وُلِدَ طفلاي الثاني والثالث، لكنّني ما زلت أشعر بهذا الحبّ الرائع الذي لا يمكن إلا لطفلٍ أن يلهمني إياه.

بعد ثمانية عشر عاماً، واجهت عاصفة عاطفية بدائية أخرى. خلال تلك السنوات الثمانية عشر، نما أطفالي الثلاثة الرّائعون ليصبحوا صغاراً، وتوسّعت مهنتي وهواياتي، وبدأت أتطلّع إلى الأيام التي اكتملت فيها واجبات تربية

الأطفال. كان عليّ أن أفكّر لفترة وجيزة فقط قبل أن أخلص إلى أنّني لست بحاجة إلى المزيد من الأطفال في حياتي، ممّا يعني أنّ الوقت قد حان لزيارة طبيب المسالك البولية من أجل عملية Big V - أي لإجراء قطع القناة الدافقة.

مرّةً أخرى، غمرني التفكير غير الخطّي واللا-عقلاني بشكلٍ غير متوقّع. ما كان ينبغي أن يكون مساراً منطقياً تماماً، لإنهاء خصوبتي، ثَبُتَ أنّه صعبٌ بشكلٍ ملحوظ من الناحية العملية. بالتأكيد، كنت أعرف كل النكات المضحكة المرتبطة بالتعقيم بالإخصاء، وهي لم تزعجني، كان جانبي الفكري العقلاني لا يزال سليماً بما يكفي لأدرك أنّ رجولتي لم تكن مهددة.

كان الأمر أعمق من ذلك. كان من السهل قبول فكرة عدم وجوب إنجاب المزيد من الأطفال، لكنّني فكّرتُ أنّ العملية تعني أنّه لا يمكنني إنجاب المزيد من الأطفال على الإطلاق ... لم أرغب في فعل ذلك. عرف جانبي العقلاني أنّني لن أربّي طفلاً آخر. لكنّ جانبي البدائي لَم يرغب في الاستسلام. في مكانٍ ما، في أعماقي، لا تزال هناك غريزة أساسية تقول لي ، «تناسَل!». كان دماغي العاقل ماهر بشكل استثنائي في تحويل هذا الصوت البدائي إلى أعذار مقنعة. همس لي قائلاً: «ربما، قد تُقتَل عائلتك بأكملها في حادث سيّارة، وستحتاج إلى البدء من جديد!». أو، «سمعتُ أنّ هناك الكثير من الآثار الجانبية للعملية! يمكن أن تصاب بخرّاجات وألم في الفخذ!». أو ، «إنّها المرأة هي التي تحمل، دعها تعتني تدبّر الأمر!».

إنّ دماغ الرئيسيات البدائي عندي ليس ذكياً جداً، وأنا أكرهه عندما يفوز بالجدال. لذلك، أخبرته أخيراً أن يَصمت، وذهبتُ إلى طبيب المسالك البولية، وتجاوَزتُ الأمر. لكنّ ذلك لم يكن سهلاً.

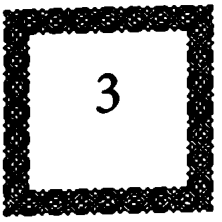

﴿التطوّر والميمات﴾

متى تحوّلت المعلومات إلى ميمات؟

حتى الآن لَم نتكلّم سوى قليلاً عن الميمات والميمياء، واستَعرَضنا بعض الأمثلة عن أساسياته وكيفيّة تطوّر الأفكار وانتشارها. ثمّ انتقلنا مباشرةً إلى فحصنا لتاريخ الدين حتى زمن يسوع. وقبل أن نُكمِلَ في تاريخنا وتحليلنا، علينا أن نُلقي نظرة مُفَصّلَة أقرب على علم الميمياء، وندرسه بعناية، لنَفهم كيفية انطباق مبادئ التطوّر وقوانينه على الثقافة والأفكار. ما الشيء المميّز الذي يجعل الميمات شبيهة بالأفكار، وإلى أيّ مَدى يختلفان؟ هل الميمياء فعلاً تمثّل نظرةً أعمَق إلى عملية التطوّر الثقافي، أم أنّ التماثلات بين الجينات والميمات مجرّد صدفة مُسَلّية؟ لقد تعلّمنا خلال الفصول التقديمية كيف أنّ المعلومات الثقافية، التي تسمّى «ميمات»، تشبه جداً المعلومات الوراثية. وعن طريق الخروج عن نظرة داروين ومبادئه والنظر إلى الجينات بوصفها وَحَدات من المعلومات بَدَلاً من الحمض النووي، سنعرف عندئذٍ كيف أنّ مبادئ داروين _في ظلّ ظروف مناسبة_ يمكن أن تنطبق على أنماط أخرى من المعلومات إلى جانب المعلومات الوراثية... وبشكل خاص: الميمات.

إنّ عبارة «في ظلّ ظروف مناسبة» هي المفتاح الأساسي: ما هي تلك الظروف؟ هناك تنويعة كبيرة ومختلفة من المعلومات من ناحيَتي الشكل والمضمون، كل شيء من التيرابايت، إلى أي رُقُم مسماري سومري يعود تاريخه إلى أكثر من 5000 عام. هناك بعض المعلومات التي لايمكن أن نقول عنها أنّها ميميائية، أي أنّها لا تتضاعف أو تَنسَخ نفسها، ولا تتشكّل عن طريق العمليات والعوامل التطورية. لكنّ بعض المعلومات تقوم بذلك. علينا أن نحدّد الظروف والشروط الضرورية لتقوم عملية التطوّر الثقافية بعملها بأكمَل وَجه، لتتحوّل أي معلومة إلى ميم.

التكرار/التكاثر

«لقد أخطأتُ بحقّكِ، وأطلبُ منكِ السماح»

[جيمي سواغرت، مبشّر تلفزيوني مسيحي، موجّهاً اعتذاره لزوجته بعد أن تمّ ضبط مكالمة له مع بائعة هوى في موتيل بلويزيانا]

في سبيل البقاء، والتطوّر، والتنافس، يجب على كل كائن حَيّ من أصغَر فيروس موجود إلى أضخم الحيتان في المحيطات _أضخم حيوان على وجه الأرض هو الحوت الأزرق_ أن يتكاثر ويصنع نسخاً من نفسه.

في شهر نيسان/أبريل عام 1991، وجد السيد والسيدة سميث (اسمين مُستَعارين)، وهما أبَوَين شابّين لفتاة صغيرة وجميلة، أنفسهما يجلسان على الطاولة أمام محققين من مجلس الدفاع في الولايات المتحدة، ومُحرَجان على الإجابة عن أسئلة كانا يريان أنّها خاصّة جداً. كان الزوجين قد راجعا الدكتور جاكوبسون، الطبيب المعالِج للعقم، لأنّهما لم يكونا قادرين على

الإنجاب بنفسيهما، وأصرّا في النهاية على إجراء عملية تلقيح اصطناعي عن طريق واهِب مجهول. كان المحقّقون الفدراليون مهَذّبين للغاية، واعتذروا مِراراً لأنّهم سبّبوا الإحراج للزوجين. لكنهم كانوا يريدون معرفة ما إذا كان الزوجان سميث يستطيعان أن يقدّما لهم أجوبة عن تساؤلاتهم حول برنامج الدكتور جاكوبسون لمعالجة العقم. ما الذي اعتقده الزوجان سميث حول الدكتور جاكوبسون؟ ما الذي أخبرهما به حول برنامجه لمعالجة العقم؟ هل أصبَحَت السيدة سميث حامل بفضل برنامجه وعلاجه؟

بالرغم من أنّ المسألة طالَت لبعض الوقت وذلك لاعتبارات خصوصية وأخلاقية، تمّ الكشف عن الحقيقة أخيراً للزوجين سميث، ولعدّة مرضى آخرين. كان يبدو أنّ الدكتور سيسيل بي. جاكوبسون قد قرّر أنّ ثمانية أولاد من زوجته لَم يَكُن كافياً. وبدلاً من استخدام نطاف واهبين مجهولين، تتطابق مع المواصفات المطلوبة عند السيد سميث، فإنّه استخدم نطافه الخاصة لإلقاح السيدة سميث وغيرها من المريضات السابقات اللواتي جِئنَ إلى عيادته لمعالجة العُقم. وفي بعض الحالات عندما كان يمكن استخدام الزوج لإجراء عملية الإلقاح، كان الدكتور جاكوبسون يتخلّص من نِطاف الزوج ويستبدلها بنطاقه.

أغلب المرضى السابقين الذين راجعوا عيادة د. جاكوبسون الذين اتصل بهم مكتب الدفاع في الولايات المتحدة كانوا رافضين لفكرة إخضاع أولادهم لفحص الـDNA ومانعوا ذلك بشدّة، لهذا لم يَكُن الإحصاء النهائي دقيقاً، لكن من المرجّح أنّ د.جاكوبسون كان أباً لحوالي ستّين أو ثمانين وَلَداً عن طريق عمليات تلقيحه المزوّرة. تمّ توجيه التهم إلى جاكوبسون بالتزوير والغشّ، والتسبّب للمرضى بأذى نفسي بالغ. وحُكِمَ عليه بالسجن لمدّة خمس أعوام في السجن، وثلاث سنوات تحت الاختبار، وغُرِّمَ بمبلغ قدره

11700 دولار.

جميع الرجال لديهم دافع قوي لممارسة الجنس، والذي ينتُجُ عنه عادَةً ـ قبل عصر موانع الحمل وأساليب تحديد النسل ـ إلقاح لشريكهم الآخر. تتنوّع جميع الصفات والسمات الإنسانية، ومن بينها رغبتنا في التكاثر. د. اكوبسون ببساطة بالَغَ في ممارسته لهذا الدافع ودَفَع به إلى أقصى حَد، مستخدماً التكنولوجيا ليكون أباً لأكبر عددٍ ممكن من الأولاد.

وحتى في العديد من الحالات العادية، نلاحظ أنّ مجيء طفل إلى العائلة غالباً ما يكون سبباً لتهنئة الأب، مع أنّ دوره في العملية لا يتجاوز مجرّد الاستمتاع بلحظة النشوة، مقارَنَةً بدور الأنثى خلال فترة الحَمل. نحن مُبَرمَجون وراثياً لنحبّ أولادنا ونفخَرَ بهم. لدينا دافع قوي جداً للتناسل والتكاثر.

أهمّ مَطلَب رئيسي للعملية التطوّرية هو إنتاج المزيد من المعلومات (سواءٌ أكانت ميمات، أو فيروسات، أو حتى فيل) وأن تحمل تلك المعلومات بداخلها الدوافع أو الحَوافز اللازمة التي تحفّز عملية تكرارها الذاتي. قد يبدو الأمر بسيطاً على المستوى السطحي: الكائنات الحية تتكاثر، والميمات تتكاثر أيضاً. لكنّ الآليات تختلف بشكلٍ كبير. في حالة الفيروسات أو البكتيريا تكون هذه الآليات بيوكيميائية بحتة: عند نقطة معينة، يتمّ إطلاق بعض التفاعلات البيوكيميائية المحدّدة بدقّة وحَذَر، والتي تبدأ عملية التكاثر (الفيروسات) أو الانقسام (البكتيريا). في الجانب الآخر، يتمتّع البشر والفِيَلَة والحيتان بمجموعة أكثر تعقيداً من الجينات التي تحمل شيفرة من أجل أعضائها التناسلية، وجينات أخرى تحكم أنماطها السلوكية في عملية الإغواء والممارسة الجنسية. لكن سواءٌ كانت هذه سلسلة بيوكيميائية بسيطة لفيروس، أو عملية معقّدة تستمرّ لعشرين عاماً كما عند الإنسان الذي

يبدأ في علاقة حب ثمّ الزواج ثم إنجاب الأولاد، ثم يكبر هؤلاء الأولاد وينضجون ويصبحون قادرين على متابعة مسيرتهم التكاثرية البشرية ونقل الصفات. السمة العامّة والمشتركة بين جميع الأحياء، من أصغر كائن حَي إلى أكبر حيوان _هو أنّ فعل التكاثر محكومٌ بالجينات. هذا يعني أنّ المعلومة (الجينوم) التي تكاثرت تتضمّن التعليمات الضرورية واللازمة لتكاثرها.

في حالة الميمات، «الدافع» للتكاثر متنوعٌ أيضاً. نحن نتّصل بصديقنا ليحذر رادار دورية الشرطة على الطريق العام التي تراقب السرعات وذلك بدافع الإيثار ومحبّة الغير أو على أمّل أن يردّ لنا صديقنا معروفنا ويحذّرنا من دورية الطرقات في المستقبل. نحن نروي نكتاً مسلّية ومضحكة حتى يجد أصدقائنا وأفراد عائلتنا المتعة بوجودنا ويَدعُونا إلى حفلاتهم ومناسباتهم. نحن نقُصّ على أولادنا قصصاً عن طفولتنا وشبابنا والأخطاء التي ارتكبناها حينها على أمَل أن يتجنّبوا الوقوع فيها وتكرارها. نحن نعلّم أولادنا ديننا ونُبَرمجهم على أساسه، لأنّنا نؤمن أنّ نتائج الإيمان الصحيح والمُلتَزم مذهلة، وأنّ عواقب المعتقدات الخاطئة وخيمة.

هذه الدوافع جميعها مختلفة، لكن على غرار الحياة البيولوجية، جميعها تشترك في سمة عامّة واحدة فيما بينها: الميم نفسه يجعلكَ راغباً بتكراره ونقله إلى الآخرين. وعلى غرار الجينوم، يتضمّن الميم المعلومات التي تساعده على تكاثره ونسخ نفسه. وهذا ما يجعل منه ميماً، وليس مجّرد وحدة بيانات.

بقاء الأصلح

«رجل العِلم لا يجب أن يكون لديه أمنيات، ولا عواطف أو مشاعر، بل قلباً من حَجَر»

[تشارلز داروين 1809-1882]

جيمس وليم تات، عالِم حشرات إنكليزي، ألّفَ كتاباً مملاً وسقيماً بعنوان «التاريخ الطبيعي البريطاني لقشريات الأجنحة» [1890-1911]. حسناً، قد يَجده بعض علماء الحشرات الآخرين كتاباً مذهلاً وُممتعاً، لكني سرعان ما شعرتُ بالنعاس بعد قراءتي لبضعة صفحات منه. عادةً، مثل كتاب تات سيقرأه بعض الناس ثمّ سرعان ما ينسوه مرمياً على رَفّ مُغبَرّ في علّيّة مكتبة جامعية ما. لكنّ الكتاب كان غنياً بالحقائق الواقعية الخام، حيث قدّم تات مثالاً عن أفضل وأوّل عملية «بقاء للأصلح» أو الأنسب في الطبيعة.

في إنكلترا ما قبل الثورة الصناعية كانت حشرة العثّ اللاذع (*Biston Betularia*) ملوّنة بجميع الألوان تقريباً _حوالي 98 بالمئة كانت بيضاء اللون ذات بقع سوداء شبيهة بقرن الفلفل _واثنان بالمئة فقط كانت سوداء اللون. ومن خلال القليل من العمل الجاد، والحظ، تمّ توثيق هذه الحقيقة الإحصائية بدقّة وحَذَر من قبل العلماء. حشرات العثّ ذات الألوان الفاتحة تماهَت بشكل جيد واستثنائي مع الأشجار ذات اللحاء المُحَزّز بالأبيض والأسود التي استقرّت على جذوعها، وهذا ما جعل اكتشافها أمراً صعباً بالنسبة للطيور المفترسة.

إنّ الثورة الصناعية الكبرى في إنكلترا والتي تمثّلت في الصناعات النسيجية، وفي مجال النقل والمواصلات، وإنتاج الغذاء، والبضائع المُصَنّعَة

_أحدَثَت تغييرات جذرية في مختلف مجالات الحياة. لكن كل ذلك كان له ثَمنٌ باهظ: فما بين العامين 1800 و1900، تزايدت الطاقة المستخدمة في إنكلترا بمعدّل عشرة أضعاف، وكانت هذه الطاقة مُستَمَدّة كلياً من احتراق الفحم الطبيعي، كمّيّات هائلة منه. والتلوّث الناجم بالسّخام قتل العشبيات والفطريات الصغيرة التي تعيش على لحاء الشجر وسوّدت الأشجار التي تحبّ حشرة العثّ التعلّق بها، وأصبحت الحشرات ذات الألوان الفاتحة التي حَطّت على هذه الأشجار المُغَطّاة بالسخام فرائس سهلة للطيور المفترسة. أمّا الحشرات السوداء تَماهَت بسهولة وبفعالية مع اللون الجديد الداكن للأشجار. والنتيجة؟... النتيجة أنّه خلال فترة لا تتجاوز حوالي 47 عاماً، ارتفعت أعداد حشرة العثّ السوداء من اثنان بالمئة إلى 98 بالمئة. لقد انعَكَس الوضع تماماً.

إنّ اكتشاف تات وتفسيره كان مثالاً نمطياً وبسيطاً عن عملية انتقاء «الأصلح» أو «الأنسب» خلال عملها، هذه الحالة التي أصبحت كرّاساً تعليمياً قام بدراستها فعلياً جميع دارسي نظرية التطوّر. إنّها تظهر، بشكل قاطع وجذري، مدى قوّة عملية الفلترة القوية للانتقاء الطبيعي وتأثيرها.

إنّ مفهوم «البقاء للأنسب» هو الجزء الأشهر بين مبادئ داروين، وقد أصبح بطريقةٍ ما الاختصار الأكثر شهرَةً واستعمالاً في أطروحة داروين الأساسية. فالشيتا التي تجري أسرع من باقي رفاقها تصطاد طعاماً أكثر، وتُنجِبُ ذريةً أسرع. الضفدع الذي يمتلك لساناً أطول وأكثر لزوجةً يَلتَقط ذباباً أكثر، ويُنجب شراغيف أكثر بألسنة أطول وأكثر لزوجة. إنّ فيروس الجدري الذي لا يقتل ضحيّته بسرعة سيَحظى بفرصة أفضل للانتشار وانتقال عدواه إلى الآخرين، ولذلك ينتشر بشكلٍ أسرع. هذه الكائنات هي «الأنسب» *Fittest*، تلك التي تستمرّ لإنتاج وخلق أكبر عددٍ ممكنٍ من

النسخ من جيناتها.

لكن هنا تكمن المشكلة الأصعب: إنّ كلا المصطلحين «بقاء/نجاة =*Survival*» و«الأنسب/الأصلح»، مُضَلّلان ومغلوطان.

فكلمة «أنسَب» تَستَحضِرُ تصوّرات عن الحكمة، أو البراعَة، أو اللياقة البدنية، أو الأخلاق، وغيرها من القيَم الإنسانية. لا شيء أبعَد عن الحقيقة من ذلك: التطوّر لا يهتمّ بالمفاهيم الإنسانية «كالصواب والخطأ» أو «الخير والشّرّ». من السيئ أنّ كلمة «أنسَب»، التي تستَحضر العديد من الدلالات الأخلاقية الإنسانية، هي أساس علم التطوّر. ليس «الأنسَب» هو ما يهمّنا هنا، بل إنّه «التكاثر». وللنظر إلى المسألة من وجهة نظر بشرية، إنّ المورمون والكاثوليك هم الأنسَب والأصلَح من الملحدين وغيرهم، لأنّهم يُنجِبون أولاداً أكثر.

إنّ كلمة «بقاء/نجاة» هي مصطلح مُضَلّل أيضاً. فذَكَر عنكبوت الأرملة السوداء يعرف ذلك جيداً: فهو يعرف أنّ أنثاه سوف تقطع له رأسه خلال عملية الجماع، وتتغذّى على باقي جسده بعد ذلك، لكنّ «النجاة» أو «البقاء» ليس المصطلح المَعني بالموضوع هنا _التكاثر هو ما يهمّ فعلاً. إنّ الذكَر يتزاوج ويتكاثر بطريقة فعّالَة جداً، بالرغم من احتمال عدم نجاته وبقاءه. المهمّ أنّ مادّته الوراثية هي التي ستنجو وتستمرّ.

بإمكاننا أن نحاول صياغة مصطلح أفضل، ربّما على النحو التالي: «العلاقة بين ميّزات جينية معيّنة والنجاح بالتكاثر». هذا المصطلح لا يقدّم أي حُكم أخلاقي أو قيَمي حول مسألة ما إذا كانت ميزة ما حكيمة أو حمقاء، أخلاقية أو لا أخلاقية، قِيَمية أو غير قِيَمية، جيدة أو سيئة، صالحة أو شريرة، صائبة أو خاطئة. لكنّ هذه العبارة لن تستمرّ في البقاء _فهي مملّة وصعبة الفهم والاستيعاب. في

المقابل، «بقاء الأصلح أو الأنسب» هي عبارة أكثر نجاحاً ودَيمومَةً لنفس الأمر الذي يجعلها غير دقيقة. فالعبارة تتضمّن حسّاً درامياً ذا وَقعٍ خاص [نجاة... بقاء...] كما أنّها تتمتّع بنوعٍ من السياق القِيَمي (الخير مقابل الشّرّ) حول «الأنسَب». البشر يحبّون الروايات والقصص الجيّدة، وهذه العبارة البسيطة تَعلَق في أذهاننا. هذه العبارة «البقاء للأصلَح» بوصفها ميماً، أنسَب للبقاء والاستمرار من العبارات الأخرى التي قد لا يكون لها أي دَلالات قيَمية أو أخلاقية! فَمِن أهَمّ الأطروحات الرئيسية والمحورية في هذا الكتاب هي أنّ الكائنات التي تُنتِجُ نسخاً من نفسها أكثر من غيرها (سواءٌ كانت نكتة، أو جرثوم الملاريا، أو الفيلة) هي التي تسود وتنتشر في النهاية، وتتفوّق على أي شيء آخر.

ما هو الأمر المشترك بين العبارات التالية:

_هناك تماسيح تعيش داخل مجارير مدينة نيويورك، وقد وَصَلَت إلى هناك عندما اشتراها الناس وهي صغيرة ولطيفة، وعندما كَبُرَت رموها في المراحيض.

_تقول النظرية النسبية لآينشتاين أنّ الإنسان لا يستطيع أن يسافر بأسرع من الضوء.

_«طَقْ... طَقْ»... _مَنْ هُناك؟

_مَنَحَ الرّبّ موسى الوصايا العشرة منقوشة على لوحين حَجَريين.

_تمّ اغتيال الأميرة ديانا على يد الأسرة الحاكمة في بريطانيا لأنّها كانت على وشك الزواج من رجلٍ غريبٍ غير مسيحي.

_هناك حَبّة باهظة الثمن يمكن إضافتها إلى الماء فتجعله مادة أقوى من الغازولين، لكنّ شركات النفط قد مَنَعَت هذه المعرفة وحَجَبَت هذا الاكتشاف لأنّها سَتُخرِجُها من سوق العمل.

أشياء جميلة، أليس كذلك؟ لكن هل هي حقيقية؟ والأهمّ من ذلك، هل

يهمّ ما إذا كانت هذه الأفكار حقيقية فعلاً؟... كلا! بعضها حقيقي، وبعضها الآخر غير حقيقي، وبعضها عبارة عن أكاذيب مَحضة. كلّ واحدةٍ من هذه الأفكار قد تَوَلّدَت داخل عقل أحدهم (شخصٌ واحدٌ على الأقل) ثمّ تمّ إخبارها ونقلها إلى آخر، ثمّ إعادة سردها وإخبارها إلى الآخرين، ولابدّ أنّها تغيّرت وتَعَدّلَت مع الزمن، ثمّ نَجَت وبقيَت. لا يهمّ لماذا نَجَت أو ما سبب نقلها ونشرها، المهمّ أنّها تمكّنت من النجاة والاستمرار.

هذا هو المفهوم الكلاسيكي لمبدأ «البقاء للأصلَح». كل واحدٍ من هذه الميمات، ولأسباب فريدة وخاصّة، كان مجرّد فكرة وجد البشر أنّها كانت مُسَلّية أكثر أو مُضحكة أكثر من باقي الأساطير المدنية الأخرى. كلّ واحدٍ من هذه الميمات يُعتبَرُ ناجياً. إذ أنّ مقابل كل واحدةٍ من هذه الأفكار، هناك ملايين، بل مليارات، من الأفكار التي خطرت ببال أحدٍ ما، لكنّها عجزَت عن البقاء والاستمرار لأبعد من هذا الحَدّ، فماتت في المَهد واختَفَت. لديك فكرة: «أعتقد بأنني سأذهب إلى المتجر». قد تُخبر أحد معارفك أو أصدقائك بهذه الفكرة أو قد لا تخبر بها أحداً، لكن حتى إن فَعَلتَ ذلك، فإنّها ليست مثيرة للاهتمام. بل ستموت على الفور، ولا تنتشر أبداً من شخصٍ إلى آخر. في المقابل، عندما يخبرك أحدهم «سَمِعتُ أنّ الأميرة ديانا قد قُتِلَت لأنّها...» فإنّك ستُفَكّر بينك وبين نفسك «واو... هذا رائع!». ولأنّه ميمٌ مذهل بشكلٍ سقيم، ميم يصوّر أعضاء الأسرة المالكة من الأرستقراطيين على أنّهم ثُلّة من القَتَلَة الخطيرين ليسوا أحسن حالاً من أي مجرم (ناهيك عن أنّها مجرّد كذبة سَمِجَة)، فإنّ الميم سينتقل وينتشر.

الطفرة

«تتطلّب المؤامرة منكَ أن تكون جاهلاً كما كنتَ جاهلاً منذ سنة»

[بيرنارد برينسون (1865-1959)]

كان بيتر ولوسي [اسمين مُستَعارين طبعاً] زوجان مقرّبان جداً منّي، كانا في غاية السعادة عندما عَلِما أنّ لوسي كانت حامل. لكن وكما هي حال الكثير من حالات الحمل، انتهت سعادتهما باكراً عندما أصيبت لوسي بوَعكَة صحية، شَعَرَت بآلام مَغص شديدة وتقلّصات معوية حادّة، ثمّ أجهَضَت الجنين. وبالرغم من أنّ الحزن لم يفارقهما لفترة من الزمن نتيجة هذه المأساة التي ألَمّت بهما، إلا أنّهما كانا قد قرّرا أن تنال لوسي كفايتها من الراحة، وأن تستعيد صحّتها وحيويتها، ثمّ يعاودان المحاولة مرّةً أخرى.

كانت هذه نهاية قصّة حزينة، لكنّها شائعة جداً، باستثناء أمر واحدٌ فقط. بعد حوالي ستّة أسابيع، ذهبت لوسي لزيارة طبيبتها النسائية لإجراء بعض الفحوصات العامّة والروتينية، حتى يتمكّن الزوجان من المحاولة ثانيةً. وقبل أن تبدأ الطبيبة بفحصها، سألتها: «كيف تشعرين، هَل تعافَيتِ عاطفياً من مأساتك الصعبة؟». نظرت لوسي نظرة حيرة وقالت: «دكتورة، أعلم أنّ ذلك قد يبدو جنونياً بعض الشيء... أعلَم بأنني تعرّضتُ لتجربة الإجهاض... لكنّني... حسناً... أعتقد بأنني ما زلتُ حامل!». بالتأكيد كانت كذلك. كانت لوسي حامل بتوأم، وقد أجهَضَت أحدهما فقط: وبدلاً من أخذ الضوء الأخضر للحصول على بعض المتعة في سرير الزوجية، كان بيتر ولوسي قد حَصَلا على أخبار مذهلة ورائعة. كانت لوسي حامل في شهرها الثالث.

بعد ذلك بستّة أشهر، وَلَدَت لوسي صبياً جميلاً مُعافى. واليوم، وأثناء كتابتي لهذه السطور، أصبح ابنهم شاباً يافعاً، وعلى وشك التخرّج من المدرسة الثانوية. مشكلته الأساسية الآن تتمثّل في أن يقرّر أياً من الجامعات الأولى عليه أن يرتاد، وقد قدّمَت له بعضها منحاً دراسية. يعرف الأطباء بشكلٍ عام أنّ حوالي عشرة من أصل عشرين بالمئة من النساء اللواتي يَعرفنَ بأنّهُنّ حوامل، قد عانين من الإجهاض. لذلك قد لا نتفاجأ إذا سقط أحد التوائم وبقي الآخر سليماً.

عندما دخلت أجهزة التصوير الحديثة ما فوق الصوتية واختبارات الحمل الحديثة على الساحة، باتَ من السهل اكتشاف الحمل في مراحل أبكَر وبدقّة عالية، وقد وَجَدَ الأطباء أنّ المعدّل الحقيقي للإجهاض هو حوالي 30٪ أو أكثر بالنسبة لحالات الحمل. نساء كثيرات يجهضنَ بدون أن يعرفن حتى أنّهُنّ حوامل. وقد تمكّن علماء الجينات من اكتشاف حوالي أربعين بالمئة على الأقل من حالات الإجهاض كان سببها حالات خلل كروموسومية قابلة للتحديد. في جميع الاحتمالات، نرى أنّ قسماً كبيراً من الـ60٪ المتبقّية سببها مشاكل جينية غير ملحوظة أو مجهولة.

نحن نميل إلى الاعتقاد بأنّ مادّتنا الجينية وَعِرَة بعض الشيء، ونعمل على تمريرها ونقلها إلى أولادنا بطريقة موثوقة. في النهاية، أولادنا يشبهوننا كثيراً، أليس كذلك؟

لكن كما نفهم من قصة الزوجين بيتر ولوسي وإجهاض أحد التوائم، فإنّ الحقائق تقول شيئاً آخر تماماً: التكاثر عملية غير مضمونة وتنطوي على مخاطرة، مع معدّل مُرتفع من الأخطاء. في الحقيقة، تقول دراسات أُجرِيَت على الجينوم البشري أنّ كلّ واحدٍ فينا يحمل على الأقل مئة طفرة في جيناتنا! (هذا العَدَد ليس بالقليل، وما زالت الأبحاث جارية، لكنّ النقطة الأساسية

هنا هي: أنّ هناك الكثير من الطفرات). أغلب هذه الطفرات غير مؤذية، أو أنّها ضارّة بشكلٍ طفيف، وإلا لكانَ الجنس البشري قد انقرّض واندثر منذ زمنٍ بعيدٍ جداً.

إنّ طفرات الجينوم تلعب دوراً ثنائياً متعارضاً في مسيرة التطور: إنّها جيدة وسيئة في الآن معاً. فمن جهة، إنها قد لا تعود بالفائدة أبداً، لذا من الأفضل ولفترة من الزمن أن يظلّ الجينوم مستقرّاً (دون أيّة طفرات). من جهةٍ أخرى، تخلق الطفرات تغييرات وتشكيلات جديدة، وهذه التغييرات الجديدة تمكّن النوع من التكيّف مع المتغيّرات البيئية المحيطة، والمفترسات الجديدة، والأمراض، والعديد من المخاطر والتهديدات الأخرى التي يمكنها القضاء عليها ودفعها نحو حافة الانقراض. لذا، وفي حين أنّ الطفرات «سيئة» بالنسبة للأفراد، إلا أنّها ضرورية جداً من أجل البقاء الطويل الأمد للأنواع.

قد تكون مسألة الطفرات من أكثر المفاهيم إساءةً للفهم في علم التطوّر الداروينيّ، وعرضةً للهجوم على التطوّر من قبل أولئك الذين يزعمون أنّ داروين كان على خطأ. والسبب في ذلك، أنّه حتى وقتٍ متأخّرٍ كان هناك سوء فهم للعمليات البيوكيميائية والفيزيائية والآليات الإحصائية للطفرات. كانت هذه نقطة ضعف رئيسية في علم التطور. كان العلماء يلوحون بأيديهم ويقولون «على مدى مليارات من السنوات، حدثت طفرات «جيدة» تكفي لجعل المستنقع البدائي يتطوّر ليُنتج بشراً. والدليل على ذلك أنّنا موجودون، لذا لابد أنّ يكون ذلك صحيحاً!» كانت تلك حجّة حَلَقية.

لكن لحسن الحظ، لَم يجلس العِلم مكتوف اليدين. فقد شاهد العلماء الطفرات وقاموا بتحديدها، وحَلّ محلّ التلويح باليدين دليلٌ صلب راسخ قدّمه العلِم يدعم فرضية الطفرات، وأنّها فعلاً تسيّر عملية التطور. لقد تمّ

تعزيز نقطة الضعف التي تتخلّل علم التطوّر مع معرفة العلماء أكثر حول الكيمياء الحيوية المعقّدة للمادة الوراثية والتكاثر. بِتنا الآن نفهم جيداً كيف تعمل المادة الوراثية، وكيف تنسخ نفسها، وما هي الأخطاء التي يمكن أن تَحدُثَ أثناء العملية _وبشكلٍ خاص_ كيف تحمي المادة الوراثية نفسها على طريق نظام حماية كامل ومتكامل، القَصّ والتكرار، والأنظمة المَناعية التي تتعرّف على الخلايا المتضرّرة وتقضي عليها.

(عليّ أن أحَذّر القارئ الكريم بأني أتعامَل بحرية وأريَحيّة مع مصطلحات مثل «مادة وراثية DNA»، و«جين»، و«جينوم»، و«طفرات»، وغيرها من المصطلحات العلمية. هناك فوارق كبيرة وهامّة بين الجينات، والجينوم، والـ DNA. ولفهم أفضل وأدَقّ لطريقة عمل التطوّر يلزمنا معالجة أعمَق بكثير ممّا يفسح لنا المجال هنا في هذا الكتاب).

إنّ الميمات، مثل الجينات، عرضةً للتغيّرات والطفرات. يمكنها البقاء والاستمرار بعد عددٍ غير قليل من الرَّوِي والإخبار والتناقل وتبقى مُحتفظة بمفاهيمها الأساسية، ميماتها الأساسية. لنأخذ الأمثلة التالية:

النسخة الأولى: في السماء، كان القدّيس بطرس يقود مجموعة من الوافدين الجدد. يقول لهم «سيُعجبكم الوضع هنا، هذا هو المكان المناسب لكم». ثمّ يأخذهم إلى قاعة ويفتح الباب الأول. داخل القاعة حفلة كبيرة وصاخبة، والجميع يشربون الخمر ويرقصون. يقول بطرس «هؤلاء هم الكاثوليك. يا حبيبي! إنّهم يعرفون جيداً كيف يحتفلون!». ثمّ ينتقل بهم إلى البوابة الثانية ويفتحها، داخلها يوجد جماعة أكثر جدّية، يتجادلون فيما بينهم ويلوّحون بأيديهم، فيقول: «وهنا اليهود، إنّهم يحبّون الجدال». ثمّ يتحرّك أبعد نحو الباب التالي، يفتحه ويكشف عن غرفة مليئة بطاولات أوراق اللعب، ومختلف ألعاب البينغو والبوكر، ويقول: «إنّهم اللوثريون!». لكن عند الباب

التالي يتوقف القديس بطرس مع المجموعة ويقول: «حسناً، الآن عليكم أن تحافظوا على هدوئكم وصمتكم»، يفتح الباب، فيصدر عنه صوت قرقعة، ويقول القديس هامساً: «هنا المعمدانيون، إنّهم يعتقدون أنّهم الوحيدون هنا».

النسخة الثانية: يصل رجلٌ إلى بوّابات السماء. يساله القدّيس بطرس «ما دينك؟»، يجيب الرجل: «أنا مَنهَجي»، ينظر القديس بطرس إلى لائحته، ويقول «اذهب إلى الغرفة 24، لكن حاول أن تبقى صامتاً أثناء مرورك بالغرفة رقم 8»

رجلٌ آخر يصل إلى بوّابات السماء. «ما دينك؟»، يجيب: «مَعمداني». «إذن اذهب إلى الغرفة رقم 18، لكن حافظ على هدوئك أثناء مرورك بالغرفة رقم 8».

رجلٌ ثالثٌ يصل. «ما دينك؟». «يهودي». «اذهب إلى الغرفة رقم 11، لكن حافظ على هدوءك أثناء مرورك بالغرفة رقم 8». فقال الرجل: «أفهم لماذا هناك غرفاً مختلفة لكل دين، لكن ما لا أستطيع فهمه سبب الهدوء أثناء مروري بالغرفة 8». فأجاب القديس بطرس: «حسناً، إنّهم الكاثوليك في الغرفة رقم 8، وهم يعتقدون أنّهم الوحيدون هنا»

أين الميم هنا؟ تختلف تفاصيل النكتة أثناء روايتها هنا، لكنّ جوهرها مازال هو نفسه دوماً: هناك كنيسة ما تعتقد دوماً أنّها الوحيدة على صواب وأنّ لا أحد غيرها يمتلك مفاتيح الجنة، والقديس بطرس يسخَر من أتباعها. الميم «مفهوم»، وليس كلمة بحدّ ذاتها تُستَخدم لحمل المفهوم أو نقله. يمكن التعبير عن الميم بطرق وأشكال مختلفة، ويبقى محافظاً على هويته.

وهذا يعود بنا إلى فارق جوهري كبير بين الجينات والميمات: إنّ أي

مفهوم _الفكرة الجوهرية التي يحملها وينقلها الميم_ يمكن التعبير عنه من خلال طرق وصيغ مختلفة. على سبيل المثال، كاهن كاثوليكي يمكنه أن يُدَرّس التعاليم المسيحية باللغة الإيطالية، والإنكليزية، والألمانية، واليابانية، ولغة هاواي، وبأي لغةٍ أخرى، أمّا صلب المفاهيم الرئيسية وجوهرها، ميم التعاليم المسيحية، سيبقى هو نفسه. بمعنى آخر، علينا أن نتوخّى الحذر أثناء التمييز بين «التغيّرات في الرسالة» (المفهوم). والتغيّرات في «الوسط الناقل» (كلمات معيّنة نستخدمها لنقل المفهوم). والأمر نفسه يصحّ على الجينات أيضاً. في أغلب الحالات يكون الوسط الناقل (سلسلة المادة الوراثية DNA) والرسالة (البروتينات المُرَمّزة فيها) مرتبطان بقوّة، لكن هناك حالات وأمثلة عن سلاسل مختلفة من المادة الوراثية التي تحمل نفس الشيفرة من البروتينات. بأيّة حال، ذلك لا يغيّر نقطتنا الأساسية هنا: الوسيط (الكلمات) والرسالة (المفهوم) مختلفان عن بعضهما بالنسبة للميمات أكثر من الجينات.

كِلا الوسط والرسالة قد يؤثّران على بقاء الميم واستمراره: فالمفهوم نفسه يمكن أن يكون جَذّاباً جداً لدرجة أنّه يمكن التعبير عنه بطرق مختلفة ثمّ ينتشر، في حين أنّ الرسالة بحدّ ذاتها (أو الكلمات) قد لا تكون مهمّة. نحن نرى ذلك في النكت السابقة عن القدّيس بطرس _أمّا إعادة رواية النكتة فَلَم يَكُن بهذه الدرجة من الأهمية كالمفهوم الأساسي.

من جهةٍ أخرى، يمكن لأي وسط مُصَمّم بطريقة احترافية جيّدة أن يجعل ميماً هامشياً وتافهاً واسع الانتشار. إنّ مندوبي المبيعات أو مُرَوّجي الإعلانات يعرفون ذلك جيداً: إنّهم يتلاعبون بالكلمات ويلوون عُنُقَها عن قصد ليَنشروا الميمات السطحية التافهة «اشتروا مُنتَجاتنا!» عن طريق إقحامها ضمن رسائل جَذّابة ومثيرة، كأغنية جميلة، أو إعلانٍ مُسَلٍ أو

مُضحِك، أو صورة مُحَفِّزة جنسياً.

هذا يقودنا إلى الفارق المفصلي والأساسي بين الميمات والجينات. وحتى فترة قريبة نسبياً، كانت الجينات تتطفّر حصرياً عن طريق الطفرات العَشوائية، أمّا الطفرات الصالحة والمفيدة لنوعٍ ما فكانت نادرة، وكان التطوّر يسير بشكلٍ باردٍ جداً وبطيء. بالمقابل، تتطوّر الميمات وتتغيّر في بعض الأحيان بطريقة عشوائية (ضعف ذاكرة الراوي، أو عدم فهم الفكرة بشكلٍ صحيح أو دقيق)، لكنّها تتغيّر بشكلٍ متعمّد، عن طريق أحدٍ ما لديه مصالح وغايات معيّنة. وبسبب ذلك، كان تطوّر الميمات من الناحية الكمية أسرَع بكثير من التطوّر الجيني.

لاحِظ عزيزي القارئ بأنّني قلتُ: «حتى فترة قريبة نسبياً» عندما كنتُ أؤكّد بأنّ جيناتنا لا تتطوّر إلا عن طريق الطفرات العشوائية. إحدى أكثر التطوّرات المُدهشة في تاريخ الحياة على الأرض هو أنّ العالِمَ باتَ الآن قادراً على إدخال تعديلات مقصودة على الجينات، والقيام بذلك بدقّة متناهية. وهناك مثالٌ مبكّرٌ جداً عندما تمكّن العلماء من نقل جينات إنزيم لوسيفيراس المرسال المسؤول عن بريق الذبابات المضيئة إلى حيوانات أخرى كالجرذان، ممّا جَعَلَ تلك الجرذان تضيء أو تَلمَع بخفوت عند تحفيز جينات معيّنة فيها.

إحدى أكثر التحوّلات المُضحكة على الإطلاق كان تطوّر أوّل محطّة مُعَدّلة جينياً. لَقَد طَمأن العلماء الجماهير أنّ اختبارات وتجارب التعديل الجيني قد تساعد على إطعام البشرية عن طريق جعل المحاصيل تُنتِج أكثر، أو تَنمو بمُعَدّلٍ أسرع، أو تتحمّل بيئات وظروف مناخية أقسى، أو تكون أكثر مقاوَمَةً للآفات حتى يتمكّن المزارعون من استخدام التقنيات العضوية. لكن عندما جرى الإعلان عن أوّل محطّة للتعديل الجيني، أصيب أنصار البيئة بالفَزَع: لقد تغيّرت النباتات لتَتَحَمّل أكثر المبيدات فَتكاً وفعاليةً. الغليكوفوسفات،

مبيدٌ فَعّالٌ جداً، كان يُستَخدَم للسيطرة على زراعة الأعشاب المخدّرة، لكنّه يميل للإضرار بالمزروعات أيضاً. لذلك قام العلماء بتطعيم جينات من زهرة البتونيا المقاوِمة لمادّة الغليكوفوسفات في المحاصيل الأخرى، ممّا ساعد المزارع على استخدام مادّة الغليكوفوسفات على محاصيله.

هذا يوضّح لنا كيف أصبحت الجينات أكثر شَبَهاً بالميمات، عُرضَةً للتغيير المتَعَمّد من خلال التصميم المدروس. ويمكن إضافة بعض السمات النافعة أيضاً، وإزالة الجينات الضارّة أو الخبيثة. إنّ خُطى التطوّر، الذي سار على مَدى أكثر من حوالي 3,5 مليار عام بخُطى بطيئة وصبورة، قد تَحَرّر من قيوده خلال جيلٍ واحدٍ فقط. هذا هو رأي الكاتب بأنّ ذلك سيكون أحد أكبر الأحداث وأهمّها في تاريخ الحياة على الأرض. والزمن وحده كفيلٌ بإثبات ذلك.

الصراع مع الرّبّ

«اقتُل إنساناً واحداً وستَغدو مُجرماً... اقتُل ملايين الناس وستَغدو فاتِحاً... اقتُل جميع البشر وستَغدو إلهاً»

[جان روستان]

هناك مثالٌ ممتاز عن الطفرات الميميائية يتمثّل في إعادة تحرير قصّة زيارة يهوه لإبراهيم. في زمن إبراهيم، كان هؤلاء الذين يعبدون يهوه يؤمنون بأنّه كان كياناً إلهياً مصنوعاً من نفس المادّة التي صُنِعنا منها، كيانٌ مصنوعٌ من لَحمٍ ودَم، لكنه يمتلك قوى وقدرات إلهية. كان من المعقول جداً الإيمان بهكذا إله، وأن يجلس على مائدة الطعام مع إبراهيم، ولَم يَكُن مُستَغرَباً أن يقضي إبراهيم بعض الوقت حتى يتعرّف على هذا الضيف بأنّه يَهوَه. لكن بعد ذلك بعدّة آلاف من السنوات، تطوّر ميم يهوه، لقد أصبح يهوه الآن الرّبّ العظيم الذي لا يَحتَمَل ظهوره أي بشري عادي. إذن كيف نفسّر هذا الزائر الغريب لإبراهيم؟ عن طريق عملية التطفّر الميميائي، وهي الوحيدة الكفيلة بتفسير حضور يهوه على طاولة الطعام مع إبراهيم.

طوال جميع مراحل الجنس البشري، لطالما وُضِعَت الكثير من التفسيرات المختلفة لضيف إبراهيم الغريب هذا. لا شَكّ أنّ هناك نسخاً مُغايرة أخرى من قصّة إبراهيم كانت أفضل، أي أنّها تتناسب بشكلٍ أفضل مع فكرة يهوه المتعالي، لذلك كانت هي الأكثر ترجيحاً لتُروى. روايات أخرى لَم تكُن متناغمة وأدّت إلى نوعٍ من «التخبّط الفكري» عند الأشخاص الذين أرادوا تصديق الروايات في الكتاب المقدّس. طبيعياً، إنّ الميمات التي حَلّت هذه المشكلة هي الأكثر جاذبية من غيرها من الميمات.

هذه هي فكرة «البقاء للأصلح» الكلاسيكية، أو فكرة «الانتقاء الطبيعي» التقليدية. في النهاية، التفسير الجديد هو أنّ يهوه لَم يَظهر شخصياً أمام إبراهيم، بل أرسَلَ صورَةً «عن نفسه»، صورة تمثيلية كانت أخَفُّ وَطأةً على جسد إبراهيم الأرضي. لقد فَعَلَت الطفرة وعملية التصفية عَمَلَها على أكمل وَجه، ممّا سمح ليَهوه بأن يكون الرّبّ العظيم من دون استبعاد قصّة زائر إبراهيم.

الاكتظاظ السكاني

«الشيء الأكثر فَظاعَةً على الإطلاق هو أنّ هناك ملايين الناس في البلدان الفقيرة سيتضوّرون جوعاً حتى الموت أمام عيوننا. ونحن سنشاهدهم على شاشات التلفزيون»

[تشارلز بيرس سنو (1905-1980)]

إحدى أكثر الحقائق إثارةً للدهشة حول التطوّر هو أنّ الاكتظاظ السكاني ما هو إلا جزء تكاملي من العملية. فمن دون الاكتظاظ، لَن يكون الانتقاء الطبيعي (بقاء الأصلح أو الأنسب) فعّالاً. لنَقُل على سبيل المثال أنّ مجموعة من الأرانب تعيش في منطقة معيّنة، وأنّ نصف تلك الأرانب يمتلكون فَروا أطول من الآخرين. لسوء الحظ، يتغيّر الطقس، وتحُلّ عقود طويلة من البرد القارس. والآن لنفترض أنّ الأرانب قصيرة الوَبر لديها نسبة واحد بالمئة بأن تموت في هذا الطقس البارد من الأرانب طويلة الوَبر، وبسبب ذلك فمقابل كل مئة أرنب طويل الوبر ينجو، سينجو 99 أرنباً قصير الوبر. قد لا يبدو هذا ملحوظاً، أليس كذلك؟ وحتى بعد مرور عشرة أجيال، سيكون هناك هبوط في أعداد الأرانب قصيرة الوبر مقداره 10 بالمئة. لكنّ ذلك الواحد بالمئة مازال يفعل فعله جيلاً بَعد جيل. وعند الجيل الخمسين (الذي قد لا يتجاوز الخمسين عاماً)، فإنّ أعداد الأرانب قصيرة الوبر ستَنخفض بنسبة أربعون بالمئة، وعند الجيل المئة، لَن يبقى سوى ثُلُثَ الأرانب قصيرة الوبر. وبعد ألف جيل، الذي لا يعادل طَرفَة عَينٍ على المقياس الجيولوجي، فإنّ الأرانب قصيرة الوَبر ستَنقرض عَمَلياً.

الآن تصوّروا أنّنا يمكننا العودة بالزمن إلى الخَلف، وتطبيق نفس التجربة

لكن في أماكن مثالية _أرض الأرانب السعيدة_ حيث الغذاء وفير، ولا وجود للمفترسات، ومساحة واسعة للأرانب لتتكاثر وتزدهر. الأرانب «الأفضل» ستتناسل بطريقة أسرع، ولكنّ الأرانب الأسوأ ستبقى. لَن تكون هناك تَصفية، لا انتقاء طبيعي، بل ستتكاثر وتزدهر على اختلافاتها وتنوّعها. ومع وجود غذاءٍ كافٍ، ومساحات كافية، وبعض الأرانب الضعيفة وغير الصالحة للبقاء، ربما تكون مصابة بعاهات وتشوّهات منذ ولادتها، يمكنها التكاثر والتوالُد، ولَن تَنقرض جيناتها أو تَندَثر.

في أرض الأرانب السعيدة هذه، حتى قرنٌ كاملٌ من الشتاء الطويل والقارس لن يؤدّي إلى انقراض الأرانب قصيرة الوَبر. بل ستزداد أعدادها أكثر من الأرانب طويلة الوَبر، لكنّ ذلك لَن يَعني شيئاً _فجينات الأرانب القصيرة الشعر ستحافظ على بقائها وتكاثرها صانِعَةً نسخاً أكثر من ذاتها. إنّ «بقاء الأصلح» لا يهمّ سوى عندما لا يَنجو بعض الأفراد، والنتيجة الطبيعية لذلك أنّ جميع الأنواع على الأرض تميل إلى الاكتظاظ. فحالة الأرانب التي ذكرناها في الأعلى، وفي ظلّ ظروف مناسبة، يموتُ خمسة منها كلّ عام، قد تُنجِبُ الأم الواحدة 35 أرنباً صغيراً في العام. العناكب تَضَعُ كيساً من البيض يفقّس منه آلاف العناكب الصغيرة. سمك السلمون يسبح بعكس التيار ويضع عدّة آلاف من البيوض. وبما أنّ جميع أنواع الكائنات الحيّة على وجه الأرض تتمتّع بأعداد ثابتة ومستقرة نسبياً على امتداد فترة زمنية طويلة، إلا أنّ معظم هذه السلالات لا تبلغ سِنّ النضوج، بالمتوسّط، فمن بين آلاف العناكب الصغيرة التي تفقس أو آلاف فِراخ سمك السلمون، لَن يَنجو منها سوى بضعة أفراد ويبلغون سِنّ البلوغ ويُنجبون ذرية. إنّ الاكتظاظ السكّاني ضروري جداً من أجل ضمان سير عملية التطوّر على أحسن وجه. في كل جيل، يَلِدُ صغار أكثر بكثير من تلك التي تنجو، وهي ليست متماثلة أو متشابهة. هذه هي المادّة الخام

التي تغذّي مصفاة الانتقاء الطبيعي الرائعة وعديمة الرحمة.

وكما سترى الآن، نفس المبدأ ينطبق على الميمات: إنّ الاكتظاظ مفتاح التطوّر. دعونا نعود إلى طُرفتنا المفضّلة والبسيطة لتوضيح الأمر. أنا لا أملك أدنى فكرة عن عدد النكت التي تدور في جميع أرجاء الولايات المتحدة الآن، لكنّني سأُفاجَأ إذا كانت أكثر من مئة ألف نكتة في وقتٍ واحد. في الحقيقة، سأفاجَأ إذا كان هناك أكثر من عشرة آلاف نكتة «فعّالة ونَشِطَة» في أي وقت. هناك قيدين رئيسيين يعيقان قدرة أي نكتة على التكاثر والتضاعف. الأول، هناك عدّة مليارات شخص في هذا العالَم، ما أن تمتلئ أدمغة هؤلاء بالنكت، لَن يكون هناك مُتّسَعٌ كافٍ لنكت أخرى. بعض النكت سَتُنسى بمجرّد ظهور نكت جديدة.

الثاني، ما لَم تَكُن كوميدياً فَذّاً وموهوباً، فَلَن تقضي سوى جزء صغير جداً من حياتك تروي نكتاً للآخرين. وسأكون مندهشاً إذا كان كل واحدٍ منكم أيّها القرّاء الأعزّاء قد روى أكثر من نكتتين أثناء اليوم الواحد، ومعظمكم لَم يروِ أي نكتة اليوم. إذن النكت لا تتنافس فقط لاحتلال مساحة من دماغك، بل تتنافس أيضاً من أجل «فترة التكاثر» المحدودة جداً. ويلعب الاكتظاظ نفس الدور بالضبط في عملية التحليل الداروينية للنكت (وجميع الميمات)، كما في عملية التطوّر البيولوجية.

هناك أفكارٌ تتولَدُ كل يوم، وتطرأ عليها الكثير من التغيّرات والطفرات، أكثر بكثير ممّا تستطيع البقاء والاستمرار. إنّ عملية التصفية القاسية والطويلة للانتقاء الطبيعي تعمل عملها على الميمات كما على الجينات، عن طريق تصفية الميمات الأقل صلاحيةً وتحييدها أو إزالتها، والإبقاء على الميمات الأصلح، ثمّ نقلها عن طريق إعادة روايتها وإرسالها إلى الأدمغة الأخرى.

الوسط الفكري والفَجَوات

«إلهي، سامحني على مَزحاتي الصغيرة والسخيفة التي قلتها عنك... وسأسامحك بدوري على مَزحاتكَ المريعة والسقيمة معي»

[روبرت فروست (1874-1963)]

ما رأيكم بالنكتة التالية: «لقد أهديتُ أمّي كتاباً عن الإلحاد ليلة الميلاد».

أنا أحبّ هذه النكتة، لكنها قد لا تعجبك _قد لا تكون من محبّي التهكّم والسخرية، أو ربّما تكون من الذين يتّخذون عيد الميلاد على محمَل الجدّ. بكلتا الحالتين، هذه النكت لا تُعجب سوى قلّة قليلة بالمقارنة مع الكثيرين.

في العالَم البيولوجي، كل نوع أو جِنس تتخَلّلهُ فجوة أو مساحة هامشية، وهي عبارة عن مكان في النظام البيئي حيث يستطيع أن يعيش فيه ويزدهر. أشجار الخشب العملاقة الحمراء، تستمدّ نصف مخزونها من الماء عن طريق الضباب، لذلك نراها تنمو وتزدهر في مناطق الضباب الشمالية الغربية للباسيفيك، لكنّها لا تستطيع البقاء في المناطق الحارّة بكاليفورنيا حيث تنجو أشجار النخيل. كما أنّ سمك التاروت يعيش في المياه العَذبة، ويموت في المياه المالحة. البطاريق بدورها تعيش في الأماكن الباردة، وتموت في المناطق الحارّة، والمعتدلة حتى. بعض أنواع البكتيريا بطيئة النموّ تعيش في جَوف الصخر، آلاف الأقدام تحت سطح الأرض.

«فَجوَة النوع» هي عبارة عن مَدىً معيّن من الظروف التي يمكن أن يعيش ضمنها هذا النوع أو ذاك ويزدهر. وهذا يتضمّن الوسط الأساسي للحياة فيه (هواء، ماء، أرض، صخور)، والحرارة، ومصادر الغذاء، ونسبة المُلوحة أو الحموضة، ومخزون المياه، وأيّة عوامل بيئية أخرى تؤثّر على قدرة

النوع على البقاء والاستمرار والتكاثر.

كل فَجوة نوعية لها حدودها. قد تمتدّ حدودها لكافة أرجاء المحيط الهندي كما بالنسبة للحيتان، أو بِركة صغيرة من الماء العَذب. مهما كانت، فإنّ البيئة هي التي تحدّد عدد الأفراد الذين يمكنهم العيش والبقاء فيها. المحيطات مليئة بالحيتان، أمّا البِرَك الصغيرة فمليئة بالبكتيريا، لكن ماذا عن الميمات؟ تأمّل هاتين الطرفتين واعكُس بينهما:

1] «حَبلٌ ثَمِلٌ أشعَثٌ متقَصّف دَخَلَ حانة. تأمّلهُ الساقي مَلياً وسأله: «هاي أنت! نحن لا نقدّم خدمةً للحِبال هنا، هل أنتَ حَبل؟» فأجابه: «كلا، أنا عقدة مَحلولة!»»

2] «دَخَلَ رينيه ديكارت إلى حانة، فسأله الساقي: «ما هو شَرابك المفضّل سيدي؟»، فأجابه رينيه: «أنا لا أفكّر»... وفجأةً [بوووف] اختفى!»

النكتة الأولى أظرَف ووَقعُها أمتَع. في الحقيقة، أعتقد أنّ أغلَبَ قُرّائي قد سمعوا بها من قبل، (ربّما بطريقة مختلفة). لكن لا تندهش إذا لَم يَسبِق لك أن سَمِعتَ بالنكتة الثانية، أو إذا لَم تَفهَمها. إنّها نُكتة عن فيلسوف. كان رينيه ديكارت واحداً من أعظم الفلاسفة والرياضيين، وهو المشهور بعبارته الشهيرة [الكوجيتو الديكارتي]: «أنا أفكّر... إذن أنا موجود»، التي قالَها ليؤكّد وجوده.

النكت والميمات الأخرى تعيش داخل دماغك، كما يعيش السمك في الماء تماماً. إنّ «علم الميمياء» يتضمّن توليفة جَمعية من مختلف الأدمغة في العالَم. وقد صاغ الفيلسوف دوغلاس هوفستاتر مصطلح الوَسَط الفكري *Ideosphere* للتعبير عن هذه التوليفة. الوَسَط الفكري هو الذكاء الجَمعي والفكري لجميع البشر، وهو البيئة التي تعيش فيها الميمات وتتكاثر وتتنافس

وتتطفّر.

يحتوي هذا الوسط الفكري على فجوات كتلك الموجودة في عالَم البيولوجيا. النكتة الأولى التي مَرّت معنا سابقاً (الحَبل الأشعَث) تتمتّع بشعبيةٍ أكبر: جميع الشعوب المتكلّمة باللغة الإنكليزية. لكن لاحظوا أنّها ـــ من المتعذّر تَرجَمَتَها إلى لغات أخرى، لذلك ليس بمقدورها البقاء والنجاة ضمن الوسط الفكري للغة الروسية.

تحتلّ النكتة الثانية _نكتة رينيه ديكارت_ مكاناً أو فَجوَةً أضيَق: إنّها تعيش ضمن وسط الفلاسفة والرياضيين وبعض الأشخاص الذين يعرفون أي شيء عن ديكارت، وما المقصود من عبارته «أنا أفكّر... إذن أنا موجود».

التركيبة الميميائية *memeplext*

«الحقيقة _في السياق الديني_ هي الفكرة التي تمكّنت من النجاة والاستمرار ببساطة»

[أوسكار وايلد (1854–1900)]

تخيّل بأنّني قلتُ لك: «هاي، هل سَمعت؟ هناك فتاةٌ اسمها ماري في مستشفى البلدة، وقد أنجَبَت طفلاً جميلاً البارحة، ويقولون أنّها لَم تُمارس الجنس مع أحد». هذا الخَبَر بحدّ ذاته قد يبدو جميلاً، ولنفترض أيضاً أنّك قد صدّقتني، ثمّ نَقَلتَ الخَبَر لصديقٍ أو صديقين. على الأرجح أنّ هذه القصّة ستنتشر خلال أسبوع أو ما يُعادل ذلك. لكنّها سَتُنسى وتموت بعد ذلك. إنّها ميمٌ كثير بعض الشيء، لكن في عالَم اليوم حيث المَتاجر العملاقة والشركات الكبرى تنشر وبشكلٍ صاخب «حقائق» مستحيلة بشكلٍ يومي، لَن يتطلّب الأمر زَمَناً طويلاً حتى يموت ميم «ماري العذراء» ويَندثر بسرعة في عالم النسيان.

لكنّ النسخة المسيحية من هذا الميم مرتبطة بآلاف مؤلّفَة من الميمات المسيحية الأخرى، منها: ميم :هناك إلهٌ واحد»، وميم «يسوع كان ابن الرّبّ»، وميم «أنتَ مُذنِبٌ بالفطرة»، وميم «لقد جئنا إلى هذا العالَم نتيجةً للخطيئة الأصلية»، وميم «إذا قَبِلتَ يسوع المسيح إلهاً لك، ستحيا إلى الأبد، وإذا أنكَرته، فستُعاقَب في الجحيم»، و»الإنجيل هو كلام الرّبّ المُنزَل»، و»عليك أن تبشّر الأغيار بالديانة المسيحية وتهدي الأقوام الأخرى إليها»، «هناك قساوسة وكَهَنَة يعرفون عن الله أكثر منك»، «المسيح والإنجيل»... وغيرها من الميمات الأخرى.

هذه الميمات المسيحية هي مثال عن التركيبة الميميائية، مجموعة من الميمات القائمة بذاتها والمرتبطة ببعضها، أو المتعايشة مع بعضها البعض بشكلٍ تَبادلي، كلّ واحدٍ منها ما كان لينجو أو يستمرّ لوحده، لكن عند انضمامه مع ميمات أخرى ضمن تركيبة ميميائية معقّدة أصبَحَ ناجياً. تلك التركيبة من المفاهيم الميميائية التي يتمّ تناقلها بثقة ودقّة من دماغٍ إلى آخر. والدّين مثالٌ واضحٌ عن التركيبة الميميائية الغنية والفعّالة.

لاحظ حالة التعايش التبادلي ضمن التركيبة الميميائية المسيحية: الميمات المستقلّة تستفيد وتستمدّ فائدتها من الكُل، كما أنّها تساهم في بقاء واستمرار وفائدة الميمات المنفردة الأخرى ضمن المجموعة. إنّها علاقة تضافرية-تبادلية بين الجميع. تشكّل هذه الميمات مع بعضها البعض تركيبة ميميائية متينة جداً تمكّنت من البقاء لأكثر من ألفيّ عام.

هذا الكتاب هو نفسه تركيبة ميميائية كبيرة: إذ أنّ كل فصل فيه، وكل قسم، يمثّل ميمات جديدة. أي موضوع أو فقرة منه، مثل ميم «الشهادة» على سبيل المثال، مثير للاهتمام، لكن من غير المرَجّح أو حتى من الصعب أن يغيّر رأيك بالدين. لكن إذا نَظَرت إلى ميمات هذا الكتاب مجتمعةً بقراءتك لجميع فصوله، فستتكوّن لديك تركيبة ميميائية متكاملة، وستكون أمتَن وأكثر فعالية (كما يأمَل الكاتب) بكثير من الميمات المنفردة والمستقلّة عن بعضها.

الدين كمجموعة من الميمات

«الجَهل يُوَلّد الثقة والكبرياء أكثر ممّا تولّدهما المعرفة: هؤلاء الذين لا يعرفون سوى القليل، وليس الذين يعرفون الكثير، هم مَن يؤكّدون دوماً بأنّ هذه المشكلة أو تلك لَن تُحَلّ عن طريق العلم»

[تشارلز داروين]

سابقاً درسنا الأنواع الرئيسية الثمانية في الميمات الدينية، مثل التعصّب، الانتقال من الشرك إلى التوحيد، والعَولَمَة. والآن وبعد أن وَضّحنا معنى الميمات وعَرّفناها بوضوح، وقدّمنا درساً سريعا وموجَزاً عن علم التطور، دعونا نحاول التأكّد من امتلاكنا فَهماً صحيحاً لحقيقة أنّ الدين ما هو إلا تركيبة ميميائية ضخمة.

تُمضي أغلب المجتمعات الكثير من الوقت وتكرّس جميع جهودها لنقل معتقداتها الدينية إلى الأجيال التالية. هذا الموضوع يقع على رأس قائمة أولويات الأهالي الذين يريدون تلقيننا أسسَ دياناتنا، إلى جانب القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والعلوم. في الواقع، هناك بعض الآباء (وخصوصاً هؤلاء الذين يأتون من طوائف محافظة ومتشدّدة) يعتبرون أنّ تلقين أولادهم الديني أهمَ بكثير وأولى من جميع الأمور، طبعاً القراءة أمرٌ مهمٌ بالنسبة لهم، لكن ضمن سياق قراءة الكتب المقدّسة أو الترتيل والنصوص الدينية، أمّا الرياضيات واسس التفكير النقدي _وبالأخص العلوم_ جميعها أمور هامشية، وتأتي أسفل القائمة بالنسبة لهؤلاء الأهل. الأولاد الصغار الذين تعلّموا للتوّ التكلّم ببعض الكلمات يُرسَلون إلى مدارس الأحد كل أسبوع لتلقينهم الميمات الدينية. ممثّلو المسارح المسيحية يعيدون تمثيل قصّة

مأساة يسوع مراراً وتكراراً. المسلمون بدورهم يعلّمون أبناءهم إظهار التزامهم بتعاليم الله ونواهيه عن طريق تأديتهم الصلوات الخمسة. بالنسبة لأغلب العائلات، إنّهم يعتقدون أنّهم مُلزَمون بارتياد وزيارة أماكن عباداتهم ومعابدهم أيّام الشابات (أو خلال عُطَلِهم الاسبوعية باختلاف دياناتهم كاليهودية يوم السبت، والمسيحيون يوم الأحد، والمسلمون يوم الجمعة).

إنّها سِمَة التطوّر الثقافي للتركيبة الميميائية: إنّها المعلومات التي يتمّ نقلها وتمريرها _عَن عَمَد، وبثقة، ودقّة منقطعة النظير_ من شخصٍ إلى آخر، من أبٍ إلى ذريته، من جيلٍ إلى الجيل التالي. الدين هو أفضل تركيبة ميميائية واسعة منقسمة ذاتياً على الإطلاق.

خطورة المَجَاز

«إنّ حَماقة الخَلط بين المشكلة والاكتشاف، بين المَجاز والدليل، بين سَيل الحَشو والحقائق العظمى، وبين الذّات والعرّاف، متجذّرَة فينا منذ ولادتنا»

[بول فاليري (1871-1945)]

منذ عدّة سنوات، عندما كنتُ ما زلتُ أعمل مهندسَاً إلكترونياً، كنتُ في أحد الأيام أعمل حتى ساعة متأخّرة من الليل محاولاً إصلاح دارَة كهرُبائية صَمّمتُها وصَنَعتها. كانت جميع الأمور تسير على أحسن ما يرام، حتّى توقّفت الدارة فجأةً عن العَمَل وانطفأت. لَمْ تَكُن تُعطي أي نتيجة أينما وَضَعتُ مقياس الترددات أو مقياس الفولط. لا شيء: لا طاقة، ولا كهرباء. تفقّدتُ دارة التغذية الكهربائية: كانت تعمل بشكلٍ ممتاز. تفحّصتُ مقياس التردّدات... رائع. جهاز مقياس الفولط... ممتاز. ما المشكلة إذن؟... الدارة بقيت معطّلة.

ثمّ أدركتُ، بعد أن أصابني اليأس والقنوط، بأنّي كنتُ أضَعُ أقطاب مقاييسي على المخطّطات، وليس على الدارة نفسها! كنتُ معتاداً على تصوّر الدارات بشكلٍ مجرّدٍ جداً، لغة مخطّطات الدارات الكهربائية الخاصّة بالمهندسين، لدرجة أنّ الاثنتين قد اندمَجَتا داخل عقلي. لا شَكّ أنّ سهري لوقتٍ متأخّرٍ قد ساهم في ذلك. يقول الفيلسوف الرياضي العظيم رينيه ديكارت _الذي ابتكَر مصطلح «علم رسم الخَرائط» *cartography*_ «لا تَخلُط بين الخريطة والمنطقة على الأرض». بمعنى آخر، الخريطة ما هي إلا نموذج عن الواقع، وليست هي الواقع ذاته. أمّا خطئي المتأخّر فكان أنّني خَلَطتُ بين الخريطة نفسها (مخطّط الدّارة) والمنطقة (الدارة).

نفس الشيء يمكن أن يَحدث عندما نناقش علم التطوّر. نحن نستخدم عدّة كلمات بمعناها المجازي، ونقوم ببناء «نموذج عقلي» لعملية الانتقاء الطبيعي يتضمّن عدّة أفعال وصفات وأسماء مأخوذة من حياتنا اليومية. على سبيل المثال، عندما نقول أنّ: «ميم يهوه قد تطفّر...» قد يبدو أنّه حَدَث هناك نوعٌ من نشاطٍ ما، نوع من الدوافع القصدية من الميم. أو قد نقول «كل نوع لديه الرّغبة بالبقاء والاستمرار»، أو «المنافسة حامية بين الميمات». من المهمّ جداً تذكّر أنّ هذه العبارات ما هي إلا مجازات. ولا وجود لمقاصد أو نوايا أو دوافع أو أيّة عواطف في عملية التطوّر: الانتقاء الطبيعي _سواءٌ بالنسبة للمتعضّيات أو للميمات_ ليسَ أكثر من مجرّد عملية اصطفاء وتصفية.

نحن نستخدم مصفاةً لإزالة أوراق الشاي من كأسنا، ويمكننا أن نقول أنّ «المصفاة تسمح للشاي بالمرور عبر الثقوب، لكنّها لا تسمح للأوراق» وهذه إشارة إلى أنّ المصفاة تلعب دوراً رئيسياً وحيوياً في العملية. لكنّنا جميعاً نعلم جيداً أنّ ذلك مجرّد مجاز لا أكثر، وأنّ عملية تصفية الشاي عملية ميكانيكية بَحتة. فعندما نقول «إنّ مصفاة الشاي تسمح للشاي بالمرور»، فهذا يعني شيء آخر مختلف تماماً عمّا نقصده عندما نقول «الشرطي يسمح للمُشاة بالعبور».

داروين نفسه كتب عن هذه الإشكالية في كتابه «أصل الأنواع». أشار داروين إلى أنّه من أجل الإيجاز والاختصار، فإنّنا نستخدم كلمات لها دَلالات أخرى، ويجب أن نكون حذرين عند قراءتنا لهذه المصطلحات وألا نعطيها معانٍ أخرى: «اعترض [البعض] قائلاً أنّ مصطلح «انتقاء/اصطفاء» يشير إلى وجود خيار واعي عند الحيوانات التي تتطوّر وتتغيّر، وقد قيل حتى أنّ مصطلح «الانتقاء الطبيعي»، حيث أنّ النباتات لا تمتلك أي إرادة، لا ينطبق عليها! بالمعنى الحرفي للكلمة، لا شكّ أنّ عبارة «انتقاء طبيعي» خاطئة

ومغلوطة،... فقد قيل بأنّي أتحدّث عن الانتقاء الطبيعي كقوّة ناشطة أو فعّالة من عند الله، لكن مَن ذا الذي يعترض على كاتب يتحدّث عن قوّة الجاذبية بوصفها قوّة تحكُم حركة الأجرام السماوية وسيرها؟. الجميع يعرفون ما معنى هذه التعابير المجازية، وإلى ماذا تشير، وهي ضرورية جداً من أجل الإيضاح والاختصار. لذلك، مرّةً أخرى، من الصعب تفادي شَخصَنَة كلمة «الطبيعة»، لكن ما أعنيه هنا بالطبيعة، مجموع الأعمال الطبيعية ونتاج جميع قوانينها، وأعني بقوانين الطبيعة أنّها مجموعة الأحداث والظواهر التي نرصدها. مع قليل من الألفة والتعوّد ستزول هذه الاعتراضات وتختفي من تلقاء نفسها».

وخلال استمرارنا في مناقشة موضوع الميمات والتطوّر، تذكّروا جيداً أنّ الكلمات التي نستخدمها هي كلمات مجازية، وأنّ «التطوّر» عملية جامدة وحيادية بالكامل.

مثال: هل كان يوسف والد يسوع أم لَم يَكُن؟!

«لو جاء إليّ أحدٌ ما ولَم يَكُن يكره والده ووالدته، زوجته وأولاده، إخوته وأخواته، وحتّى حياته، فلا يمكنه أن يكون أحد أتباعي»

[يسوع المسيح، لوقا14: 26]

النقاش الدائر حول مسألة التبنّي *adoptionism* خلال القرن الثاني قبل الميلاد هي مثال واضح عن الميمات المتنافسة التي تستجيب للضغوط التطوّرية. يقول ميم التبنّي أنّ يسوع قد وُلِدَ إنساناً عادياً وليس قدسياً، ثمّ تبنّاه يهوه كابنٍ له. آمَنَ أتباع مذهب التبنّي أنّ يوسف أو جوزيف كان والد يسوع، ومريم كانت أمّه (ولَم تَكُن عذراء)، ومن خلال تقوى يسوع الظاهري، كان الرّبّ مسروراً جداً واتّخذه ولداً له، ثمّ جعله إلهاً عند موته. الميم المعتاد لمذهب التبنّي هو الميم السائد الآن (أي، الأرثوذكسي)، أنّ يسوع قد وُلِدَ من عذراء وكان إلهاً منذ ولادته، وأنّ يسوع والرّبّ هما جزآن من ثالوث مكوّن من ثلاثة أقانيم تشكّل كلاً موحّداً.

كان كتّاب القرن الثاني أشخاصاً متعلّمين ومثقّفين، مدركين جيداً للجدل الدائر حول هذه المسألة الجوهرية. بعض الأناجيل التي كانوا ينسخونها تضمّنت عبارات وآيات تدعم مذهب التبنّي هذا. عندما أخذ يوسف ومريم يسوع إلى الهيكل، وبارَكَه سمعان «وكان أبوه وأمّه يتعجّبان من هذا الكلام الذي قيل له» [لوقا2: 33] ثمّ غيّر الكتّاب ذلك إلى «يوسف وأمّه...» في العديد من المقاطع في الإنجيل، والدا يسوع «الأصليين» كانا قد تغيّرا إلى «يوسف وأمّه...».

مع انعقاد المجمّع المَسكوني في نيقيا، انتصر الميم المضاد للتبنّي في ذلك

اليوم. وقد عَزّزت التغيّرات القليلة وغير الملحوظة في الإنجيل قضيّته عن طريق تغيير ميم البيئة قليلاً لصالحه. لقد تمّ إحياء وإنعاش ميم التبنّي مرّات عديدة على مَرّ القرون، لكن سرعان ما تمّ إخماده وقمعه من قبل الميم المضادّ للتبنّي الذي كان قد تأسّس حينئذٍ وترسّخ بوصفه المذهب المسيحي الأرثوذكسي الرسمي.

ملخّص: التطوّر والميمات

«قد يكون دورنا على هذا الكوكب ليس عبادة الله، بل ابتكاره»

[آرثر سي كلارك]

كان هذا الفصل بمثابة نظرة سريعة على مبادئ التطوّر، وكيف يمكن «تجريدها» وتطبيقها في مجال الميمات. دعونا نلقي نظرة سريعة أخيرة:

التكاثر والتضاعف هو المبدأ الأساسي في التطوّر. في حين أنّ «الدّافع التكاثري» للحياة البيولوجية يتراوح من الكيمياء الحيوية البسيطة إلى طقوس التزاوج المعقّدة، بغضّ النظر عن ماهية القوّة الدافعة الكامنة وراءها، فإنّها متأصّلة ومرمّزة داخل الجينات. وبنفس الطريقة، تتمتّع الميمات بتنويعة واسعة من المميّزات والسّمات المحفّزة التي تجعلك راغباً بتكرارها وإعادة قصّها، لتحكيها لأحدٍ ما، لكنّ الميم نفسه هو الذي يتضمّن هذه القوّة المحفّزة، الدافع الضروري لتكاثره وتضاعفه.

إنّ الاكتظاظ السكاني، أو الميل لدى جميع الأنواع. للتكاثر لإنجاب ذرية أكبر وأكثر لكي تستطيع النجاة لأكثر من جيل، وتقدّم مادّةً خام أصلية لعملية الانتقاء الطبيعي، العملية التي تستبعد الأقل كَفاءةً وتناسباً، تُبقي فقط على الأكفأ والأصلح. الميمات مثل الحياة البيولوجية، تمتلك نفس هاتين السمتين: هناك الكثير من الأفكار المتولّدة، والأصلح منها فقط هي التي تنجو وتُمرّر إلى الجيل التالي.

وأخيراً، الطفرات هي أساس جميع المتغيّرات ومصدرها، إنّها أصل ومنشأ كل التغيّر والتطوّر في الأنواع. مع أنّ الطفرات موضوعية وعشوائية وضارّة في أغلب الأحيان، إلا أنّ هناك طفرات حميدة ومفيدة قد تحدث من

وقتٍ لآخر، وتمّ تضخيمها ونشرها في النهاية بين أفراد النوع عن طريق الانتقاء الطبيعي. الميمات، على غرار الجينات، هي بدورها عرضَةٌ للطفرات والتغيّرات، لكن إضافةً إلى ذلك أنّه بإمكاننا تعديلها قصدياً وبتعمّد.

لقد لاحظنا أيضاً أنّ الميمات، كالجينات، يمكن حصرها ضمن فجوة إيكولوجية/بيئية، وهي مجموعة ثانوية محدّدة من نظام إيكولوجي كامل يتناسب مع «حاجات» الميمات. بمعنى آخر، كِلا الجينات والميمات عرضة للمبادئ الأساسية للتطوّر. كلاهما يتضمّن معلومات ذاتية الانقسام تميل إلى الاكتظاظ والانفجار، كلاهما عرضةٌ للتغيّر والتطفّر، وكلاهما تتمّ تنقيتها وتصفيتها عن طريق الانتقاء الطبيعي. والنتيجة هي خلق كيانات معقّدة ومتداخلة: الجينوم بالنسبة للDNA، والتركيبة الميميائية بالنسبة للميمات.

ملحق: المَعمَدانيون الجنوبيون

«لَم أبشّر بديني أو أنتقد ديناً آخر، لم أحاول الاهتداء أبداً أو أغيّر معتقدي ولَم أرغب في هداية الآخر لديني أو جعله يغيّر عقيدته. لقد حكمتُ على دين الآخرين من خلال حياتهم، لأنّنا يجب أن نقرأ ديننا من خلال حياتنا وليس من خلال كلامنا فقط. وبنفس هذا المعيار يجب أن يحكم عليّ العالَم»

[توماس جيفرسون]

لقد أتيحت لي الفرصة للانخراط بعمق لعدّة سنوات مع عائلة ارتادت كنيسة المسيح. بالنسبة لهؤلاء الذين ليسوا على دراية بكنائس أمريكا، تعتبر كنيسة المسيح محافظة حتى بالنسبة للمعمدانيين الجنوبيين أنفسهم. وهذا شيء لا بأس به، لأنّ المعمدانيون الجنوبيون يُعتَبرون محافظين للغاية من قبل جميع الكنائس الأخرى تقريباً.

كان رؤساء هذه العائلة، الذين سأسميهم روث وويليام (ليست أسمائهم الحقيقية) من بلدة صغيرة في قلب «حزام الكتاب المقدّس» *Bible Belt* في أمريكا. لقد أحببت كل من روث وويليام، وروث على وجه الخصوص، لأنّها على عكس الكثيرين من أعضاء كنيستها، كانت تحبّ التحدّث عن الدين، وكانت على استعداد للإجابة على أسئلتي.

بعد وقت قصير من لقائي بروث، لم أستطع مقاومة حثّها قليلاً واستنطاقها. سألتها: «روث، هناك شيءٌ لا أفهمه. تقول كنيسة المسيح أنّني ذاهبٌ إلى الجحيم، لأتحمّل العذاب والألم إلى ابد الآبدين. لكنّني يا روث، أنا رجلٌ صالح. أذهب إلى العمل، أنا أربّي ثلاثة أطفال، أنا صادق، وأخدم مجتمعي. باختصار، أفعل كلّ ما تقول كنيسة المسيح أنه ينبغي عليَّ أن أفعله،

باستثناء الانتماء إلى الكنيسة. كيف يمكن أن يدين الله رجلاً طيّباً مثلي بمثل هذه الفظائع، فقط لأنّني لا أقبل تفسيرك الخاص للكتاب المقدّس؟ «

هنا توقّفت روث على الفور وغرقَت في التفكير. على غرار العديد من المعمدانيين الجنوبيين، تعلّمت روث الكثير من الأشياء التي بَدَت خاطئة لها على نحوٍ ما. لكنّ الثقافة المعمدانيّة لديها قوّة تكاد لا تقاوَم للتوفيق، وأولئك الذين يشكّكون في تفسير كنيسة المسيح للكتاب المقدّس يتعرضون للعقاب الفوري والشديد من قبل المجتمع. ومع ذلك... كنت أنا أمامها، شخصٌ يمكنها التحدّث إليه بصدق وأريحية دون خوف.

فكّرت روث في سؤالي لمدّة دقيقة. أخيراً، أخبرتني بصوتٍ هادئ : «حسناً، سَيُحكَم عليك من خلال معتقداتك ، وأنا سأُحاكَم من خلال معتقداتي.»

اعتقدت أن هذا كان رأياً رائعاً من امرأة وُلِدَت وترعرعت في بيئة معمدانية جنوبية ، كانت تذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد طوال حياتها، ولم تدرس أبداً أيّ دين أو فلسفة خارج تعاليم كنيسة المسيح.

لكنّني شعرتُ بالحزن بعد بضع سنوات عندما اكتشفت أن روث وويليام اعتقدا أنّهما ذاهبان إلى الجحيم، على الرغم من عيشهما حياة فاضلة. والسبب؟ لقد رفض أبناؤهم البالغون كنيسة المسيح، لذلك وفقاً لتعاليم الكنيسة المعمدانية الجنوبية، اعتَبَرَ المسيح روث وويليام خطاةً مُذنبين، لا يستحقّان مجد الله، بل العقاب الأبدي في الجحيم. يبدو أنّهما، مثلي، متجهون نحو النيران الأبدية والتعذيب القاسي في الجحيم، لخطيئة تربية أطفالهم ليكونوا منفتحين وفضوليين.

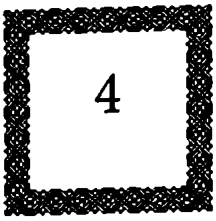

﴿الدين ينمو﴾

عود على بدء: من إبراهيم إلى يسوع

«لا شيء يهزّني في رجال الدين وقطعانهم أكثر من تظاهرهم بأنّهم الوحيدون المتدينون»

[جان غيهينو]

خلال الفترة التي وُلِدَ فيها يسوع، كان الفكر التعدّدي/الشركي ما يزال واسع الانتشار، لكنّ التوحيد من جهة أخرى كان قد ترسّخ بين اليهود. وبالرغم من أنّه كان يُعتبَر وجهة نظر الأقلّية، فقد طوّر «ميم يهوه» جميع السّمات والميّزات النقدية التي جَعَلَت يهوه إلهاً توحيدياً واحداً قابلاً للحياة. دعونا نعمل مراجعة سريعة:

- لم يعد يهوه إلهاً مختصّاً بالحرب، بل بات الآن يستجيب لجميع الصلوات.
- وبدلاً من المطالبة الحثيثة بالولاء له دون غيره من الآلهة، امتلك الآن سلطة مُطلَقة، واصبح الإله الواحد والوحيد. لم يَعُد يغار من

الآلهة الأخرى، بل بكل بساطة أنكَرَ وجودها جميعها. زعم يهوه أنّه الإله الوحيد، وهذا ميمٌ أعقد بكثير من «ميم الغيرة».

- بدأ يَنشط في تدمير باقي الديانات. وقد أخبر اليهود أنّه لم تكن هناك مشكلة في تعذيب غير المؤمنين وقتلهم أو تدمير معابدهم. فالعنف تجاه الدّيانات الأخرى كان فضيلة، وليس ذنباً أو خطيئة.
- خلع عن نفسه ثوبه المحلّي، وبات يُعْبَد من أيّ مكان في العالم.
- لقد تحوّل من إله أرضي مادّي يجلس على طاولة الطعام مع إبراهيم، إلى شخصيّة أثيرية مُطلقة القوّة والقدرة لا يحتمل حضوره وظهوره أي إنسان.
- لم يَعُد موضوعاً للأحكام الأخلاقية من قِبَل البشر الفانين من خلال الفلسفة الطبيعية، والمنطق، بل تحوّل إلى مصدرٍ أساسي لجميع القيم والمبادئ الأخلاقية، ولم تَعُد قراراته وأعماله مشكوكٌ فيها أو مَحَلّ مُسائلة.
- خَلَعَ عن نفسه صورة المتنمّر، وبات الآن الإله المُحِبّ والعَطوف واللطيف.
- لقد أصبح كياناً لا جنسياً، وترفّع عن الحاجات والملذّات الإنسانية.

مع هذه الميمات، استعدّ «ميم يهوه» لاجتياح الحضارة الغربيّة والسيطرة عليها.

ميم «التعصّب» ينمو

«أفضل سلاحٍ سياسي هو سلاح الإرهاب، فالقسوة الوحشية تجلب الاحترام. قد يكرهنا الناس، لكننا لا نطلب منهم حبهم لنا، بل خوفهم منا فقط»

[هنريك هيملر 1900- 1945]

سبق وأن نوّهنا سابقاً أنّ نشأة «ميم التعصّب» والتشدّد وظهوره كان من بين أهمّ الأفكار في تاريخ العالم. فعمليات القتل والتدمير التي برّرها الملك يوشيا باسم يهوه (أخبار الأيام الثاني) كان أمراً سيئاً، لكنّ تعصّب يوشيا لا شيء بالمقارنة مع أعمال التعصّب التي حدثت خلال الألفيتين التاليتين.

المفارقة أنّ حركة «ميم التعصب» التالية في التاريخ كانت ضدّ المسيحيين أنفسهم: لقد أهان التوحيد المسيحي الرومان. تذكّروا أنّ اليهود والمسيحيين كانوا قد رفضوا الاعتراف أو حتى التوجّه بالصلاة إلى مجموعة الآلهة. وقد أتعَبَ ذلك الرومان وأغضبهم، لأنّهم ساووا ذلك بالتقليل من احترام الامبراطورية نفسها. نيرون، الذي كان مجنوناً على الأرجح، استغلّ جَوّ الكراهية العام للمسيحية بلومهم على إحراق روما بالكامل تقريباً عام 64 للميلاد، تلك النار التي قد أسعَرَها هو نفسه. كان نيرون قد حوّل الشبهات عن طريق اتهام المسيحيين، الأمر الذي أشعل الموجة الأولى من عمليات تعذيب المسيحيين وقتلهم واضطهادهم.

بدأ هذا التعسّف والاضطهاد المنظّم للمسيحيين خلال القرن الثاني، واستمرّ لأكثر من 150 عاماً. لقد تمّ إحراق المسيحيين، وصلبهم، وإطعامهم للأسود، لفّهم بجلود طازجة وطريّة لتمزّقهم الكلاب... وكافة الأساليب

المريعة و المرعبة التي خَطَرَت على بال الرومان. وآخر هذه الحملات التعسفية كانت الحرب على التوحيد نفسه، التي شنّها كل من ديوكليتيان[1] وغاليروس[2] عند بداية القرن الرابع.

ولكن بالرغم من هذا الفصل الطويل والمؤلم في تاريخ الامبراطورية الرومانية، فإنّ المضحك أكثر من غيره هو أنّ المزيد من المسيحيين كانوا

---

(1) ديوكلتيانوس كان إمبراطور روماني حكم في الفترة من 20 نوفمبر 284 حتى 1 مايو 305. سُمِّي على اسمه قصر ديوكلتيانوس في كرواتيا، وحمّامات ديوكلتيانوس في روما.
رص ديوكلتيانوس معظم سنوات حكمه على اتباع سياسة تسامح ديني مع المسيحيين، ثم تحولت سياسته ضد المسيحيين في أواخر حكمه، فأصدر دقلديانوس أربعة مراسيم فيما بين سنتي 302-305 م تحث على اضطهاد المسيحيين، وقد شهدت هذه المراسيم حرق الأناجيل والكتب الدينية ومنع المسيحيين من التجمع وهدم الكنائس وقتل أكثر من ألف مسيحي وتحريم القيام بأي صلوات أو طقوس دينية، وقتل كل رجال الدين المسيحي وصادر جميع أملاك الكنيسة وانتهى هذا الاضطهاد على يد الملك قسطنطين وسمي عصر الاضطهاد بعصر الشهداء.
أصدر في مارس عام 303 م منشورين متلاحقين بسجن رؤساء الكنائس وتعذيبهم بقصد إجبارهم على ترك الإيمان.
كان وقع الاضطهاد شديدا على الأقباط في مصر لدرجة أنهم اتخذوا من سنة 284 م وهو تاريخ تولي ديوكلتيانوس الحكم بداية للتقويم القبطي.

(2) غاليريوس فاليريوس ماكسيمينوس هو إمبراطور روما بين عامي 305 و 311 ميلادي. عرف كجندي قوي وخاض حروبا ضد الجرمان والفرس، وكان تابعا مخلصا للإمبراطور ديوكلتيانوس، إلا أنه لم يكن مؤثرا في حكمه للإمبراطورية. عرف عنه اضطهاده للمسيحيين. تم نشر أول مرسوم شهير لاضطهاد المسيحيين بناء على طلب غاليريوس في 24 فبراير 303 ميلادي، وهو أحد أربعة مراسيم ضد المسيحية، حيث كان غاليريوس وثنيا متعصبا، وكانت المسيحية تتقدم بين أفراد الجيش والمواطنين. وتم تطبيق هذه المراسيم في الشرق أكثر من الغرب قبل أن يصبح إمبراطورا، وعرف عنه العنف والدموية. وقد أبقى على هذه السياسة القمعية حتى ظهور مرسوم التسامح العام في 30 أبريل 311 في نيقوميديا، وتم إصداره باسمه واسم ليكينوس وقسطنطين، ويعتقد أنه شعر بالتهديد بسبب تحالف قسطنطين وماكسينتيوس. وكان الكتاب المسيحيون في عصره، وبالأخص لاكتانتيوس، قد أدانوه بشدة بوصفه قائد آخر عملية اضطهاد كبرى ضد المسيحيين.

قد ماتوا على أيدي مسيحيين آخرين بعد أن توقّف الاضطهاد الروماني لهم. في عام 313 بعد الميلاد، ألغى غاليريوس تجريم المسيحية، وبعد ذلك بسنتين أصدر كل من الامبراطور قسطنطين الأول[1] ولوسينيوس[2] مرسوم ميلانو، حيث مَضَيَا لأبعد من ذلك، عندما أعلَنَا أنّ الامبراطورية كانت محايدة بالنسبة لموضوع الدين. لقد بدا هذا الأمر للوهلة الأولى كبداية جيّدة بالنسبة للمسيحيين، لكن تبيّن لاحقاً أنّه كارثة. كان يمكن لأي شخص أن يعبد أيّ أله يرغب، وكان يمكن للمسيحي أن ينتمي أو ينضم لأيّ واحدٍ من المئات من المذاهب المسيحية التي ظهرت وازدهرت منذ وفاة يسوع. كانت الأرثوذكسية المسيحية («الطريق الصحيح» بالمعنى الحرفي) تتجذّر وتترسّخ، وكان المسيحيون مطّلعون جيداً على ميم التعصب من خلال

---

(1) عندما حكم الإمبراطور الروماني قسطنطين العظيم روما بين عامي (306-337م) أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الرومانية المهيمن. ولا زال المؤرخون يجهلون أسباب تفضيل قسطنطين للمسيحية، وقد بحث علماء الدين (اللاهوتيون) والمؤرخين وناقشوا أي أنواع المسيحية اتخذه نهجاً. على الرغم من أن القديسة هيلانة والدة قسطنطين كانت مسيحية إلا أنه لم تتوافق آراء العلماء حول ما إذا دان بدين والدته (المسيحية) في شبابه، أو كان تدريجياً على مدى حياته، وأنه لم يعمَّد حتى قبيل وفاته. كان تحول قسطنطين نقطة تحول للمسيحية مبكرة، والتي يشار إليها أحياناً بـ«انتصار الكنيسة»، سلام الكنيسة أو تحول قسطنطين. فقد أصدر قسطنطين وليسينيوس في سنة 313م مرسوم ميلانو يقضي بإضفاء الشرعية على العبادة والشعائر المسيحية. وأصبح الإمبراطور مناصر كبير للكنيسة ومهد منصب الإمبراطور المسيحي داخل الكنيسة ومفهوم الأرثوذكسية والمسيحية، والمجامع المسكونية والكنيسة الرسمية للإمبراطورية الرومانية بمرسوم أعلن عنه في 380م. لُقب بالقديس والرسول في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، كما جعلته مثلاً وقدوة لكل «ملك مسيحي».

(2) ليسينيوس أو ليسينيوس الأول: حوالي (263-325) كان الإمبراطور الروماني من 308 إلى 324. في معظم عهده كان زميل ومنافس قسطنطين الأول، الذي شارك في تأليف مرسوم ميلانو الذي منح التسامح الرسمي للمسيحيين في الإمبراطورية الرومانية. هُزم أخيرًا في معركة كرايسوبوليس، وتم إعدامه لاحقًا بناء على أوامر من قسطنطين الأول.

تراثهم اليهودي. وبدأوا باضطهاد وقتل بعضهم البعض بأعداد كبيرة، فقط لأنّ كل طرف كان يعتنق النسخة الخاطئة والمغلوطة من المسيحية. خلال القرن الذي تلى عهدة ميلانو، مات مسيحيون أكثر على أيدي مسيحيين ممّا ماتوا على أيدي الرومان طوال قرن ونصف من الاضطهاد والتعذيب.

تابع ميم التعصّب عمله على مَرّ القرون. ارتكب الصليبيون مجازر مريعة وعنيفة «بالوثنيين»، بدءاً من الموجة الأولى من الصليبيين، حيث تمّت إبادة مدينة أورشليم بأكملها عن بكرة أبيها، كل رجل وامرأة وطفل:

«لم يَسبِق لأحدٍ أن رأى أو سمع بمثل هذه المجزرة بالوثنيين، حيث أنّ تلال جثثهم قد تكوّمت كالأهرامات، ولا يعلم أحد أعدادهم سوى الله» [*Gesta Francorum*، أعمال الثقاة، أخبار باللغة اللاتينية عن الحملة الصليبية الأولى، حوالي 1100 للميلاد، المؤلف مجهول] برّر المسيحيون حروبهم المقدّسة هذه ضدّ اليهود والمسلمين من خلال أخذهم لفصل من تاريخ اليهود: لقد زعموا أنّهم كانوا «شعب الله المختار الجديد».

بالإضافة إلى الحروب الطاحنة والأليمة، كانت هناك عمليات قتل وتعذيب وتنكيل باسم يهوه، كما كان هناك أيضاً قمع للمعارف الهرطوقية. وأشهر حالة هي محاكمة العالِم الشهير غاليليو غاليليه[1] واتهّامه والحكم عليه بالإقامة الجبرية داخل منزله من قبل كنيسة الرّوم الأرثوذكس لأنّه ناقض رواية سفر التكوين في الكتاب المقدس، عندما أثبت أنّ الأرض تدور حول الشمس. هذا التّراث، قمع المعرفة والبحث العلمي والتقصّي، ما زال مستمرّاً

(1) غاليليو غاليليه (1564-1642)، هو عالِم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي. وُلد في بيزا في إيطاليا. يوصف في بعض الأحيان بَالعلاّمة. نشر نظرية مركزية الشمس والتي جاء بها كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية. قام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، سالكا من أجل ذلك طريق الملاحظة والتجربة.

بقوّة حتّى يومنا هذا، مع أنصار التكوينية الجُدُد من المحافظين المتشدّدين في أمريكا. الذين يحاولون منع تدريس العلوم (علم التطوّر بشكل خاص) في المدارس العامّة. المعرفة والحقيقة هما أعداء «ميم التعصّب»، وقد طوّر أساليب دينية وسياسية لمحاربتهما والقتال ضدّهما. بعض أكبر الهجرات في تاريخ الإنسانية كانت مبرّرة من خلال فيروس التعصّب. طلاب المدارس في أمريكا يعرفون الملك فيرديناند والملكة إيزابيلا، ملكا إسبانيا الكاثوليكيين، على أنّهما المفكّرين الملهمين اللذان موّلا كريستوف كولومبوس خلال رحلة استكشافه لأمريكا. لكنّ كتب التاريخ المدرسية في أمريكا غالباً ما تحذف _عندما تروي قصّة كولومبوس_ حقيقة أنّ الملكة إيزابيلا والملك فيرديناند في نفس العام _1492_ طَرَدوا جميع اليهود من إسبانيا، وصادروا جميع أملاكهم (لأنّ أغلب اليهود كانوا أثرياء جداً، وكان البلاط مفلساً)، وتركوهم يرحلون دون أن يأخذوا معهم شيئاً. إحدى البلدان القليلة التي عَرَضَت اللجوء على اليهود كانت الإمبراطورية العثمانية. كان اليهود محظوظين _كانوا قد تفادوا محاكم التفتيش الإسبانية، التي اضّطهدت قرابة 150000 مسيحي، حيث تمّ إعدام حوالي 3000 إلى 5000 شخص منهم.

إنّ تاريخ أمريكا المبكّر هو نتيجة ميم التعصّب. كان التطهيريون[1] أقلّيّة مسيحية مضّطهدة في انكلترا، على خلاف مع الكنيسة المسيحية مذهب انكلترا الرسمي، لذلك فرّوا إلى أمريكا لتأسيس بلدتهم التطهيرية الخاصّة بهم. المضحك أنّ التطهيريون وغيرهم من الجماعات الأخرى التي فَرّت، بالرغم من كونهم ضحايا الاضطهاد والتعسّف، لم يكونوا أكثر تسامحاً من

(1) تطهيرية أو البيوريتانية، هي مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطًا من الأفكار الاجتماعية، السياسية، اللاهوتية، والأخلاقية. ظهر هذا المذهب في إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية.

مضطّهديهم السابقين _ما أن وطئت أقدامهم سواحل أمريكا، سرعان ما فرضوا نظرتهم الخاصّة عن المسيحية على الجميع دون استثناء.

تاريخياً، كان المسلمون في أغلب الأحيان ضحايا التعسّف المسيحي أكثر من كونهم اضطهدوا المسيحيين. في الواقع، إنّ حقبة حكم الموريين[1] في إيبيريا قبيل الاحتلال الكاثوليكي، كانت العصر الذهبي للتسامح. كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون مع بعضهم جنباً إلى جنب، يعبدون آلهتهم بحرّيّة، يتعلّمون حضارات وثقافات بعضهم البعض، ويقيمون جدالات ونقاشات فكرية غنيّة وبنّاءة. هذا التفاعل بين الحضارات والثقافات نَتَجَ عنه تقدّم وتطوّر عظيمين في العديد من المجالات، من بينها الرياضيات، الفلسفة، واللاهوت. لكنّ ذلك العصر الذهبي للتّسامح قد وصل إلى نهايته مع ظهور الكنيسة الكاثوليكية وسيطرتها على المنطقة.

وبالرغم من تسامحهم السابق وعيشهم المشترك، التقطت بعض الجماعات الإسلامية ميم التعصّب، كما التقطه أسلاف اليهود والمسيحيين، واعتنقوه وتبنّوه بتطرّف. الأحداث المعاصرة في وقتنا الحالي، كهَدم تمثال بوذا في أفغانستان على يد حكومة طالبان، والحرب الأهلية الطاحنة الدائرة بين الشيعة والسنة في العراق بعد إسقاط الحكومة العراقية السابقة على يد القوات الأمريكية، تبيّن وتُثبِت أنّ المسلمين قابلين بالمطلق لإدخال ميم التعصّب وحشره في لاهوتهم، بالرّغم من تعاليم محمد التي قال فيها أنّ جميع

(1) المور والجمع الموريون مصطلح في اللغات الأوربية، يطلق على كل سكان شمال أفريقيا أي المنطقة المغاربية . كما انه يمكن أن يشير بالتحديد إلى الامازيغ المغربيين وبالتحديد أمازيغ موريطنية، وهي منطقة ضمت بعد ذلك شمال وشرق المغرب الحالي وشمال غرب الجزائر. ويطلق من دون تمييز عرقي أو ديني أو ثقافي واضح. أطلق فيما بعد على المزيج العربي والأمازيغي والأوروبي الذي تشكل في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد فتح الأندلس.

الأديان متساوية ويجب احترامها، حسب ما يقال.

وبإجراء إحصاءٍ كامل لجميع المآسي والحوادث التي تمّ تبريرها من خلال ميم التعصّب فسنحتاج إلى ملء الآلاف والآلاف من الكتب والمجلّدات: قتل، تعذيب، فقر، كانت تُرتكَب بالعشرات والمئات، الهجرة الإجبارية والترحيل، الإبادة الجماعية.... قائمة طويلة من المآسي والآلام.

عندما نتحدّث عن أعمال القتل والتعذيب هذه يصبح من الصعب معرفة ما إذا كان سببها التعصّب الديني، أو أنّها أمرٌ واقع حتمي. على سبيل المثال، ربّما قام كلٌّ من فيرديناند وإيزابيلا بتطبيق محاكم التفتيش حتى من دون موافقة الكنيسة أو دعمها. الدافع الباطني كان الثروة والسّلطة، وربما كانا قد استغّلا الكاثوليكية كغطاء على جرائمهما التي كانا قد ارتكباها. عَهد ستالين المرعب يجعل كلاً من فيرديناند وإيزابيلا يبدوان كهاويين تافهين أمامه، وكان ستالين ملحداً.

بعض أعمال العنف والتعصّب قامت لدعم فيروس الدين، كقمع غاليليو وإخفاء اكتشافه بأنّ الأرض ليست مركز الكون. هذه النظرة الجديدة كانت تشكّل تهديداً للنظرة الأرثوذكسية، بالإضافة إلى سلطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في النهاية، إذا كانوا هم على خطأ بشأن نموذج الكون المركزي، أي شيء آخر يمكن تحدّيه؟ لكن لنتحدّث بشكلٍ عام، من الصعب، بل من المستحيل، التمييز بين السبب والنتيجة. وبسبب ذلك، سأتوخّى الحذر عند استخدام كلمة «مبرّر أو تبرير» عندما أتحدث عن ميم التعصّب. قد تكون كلمة «مُسبّب» هي الكلمة الأصحّ في بعض الحالات، لكن لا يسعنا التأكّد من ذلك على وجه الدقّة.

قبل أن نترك هذا الموضوع وننتقل إلى موضوع آخر، من المهم جداً تذكير

أنفسنا لماذا هذا الميم السلبي يصبح مندمجاً ومرتبطاً مع التركيبة الميمائية لديانات العالَم العظمى. عصر «التسامح الذهبي» في إيبيريا في ظلّ حكم الموريين يرينا الحقيقة القاسية حول ميم اللا-تسامح أو التعصّب. ما هو الدين السائد في إسبانيا والبرتغال اليوم؟ كنيسة الروم الكاثوليك. كانت هي الدين الذي (في القرن الرابع عشر) يمتلك أفضل ميم للتعصّب في العالم. لقد سمح الموريون لليهود والمسيحيين أن يمارسوا عباداتهم وطقوسهم جنباً إلى جنب مع المسلمين. ومع أنّ ذلك قد يبدو طريقة حكيمة وأخلاقية ومستنيرة لإدارة شؤون دولة، إلا أنّها لم تساعد على نشر الإسلام. بالمقابل، عندما سيطر الكاثوليك على البلد، بميمهم المتعصّب والقوي، دحروا الأديان الأخرى وحرّموها. لا يهمّ سواء ما إذا كانت إيزابيلا وفيرديناند مصيبين أو مخطئين، أخلاقيين أو غير أخلاقيين، أو سواء إذا كان ميم التعصّب هو «سبب» أو «مبرّر» أعمالهما.

كل ما يهمّ هو أنّ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قد ربحت المعركة، وخسرها الإسلام واليهودية. التركيبة الميمائية للرّوم الكاثوليك قد أصبحت أكثر تعدّداً وتنوّعاً، أمّا التركيبة الميمائية الإسلامية واليهودية فقد أصبحت أفقر وأقل تنوّعاً. كانت الكاثوليكية لديها الكثير من الدّعاة والمبشّرين، أمّا دُعاة اليهود والمسلمين فقد قتلوا، جنباً إلى جنب مع ميمات اليهودية والإسلام. لم يكن «ميم التسامح» الإسلامي من بين الميمات الناجية لذلك مات واندثر، في حين أنّ ميم التعصّب الكاثوليكي كان قويّاً وانتقل إلى الجيل التالي، لأنّه ناجٍ. هذا هو «بقاء الأصلح أو الأنسب» بأبسط وأفضل شكل. محاكم التفتيش الإسبانية كانت مأساة مريعة وغير أخلاقية، لكن من وجهة نظر تطوّرية، كانت نجاحاً منقطع النظير.

القدّيس بولس يوسّع نطاق ميم العولمة

«الإنجيل ليس كتابي، والمسيحية ليست ديني. لم ألقِ بالاً من قبل للتصريحات الدوغمائية المسيحية المزعجة»

[ابراهام لنكولن 1809- 1865]

بالإضافة إلى تعاليمه ورسائله، أطلق القدّيس بولس واحدة من أهم الأفكار وأكثرها خطورةً لنشر الديانة المسيحية: جادَلَ بولس أنّ تعاليم يسوع، وقدرة يهوه، يجب مشاركتهما مع الأغيار (الغوييم)، وليس بين اليهود فقط. كانت هذه بمثابة نقلة هامة وراديكالية من التّراث اليهودي، كما أنّها أهانت تلاميذ يسوع الآخرين الذين آمنوا أنّ تعاليم يسوع كانت مخصّصة لليهود فقط، شعب الله المختار: «فجاهر بولس وبرنابا وقالا: «كان يجب أن تكلّموا أنتم أولاً بكلمة الله، ولكن إذا دفعتموها عنكم، وحكمتم أنّكم غير مستحقّين للحياة الأبديّة، هو ذا نتوجّه إلى الأمم» [أعمال الرسل 13:46]

في الفصل الذي تحدّثنا فيه عن حداثة الدين وَيَفَاعته، كنّا قد درسنا «ميم العولمة»، الذي حوّل يهوه من إله إقليمي محلّي للحرب، إلى إله عالمي بإمكان اليهود عبادته من أيّ مكانٍ في العالم. كانت هذه طفرة محورية لتركيبة يهوه الميميائية، لأنّها سمحت لليهودية بالانفلات والخروج من موطنها الأصلي إلى العالميّة. لكن مع أنّ يهوه قد أصبح عالمياً من الناحية الجغرافية، إلا أنّه بقي محلياً من الناحية الأخلاقية _اليهود هم وحدهم كانوا «شعبه المختار»، لذلك لم يكن هناك أيّ دافع لإقناع غير اليهود بعبادته والصلاة له. كان يهوه محصوراً في قوقعته، مع جمهور صغير بعض الشيء.

لكنّ القدّيس بولس قد غيّر تلك المعادلة. كان بولس يهودياً ومواطناً

رومانياً تلقّى تعليمه على يدي حاخام يهودي شهير «الرابي غاماليل»، وكان مشاركاً في اضطهاد المسيحيين وتعذيبهم. كان بولس متوجّهاً إلى دمشق، لاستئصال جماعة مسيحية وقمعها على الأرجح، عندما رأى رؤية أصابته بالعمى للمسيح ثم تحوّل إلى المسيحية، وأصبح واحداً من أهمّ الشخصيات المبشّرة بالمسيحية في تاريخها. إضافة إلى تبشيره، كان بولس رجلاً متعلّماً يعرف القراءة والكتابة، وكتب العديد من الرسائل للمسيحيين، مجيباً على أسئلتهم، ومصحّحاً سوء فهمهم، رسائل هي الآن من أهمّ أجزاء العهد الجديد في الإنجيل المسيحي. فَهِموا إذن أنّ أولئك الذين يؤمنون هم أولاد إبراهيم. فقد تَنَبّأ الكتاب المقدّس بأنّ الله سيُبارك الأمم بالإيمان، وأعلَنَ أنّ الكتاب المقدّس سبق وبشّر بإبراهيم «فيكَ تتبارك جميع الأمم، إذاً الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن» [غلاطية3: 8-9]

«ميم العولمة» الذي تم توسيعه سابقاً ليشمل عبادة يهوه من كلّ مكانٍ في العالم، قد تطفّر مرّةً أخرى وتغيّر، وقد سمح هذه المرة له بالانتشار خارج إطار الشعب اليهودي إلى بقيّة الشّعوب. لقد أصبح يهوه (أي النسخة المسيحية منه) تركيبة ميمائية لإله عالمي شمولي، إله يمكن عبادته من أي مكان، ومن قِبل أيّ شخص. إنّ فوائد هذه الطّفرة للتركيبة الميمائية ليهوه (أي النسخة المسيحية لتركيبة يهوه الميمائية) واضحة وبيّنة: النسخة المسيحية من ميم يهوه قد أصبحت معبودة من قِبَل أناسٌ أكثر بكثير من أختها النسخة اليهودية. لقد توسّعت فجوتها الايكولوجية (المكان الذي يمكن فيه للميم أن يبقى ويستمر _وهذا الموضوع سندرسه مطوّلاً في الفصل التالي)، بشكلٍ كبيرٍ وموسّع بفضل هذه الطفرة.

ميم الذنب

«على المرأة أن تتلقّى التعليم بسكوتٍ وبكلّ خضوع. ولستُ أسمح للمرأة أن تعلّم ولا تتسلّط على الرجل، بل عليها أن تلزم السكوت. ذلك لأنّ آدم كُوِّن أولاً، ثمّ حوّاء، ولم يكن آدم هو الذي انخدع بمَكر الشيطان، بل المرأة انخدعت، فوقعت في المعصية»

[تيموثاوس2: 11-14]

أغلب الحضارات والثقافات لديها مواقف أكثر انفتاحاً نحو مَلَذّات الحياة كالجنس مثلاً، والخمر، والراحة أكثر من الحضارة الغربية. على سبيل المثال، بعض الثقافات البولينيزية[1] تسمح للمراهقين بممارسة الجنس بحرّيّة. اللغة المصرية القديمة يبدو أنّها لا تحتوي كلمة «عذراء» ضمن معجم مصطلحاتها، حيث أنّ العذريّة لم يكن مفهوماً ذو أهمية كبرى. الديانات الوثنية ما قبل المسيحية عبر مختلف أرجاء الامبراطورية الرومانية كانت تعتبر الجنس جزءاً أساسياً ومحورياً من عباداتهم، تكريماً للخصوبة والمَلَذّات التي منحتها الآلهة للبشر، كان الجنس الطقوسي أمراً شائعاً، وجزءً أساسياً من الطقس التعبدي.

اعتقد المسيحيون الذين كانوا أوّل من وصلوا في البحار الجنوبية على الأرجح أنّ البولينيزيين كانوا لا أخلاقيين أو عديمي الأخلاق، وأنّهم كانوا مخطئين. كان لدى البولينيزيين قوانين وسُنَن أخلاقية راسخة وقوّية، وكانوا (على سبيل المثال) ملتزمين بشريك واحد بعد الزّواج، أمّا الحرّيّة الجنسية

(1) بولونيزيا هي مجموعة كبيرة لأكثر من 1000 جزيرة مبعثرة في المحيط الهادي المركزي والجنوبي.، ابتكر التعبير «بولنيزيا» من قبل شارل ديبروس في 1756، ليشير إلى كل جزر المحيط الهادي. واقتراح جول دومون دو أورفيل في محاضرة عام 1831 للمجتمع الجغرافي لباريس تقييد استعماله، واقترح استخدام التعبيرين ماكرونيزيا وميلانيسيا أيضاً.

فكانت مقتصرة على المراهقين فقط.

يعتقد اليهود أنّ الجنس والزواج أمران مقدّسان وإلهيّان. كان يُتَوَقّع من الحاخامات أن يتزوجوا، أن تكون لديهم حياةً جنسية سعيدة ومحترمة مع زوجاتهم، أن يصبحوا آباء، ويكونوا قدوةً ومثالاً حَسَناً للرجال الآخرين والنسوة الأخريات في المجتمع. آمَنَ اليهود في زمن يسوع أنّه كان من الخطأ تجنّب الملذّات كالجنس والخمر. لم يكن يريد الله للبشر أن يعانوا، ولم تَكُن طريق البحث عن الله بالمعاناة والآلام. بل إنّ الله قد خلق الملذّات للبشر لكي يستمتعوا. وتجنّب هذه الملذّات أو رفضها كان يعني رفض هديّة منحها الله.

بالنسبة لليهود، كانت فكرة الخطيئة الأصلية والمتجذّرة ممقوتة، وضدّ كلمة يهوه التي قالها في كتاب التثنية: «لا يُقْتَل الآباء عوضاً عن الأبناء، ولا يُقْتَل الأبناء بدلاً من الآباء، فكل إنسان يتحمّل وزر نفسه» [التثنية 24:16]

كوّن الإغريق، وبخاصّة أفلاطون وسقراط وأرسطو، نظرة عقلانية جديدة للأخلاق (ناقشناها باختصار في قسم الأخلاق ذات المصدر الإلهي سابقاً) كان لها أثرٌ كبيرٌ على العالم. ولعلّ عمل أرسطو طاليس الشهير (الأخلاق النيقوماخية[1] 350 ق.م) هو أهمّ وأكمل عمل معروف يتناول الأخلاق الإغريقية، كما أنّه يُعَدّ من روائع الأعمال الرّائدة. وعندما نقرأه لا يسعنا سوى التّساؤل كيف _بعد مرور ألفي عام_ أنّنا لَم نقترب ولو قليلاً بعد من المعايير الأخلاقية المتجذّرة والمتأصّلة التي وضعها الإغريق قبلنا.

(1) الأخلاق النيقوماخية هي احدى تصانيف أرسطو اهداه إلى ابنه نيقوماخس. والكتاب صحيح النسبة إلى أرسطو، وفيه يدرس الأخلاق والفضائل. وقد ترجم الكتاب إلى العربية في القرن الثالث الهجري وشرحه الفلاسفة المسلمون ومنهم ابن رشد المتوفى 595 هـ.

قام المسيحيون، تحت حماية ترتوليان القرطاجي[1]، يتبعهم القدّيس أوغسطين[2]، بتحويل الأخلاق الطبيعية للمجتمعات الوثنية، والمبادئ الأخلاقية العقلانية للإغريق، وقلبوها رأساً على عقب. بدأ «ميم الذنب» بالطّعن بجميع الملذّات والرّغبات الإنسانية الطبيعية ورفضها، والجنس بالتحديد. ابتكر ترتوليان مصطلح «الخطيئة الأصليّة»، وهي الفكرة القائلة أنّنا ورثنا الخطيئة وتجذّرت فينا منذ هبوط آدم وحواء، لكنّ تأثير ترتوليان كان محدوداً بسبب آراءه المتطرّفة. إلا أنّ أوغسطين، الذي أصبح أسقفاً كاثوليكياً، التقط فكرة ترتوليان عن الخطيئة الأصليّة، وحوّلها إلى ميم قوي.

يمكن ملاحظة اشمئزاز أوغسطين وقرفه من جنسانيته في تفسيره لعملية الانتصاب لدى الذكور. فبدلاً من اعتبارها ردّة فعل طبيعية وصحّية يختبرها الرجل عند رؤيته امرأة جميلة ومرغوبة، قرّر أوغسطين أنّ الانتصاب عند الذكور معناه اشمئزاز اللحم ونفوره من كلّ ما يخالف إرادة الرّبّ.

هذا يعني، أنّ الرّوح تنزع بشكل طبيعي إلى العفّة (لماذا؟ لا يخبرنا أوغسطين بأيّ شيء)، لكنّ اللحم يتوق إلى الخطيئة، وذلك أمرٌ مقرف. مضى أوغسطين في قرفه واشمئزازه من الجنس إلى أقصى حَدّ: أي نوع من الجنس خارج نطاق الزّواج كان خطيئة، وحتّى ضمن إطار الزواج كان الجنس أمراً يجب الندم عليه، ولم يكن مسموحاً به إلا لتلقيح المرأة من أجل

(1) ترتوليان، أو ترتليانوس: (حوالي 160 إلى 220 م) مؤلف أمازيغي مسيحي مبكر بونيقي، وأول من كتب كتابات مسيحية باللغة اللاتينية. كان مهماً في الدفاع عن المسيحية ومعاداة الهرطقات. وقد أطلق على ترتوليان «والد المسيحية اللاتينية»، و«مؤسس اللاهوت الغربي».

(2) القديس أوغسطين أو أغسطينوس (354-430) كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي-لاتيني ولد في طاغاست. يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعدّه الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديساً وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني.

إنجاب ذَرّية. هذا أمرٌ مضحكٌ بشكل خاص إذا نظرنا إلى علاقة أوغسطين مع حبيبته لأكثر من عشرة أعوام، فتاة ريفية عادية، حملت بابنه، لكنّه أُجبِرَ على تركها والتخلّي عنها عندما أصرّت والدته على زواجه من امرأة أخرى ذات قيمة ومكانة اجتماعية رفيعة. يقول البعض أنّ ألم أوغسطين العميق المُحَطّم القلب على حبّه الضّائع قد أدّى به لرفض الحبّ والجنس، وكتبرير لخسارته، صاغ أوغسطين فلسفته المعادية للجنس والتي تجذّرت وترسّخت في الديانة المسيحية.

لقد وضع أوغسطين أيضاً الأسس الثيولوجية لشَيطنة المرأة، من خلال القول أنّ خطأ حوّاء كان عظيماً جداً لدرجة أنّه حتى موت الإنسان لن يدفع ثمن ذلك الخطأ. وهذا يقود إلى النتيجة القائلة بأنّ المرأة مسؤولة عن جميع الشّرور في هذا العالم. وأنّنا كنّا بحاجة إلى تضحية يسوع بنفسه ليموت على الصليب ميتة مريعة بعد أن يتعذّب عذاباً وحشياً ليتمّ التكفير عن هذه الخطيئة.

في الواقع جميع الديانات الأخرى ترى أنّ وجهة نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وكافّة الكنائس المشتقّة منها حول الخطيئة الأصلّية وشيطنة النساء أمراً غريباً وشاذّاً في أحسن الأحوال، وقاسياً ومُجحِفاً في أسوأها. وحتّى الكنائس المسيحية الشرقية، التي نجمت عن انقسام الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تعتبر مذهب أخواتها الغربيات في الخطيئة الأصليّة خاطئاً. لكن سبق وأن تمّ إعلان أوغسطين قدّيساً، وتجذّرت فلسفته في قلب الكنيسة الرومانية الأرثوذكسية وجميع الكنائس المسيحية الأوروبية والأمريكية تقريباً.

إنّ موقف الكنيسة الكاثوليكية الرسمي هو أنّ أوغسطين قد جَمَعَ تعاليم أرسطو طاليس عن الأخلاق والقيم ودَمَجَها مع اللاهوت المسيحي، ممّا

أدّى لظهور كنيسة أكثر تمسّكاً بالمبادئ. لكنّ العكس هو الصحيح: عَمَل أوغسطين على إفساد أسُس الأخلاق الأرسطية. فالأخلاق الأرسطية تعمل نحو تحقيق الرّغبات والملذّات الإنسانية الطبيعية، لكنّ الأخلاق المسيحية تُبعِدُ الناس عن اللذّة وتحقيق الرّغبة نحو الزّهد والتقشف والعفّة.

هنا علينا أن نتوخّى الحذر جيّداً بألا نصنّف جميع الكنائس المسيحية ضمن نفس الفئة. هناك اختلافات وفروقات هائلة بين مختلف تفسيرات تعاليم الإنجيل. على سبيل المثال، الرّوم الكاثوليك يستمتعون بشرب الخمر، البيرة والمشروبات الكحولية بشكلٍ معتدل، وذلك إتباعاً لقاعدة الوَسَط الأرسطية، كما أنّ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية قد رعت بعض أهمّ الموسيقيين والمؤلّفين الموسيقيين في تاريخ العالم. بالمقابل هناك كنيسة المسيح، إحدى أكثر الأبرشيات محافظةً في أمريكا، يؤمن أتباعها أنّ شرب الكحول خطيئة، كما أنّهم يحرّمون الآلات الموسيقية، ولا يسمحون إلا بالموسيقى الشفوية (الغناء، الترتيل) في عباداتهم، ويحافظون على تجهّمهم أثناء الرقص. من خلال أخلاق أرسطو، أصبح بإمكان الناس التمتّع بسعادة بملذّاتهم الدنيوية، باعتدال، سواءٌ أكان عن طريق الجنس، أو الشرب، أو الطعام، أو الغناء، أو اللعب، أو الشعور بالفخر في عملهم، أو الأمور الأخرى في حياتهم.

ألقوا نظرة على رأي أرسطو طاليس باللذّة:

«ويُعتَقَد أنّ السعادة تعتمد على اللذّة، فنحن مشغولون في السعي وراء اللذّة، ونخوض الحروب لكي نعيش بسلام» [الأخلاق النيقوماخية، أرسطو، الفصل السابع]

لكنّ أوغسطين قَلَبَ ذلك كلّه، لقد صنّف كل شيء ممتع ولذيذ على أنّه

خطيئة، ونرى أنّ المسيحيين قد أعلنوا أنّ اللذّة (الكسل) واحدة من الخطايا السبع القاتلة. أو لنأخذ الشّهوة على سبيل المثال: يعلّم اللاهوت المسيحي أنّ «العفّة» هي النقيض لـ «الشّهوة»، والعفّة فضيلة. وهذا يقف على طرفي نقيض من أخلاق أرسطو، الذي يرى أنّ كلاً من العفّة والشهوة أمران سيّئان، وأنّ الجنس يجب أن يمارس باعتدال صحّي.

الخطايا السبعة القاتلة في المسيحية هي: الشهوة، الغضب، الرغبة في اللذّة، الحسد، الغرور، والجشع، هذه الخطايا هي مجموع ما نسمّيه بـ«الطبيعة البشرية». نحن نشعر بهذه الأمور. فَعَن طريق تحويل مشاعرنا الطبيعية والغريزية إلى خطايا، حقّق المسيحيون ما عَجِزَ عن تحقيقه اليهود (وغيرهم آخرون) خلال ألفَيّ عام: لقد جعلوا البشر يشعرون بالسوء _والذنب_ إذا عاشوا حَسبَ ما تمليه عليهم طبيعتهم البشرية.

كانت فلسفة أوغسطين في الذنب مُذهلة. فَقَبل أوغسطين، كان يمكن لأيّ إنسانٍ نزيهٍ وأخلاقيّ أن يعيش حياةً «نموذجية»، لا يرتكب جريمة، لا يؤذي أحداً، يتزوّج وينجب أولاداً ويربّيهم تربية نموذجية، وعند نهاية حياته، يكون متصالحاً مع يهوه إلى الأبد. لكنّ أوغسطين وَضَعَ حَدّاً لذلك كلّه، فَكَون الشخص نزيهاً وصالحاً لم يَعُد كافياً. بل عليك أن تعتنق المسيحية وتقبلها في قلبك أو تواجه عواقب وخيمة.

مِيمَيّ الجنة والجحيم

«قد يكون هذا العالم جحيماً بالنسبة لكوكبٍ آخر»

[ألدوس هكسلي 1894-1963]

إنّ مفهوم الحياة الأخرى، أو حياة ما بعد الموت قديمٌ قِدَمَ الإنسان ذاته. ومن إحدى أقدم الأسئلة في العالم: «هل هناك حياة أخرى بعد الموت؟». طَرَحَ الفلاسفة نفس السؤال لكن بطرق أخرى «هل جسدي المادّي مفصولٌ عن الروح؟». بمعنى آخر، هل هناك جزء جوهري فينا، وليكن اسمه «روح»، «نَفس»، أو « الكيان الواعي»، كيان ما يسكن الجسد عندما يكون على قيد الحياة، كيان/جوهر يستمرّ ربّما إلى مصيره النهائي، أو ربما يتجسّد من جديد في جسدٍ مختلف؟

المفاهيم المبكّرة الأولى عن الحياة الأخرى، كالإله الإغريقي هادِس واليهودي شيئول، تميل إلى تصوير حياة أخرى مُظلمة حالكة موحِشَة ومليئة بالوحدة. ليست حياة غير سارة يقام فيها العقاب، بل أشبه ما تكون بمكان إمّا تنام فيه الروح وترقد، أو تهيم على وجهها إلى الأبد. الأديان الإغريقية القديمة، والرومانية واليهودية لم تميّز بين الجنّة/الفردوس، والنار/ الجحيم _فالجميع يذهبون إلى نفس المكان. الإله هادِس الإغريقي ربما هو الأكثر ألفةً لدى الغربيين، إذ أنّ الكلمة ما زالت مستخدمة على نطاق واسع، وتمّت دراستها كجزء من تاريخ العالم. شيئول اليهودي كان يشبه هادِس الإغريقي لدرجة كبيرة، مع أنّه لم يكن يمتلك المجموعة الكاملة من السّمات والخصائص للميثولوجيا الإغريقية.

مع مرور الوقت، قسّم كلٌ من اليهود والرومان والإغريق حياتهم الأخرى

حسب فضائل ساكنيها. فقد تمّ تقسيم عالم هادس إلى أقسام تتضمّن ما كان يسمّى بالحقول الإيليزيه حيث يقضي الأبطال والأفاضل الأبدية، وهناك تارتاروس، حيث يقضي سيزيف _على سبيل المثال_ الأبدية وهو يُدَحرج صخرة إلى رأس تلّة، وما أن يصل إلى القمّة حتى تتدحرج الصخرة إلى الجهة الأخرى وتعود إلى سفح التلّة، ليعاود دحرجة الصخرة من جديد إلى قمّة التل، هكذا إلى الأبد. في زمن يسوع، قام اليهود بزرع بذور مفهومنا المعاصر عن الجنّة والنار. كانوا ما زالوا يعتقدون أنّ الأرواح تذهب إلى المكان نفسه، شيئول، لتنتظر البَعث، لكن إضافة إلى ذلك، كانت الأرواح الطيّبة تنتظر بسعادة، أمّا الأرواح السيئة والشرّيرة فكانت تُعاقَب. حكاية أليعازر وديفيد التي أعيدت روايتها في إنجيل لوقا في العهد الجديد، تستعرض ما آمَنَ به اليهود في ذلك الزمن، أنّ هناك رجلاً طيّباً (أليعازر المتسوّل) يقضي الأبديّة بسعادة بصحبة إبراهيم، والرّجل السيئ (ديفيد الرجل الغنيّ) الذي يقضي الأبدية في عذاب لانهائي.

كان المسيحيون هُم من «رَفَعوا الصوت عالياً» حول الأفكار التي تدور عن الجنّة والنّار. تصف كوميديا دانتي الإلهية، التي كتبها في بدايات القرن الرابع عشر، الجحيم، المَطهَر، والفردوس بتفاصيل دقيقة ومريعة. وكان هذا العمل يُعتبَر تلخيصاً لعملية تطوّر ميم «الجنّة- المطهر- النار» خلال العصور الوسطى وصولاً إلى عصر النّهضة. وضع دانتي أسس هذا الميم على الورق، وخلق نظرة حيوية ومفصّلة ومُصاغَة بشكلٍ جيدٍ لما آمَنَ به أغلب الناس في زمانه. يمكن لأيّ شخصٍ رؤية التأثيرات الإغريقية- اليهودية- الوثنية في النظرة المسيحية للجنّة، والمطهر، والجحيم، لكن في زمن دانتي، كان المسيحيون قد نقّوا هذه النظرة وصَقَلوها لتتجاوز أيّ شيء سبقها.

لقد قام المسيحيون بإضافة العديد من العناصر الهامّة لمفهومهم عن الحياة

الأخرى أضافوها إلى المفاهيم التي وَضَعَها أسلافهم من قبلهم.

أولاً، لقد تمّ تضخيم الثواب والعقاب بشكل دراماتيكي أكثر ممّا كانت في التراثين اليهودي (شيئول) والوثني (هادس). لقد تطوّر ميم الجنّة المسيحي إلى مكان حيث يمكنك التمتّع بالنِعَم المُطلقة وغير المحدودة إلى الأبد، وتطوّر ميم الجحيم المسيحي إلى مكانٍ حيث تعاني فيه من ألمٍ لا يُطاق وعذابٍ أبديٍ لا يمكن تخيّله.

ثانياً، في النسخ المسيحية (وبعض النسخ اليهودية) من ميميّ الجنة/الجحيم، أنت لا تمتلك سوى فرصة واحدة. ليس هناك أي إعادة تجسّد، فإن أخفَقت، ستُعاقَب إلى الأبد، وإن كنتَ صالحاً وطيّباً، فستحظى بالسعادة الأبدية. ساعد هذا الأمر على إغلاق «فتحة» في مفهوم ما بعد الموت/الحياة الأخرى، فتحة كانت تسمح للناس بالقول: «حسناً، إذا أخطأتُ هذه المرّة، أسوأ ما يمكن أن يحدث لي أنّي سأعود مرة أخرى لأحاول من جديد»... ليس هناك فرصٌ أخرى بعد الآن.

ثالثاً، الثواب أو العقاب المسيحي، المتجسّد في ميميّ الجنة/الجحيم قد أصبح خارجاً عن السيطرة مع مسألة الأعمال. فالعذاب الأبدي في الجحيم كان أشبَهَ بقتل طفلٍ صغيرٍ ذنبه الوحيد هو أنّه سَكَبَ بعض الحليب. أمّا ثواب الجنّة ومكافأتها هي بدورها خرجت عن السيطرة أيضاً _حياة صالحة وطيّبة على الأرض تكسبك نعمةً غير محدودة، ليس بالنسبة إلى أعمالك وتصرّفاتكَ على الأرض، ليس طوال حياتك، أو لآلاف بل لملايين السنين، إنّما إلى الأبد.

ميم الهِداية

ثمّ جاءَهم يسوع وقال لهم «دُفِعَ إليّ كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا إذن، وتَلْمِذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يعملوا بكل ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انتهاء الزمان!»

[متّى 28: 18-20]

فيروس الإنفلونزا هو فيروس يعيش في سوائل الأنف والبلعوم، لكنّه فيروسٌ ضعيف وهَشّ. عرِّضهُ لبيئة دافئة وجافّة، وسيموت. وإذا بقي في جسدك مدّة طويلة فإنّه ميت أيضاً _لأنّ جسدك سيطوّر أجساماً مضادّةً خلال أسبوع أو أسبوعين من العدوى. لذلك ففيروس البرد يعاني من مشكلة الآن: يجب أن ينتقل إلى أحدٍ آخر وبسرعة قبل أن يموت. ويحقّق فيروس الانفلونزا غايته عن طريق جعلك تسعل وتعطس. فالسعال والعُطاس تقذف رذاذ اللعاب بعيداً، وبذلك يَمضي فيروس البرد في رحلة لطيفة على مَتن هذه «الكبسولات اللعابية الحاملة للفيروس»، ويسافر إلى الضحية التالية.

نحن نرى هذا النّوع من «التوزّع المُسهَب» في الطبيعة، فهناك العديد والعديد من الأنواع التي تمتلك طرق مُذهِلَة وذكيّة لنشر بذورها وتوزيعها. كلّ صبي عاش بالقرب من شجرة قيقب يعرف أنّها تمتلك «بذوراً على شكل حوّامات» تدور على شكل روافع صغيرة، ويمكن حَملَها ونقلها لمسافات طويلة عن طريق الرياح. وبذلك تَنشر شجرة القيقب، على غرار فيروس البرد، نَفسها على نطاق أوسع. أشجار الفاكهة تغلّف بذورها أولاً بغلاف

سميك يمكّنها من النجاة في أمعاء الحيوان، ثمّ تغلّف البذور بثمرة شهية لذيذة المذاق، تدفع الحيوان لأكلها مع بذورها، ثمّ تطرحها لاحقاً بعيداً عن الشجرة الأم.

الاهتداء الديني شبيهٌ تماماً بآلية عمل العُطاس الذي يسبّبه الفيروس: إنّه ينشر بقوّة التركيبة الميميائية الدينية إلى أماكن لم تكن لتدخلها في حالات أخرى. فَمِن دون الاهتداء أو الهداية، كان كل دين ينتشر عن طريق «الاتصال الحميمي»، المُهتدي المحتَمَل الذي اختار بمَحض حرّيته أن يتعلّم هذا الدّين ويعتنقه. باختصار، إنّه «الانتشار السلبي» مقابل «الانتشار الفعّال». التقبيل سلبي: إذ أنّ الفيروس لا يساهم هنا في انتشاره. العَطس إيجابي: لأنّ العدوى الفيروسية نفسها سبّبت العطسة وأطلقت هذه الآلية لتساعد الفيروس على الانتشار. ميم الاهتداء هو شكل من أشكال الانتشار الايجابي والفَعّال، لأنه «يأخذ كلمة الله إلى الذين لم يسمعوا بها بعد».

عَدَدٌ من الدّيانات لا يحبّذ الاهتداء أو أسلوب الهِداية. فاليهودية تتجنّبه بسبب الهيمنة التاريخية الطويلة للإسلام والمسيحية، والخوف من التعرّض لمزيد من الاضطهاد والتعسّف. تقول الهندوسية أنّ هناك ديناً واحداً في الحقيقة، لكنّه أوحِيَ بشكلٍ مختلف لشعوب مختلفة، لذلك فإنّ فكرة هداية شخص ما وجعله يغيّر من دينٍ إلى آخر غير منطقية على الإطلاق، مع أنّ هناك الكثير من الفِرَق التي تبشّر بالهداية وتُهدي الناس: كهاري كريشنا[1].

هل ينفع أسلوب الهداية ويأتي بأيّ نتيجة؟ دعونا نقارن ما بين انتشار

(1) الجمعية الدولية لوعي كريشنا، المعروفة بالعامية باسم حركة هاري كريشنا أو هاري كريشنز هي منظمة دينية هندوسية لجوديا فاشينافا. وقد أسسها إيه سي بهاكتيفيدانتا سوامي برابهوبادا عام 1965 في مدينة نيويورك.

الديانات التي لا تتبنّى أسلوب الهداية وبين تلك التي تبشّر وتتّبع أسلوب الهداية. كنيسة يسوع المسيح أو كنيسة إل. دي. سي، أو المورمون، جميعها معروفة بالمهمّات التي يتمّ تكليفها لجميع الشبّان وبعض الشابّات في كنيسة «قدّيسو الأيام الأخيرة». النتائج دراماتيكية. فحسب المجمّع الأمريكي للكنائس، كانت هذه الكنيسة تصنّف ثاني أسرع الكنائس نموّاً في أمريكا عام 2006. لكن ما هي الكنيسة التي احتلّت المركز الأول؟ كنيسة تجمّعات الرّبّ *The Assemblies of God*، الكنيسة الأخرى ذات الهدف الصريح والواضح بأن تنتشر وتنمو في كل بلد من بلدان العالم. في عام 2006، العام الذي أعلَنَت فيه الكنائس الاثنا عشر الكبرى في أمريكا عدم نموّها أو حتّى خسارتها لبعض أعضائها، نَمَت كنيسة قدّيسو الأيام الأخيرة بمعدّل ٪1,74، وكنيسة تجمّعات الرّبّ بنسبة ٪1,81، والكنيسة الرئيسية الوحيدة التي نَمَت إضافة إليهما كانت الكنيسة الكاثوليكية بمعدّل ٪0,83. قد يبدو هذا نموّاً لائقاً بالنسبة للكاثوليك، حتّى ندرك أنّ معدل نموّ الشعب الأمريكي أسرع من الكنيسة الكاثوليكية (٪0,89 في نفس العام). لذا نلاحظ أنّ الكاثوليك بدأوا يخسرون موطأ قدمهم أيضاً!! فقط الكنيستان الأكثر عدوانيّةً في أمريكا، الكنيستان اللتان تملكان ميهات اهتداء أقوى وأكثر فعالية، هما اللتان تكسبان المعركة.

إنّ ميم الهداية أو الاهتداء مثيرٌ للاهتمام لأنّه يرينا عملية التطوّر أثناء عملها. الكنائس التي تهدي بفعالية تنمو وتتوسّع، أمّا باقي الكنائس الأخرى فإمّا أنّها تبقى في حالة سكون أو أنّها تنكمش وتتضاءل. فبمعدّل نموّ يبلغ ٪1,81، فإنّ كنيسة تجمّعات الرّبّ ستضاعف عدد أعضائها كل 38 عاماً. بالمقابل، العديد من الكنائس المسيحية الأخرى في أمريكا تتضاءل

بالمعدّل ذاته أو أسرع من ذلك، ممّا يعني أنّ عضويّاتها ستنحدر بمعدل 50٪ كل عدّة عقود. لسنا بحاجة لنكون أنبياء أو رائين لنرى أنّه خلال عدّة مئات من الأعوام، ستسيطر كلٌّ من كنيسة تجمّعات الرّبّ وكنيسة قدّيسو الأيام الأخيرة على الجمهور المؤمن في أمريكا وتهيمن على البلاد.

ميم هرمجدون/ أو الكارثة

«لم يسبق أن أعطى أحداً العلم حقّه. إنّ حقيقة الشرط الإنساني مريعة للغاية»

[كورت فونيغوت، *Timequake*]

هذا الاقتباس من كورت فونيغوت يلخّص واحدة من أكبر المشكلات التي يواجهها العلماء والملحدون عندما يحاولون مناقشة الطريقة التي ينظرون فيها إلى العالم ويفهمونه بها مع هؤلاء الذين يؤمنون بالله.

لقد قدّم الدين فكرةً جميلةً وخلاّبة، أنّ العالَم في ظلّ الرعاية الإلهية هو مكانٌ أفضل. وحسب هذه النظرة، خَلَقَ يهوه عالماً كاملاً ومثالياً، عالماً كان خالياً من الشّرور والآلام. لكنّ قوى الشّرّ، المتمثّلة بالشيطان والثعبان في جنّة عدن (وهو الشيطان نفسه، وذلك اعتماداً على من يروي القصة)، هي التي جَلَبَت الغواية، والخطيئة، والشّرّ إلى العالم الذي خَلَقَه الله. لقد سقط البشر من الجنّة، وظلّوا يعانون منذ تلك اللحظة فصاعداً. لكنّهم لم يفقدوا ويخسروا كل شيء، فالخير أنّ الله ما زال موجوداً، ويمكن للجميع رؤيته ومشاهدته، ويتمّ ترسيخ هذه النظرة وتعزيزها من خلال أعمال الخير، اللطف والافتداء/الخلاص التي يراها المؤمنون كل يوم. في أحد الأيام قريباً، سيجمع يهوه قوّاته ويَدحَرُ قوى الشّرّ من هذا العالم، وستتمّ استعادة كَمال العالم الذي خلقه يهوه.

يا لهُ من ميمٍ جميل جداً وجذّاب...

في 3 تشرين الأول/أكتوبر عام 2003، رجلان يصنّفان في المرتبة التاسعة من أعلى المشاهير أجراً في الولايات المتحدة، رجلان يجنيان معاً حوالي 60

مليون دولار في العام الواحد، توقّفت أعمالهما نهائياً وكان أحدهما على وَشَك الموت. لم يعودا قادرين على العودة إلى عملهما في مجال التسلية والترفيه، والفندق الذي كانا يؤدّيان فيه عروضهما قد خَسِرَ حوالي 45 مليون دولار في العام من بيع البطاقات، وربّما أكثر من ذلك بكثير من عائدات القمار، وحجوزات الفندق، والطعام. جميع التقارير تشير إلى أنّ الخسائر السنوية قد قاربت الـ75 مليون إلى 100 مليون دولار في العام. وفوق كل ذلك، خسر أكثر من 250 عاملاً وظائفهم عندما انتهى العرض، وقُدّرَت خسائرهم النهائية بحوالي 10 إلى 20 مليون دولار لهم ولعائلاتهم.

كان ذلك عرض «سيغفريد وروي الرائعين: أسياد المستحيل»، ونمورهما البيضاء الشهيرة بفندق ميراج في لاس فيغاس. أمّا الحَدَث المؤسف الذي سبّب هذه الكارثة المالية كان أحد النمور التي تصرّفت كما تتصرّف النمور بطبيعتها: لقد عضّ روي هورن في رقبته وأوشك على قتله تقريباً.

مع أنّ الحقائق ليست واضحة بشكلٍ كامل، إلا أنّ أغلب شهادات شهود العيان متوافقة: لم يَكُن النّمر «مونتيكور» يحاول قتل روي أو إلحاق الأذى به، بل العكس تماماً. كانت هناك امرأة جالسة في الصف الأول، وكانت تسريحة شعرها تشتّت انتباه مونتيكور، وحاولت المرأة الغبيّة الوصول إلى الحيوان للمسه. قفز روي ليَحول بينه وبين المرأة، فأخذ مونتيكور يد روي بين أسنانه، أمر روي مونتيكور قائلاً «افلتها»، فانصاع النمر. ثمّ، حصلت الفاجعة: تراجع روي إلى الخلف، فداس على كفّ مونتيكور الكبيرة، وسقط أرضاً. في هذه اللحظة بالذات، جفل مونتيكور وخاف، وأمسك بروي من رقبته كما تمسك النمور صغارها، وسحبه خارج المسرح إلى بَرّ الأمان.

يقول خبراء النمور (ومن بينهم روي و سيغفريد) أنّ مونتيكور عندما هاجم روي، فإنّه لَم يكن يَهزّ جسده، في محاولة لكسر عنقه. بل إنّه سحب

روي بحَذَر خارج الحلبة، حيث قام العاملون والطاقم بالفصل بينهما. لَم يكن مونتيكور يَفهَم أنّ البشر لا يملكون نفس الجلد السميك والقاسي على رقابهم مثل الذي تملكه صغار النمور، الأمر الذي يسمح لأبويها بالتقاطها من جلدة رقبتها ونقلها من مكان إلى آخر.

تسبّب بادرَة مونتيكور «اللطيفة» لصديقه، روي هورن، بوضعه في العناية المركّزة لأسابيع عديدة. تهشّمت بعض جمجمة روي واضطرّوا لإزالة أجزاء منها لتخفيف ضغط الورم عن دماغه. تم نقله إلى مركز UCLA الطبّي لمعالجة طويلة الأمد. استعاد روي هورن أخيراً بعض عافيته، لكنّه لم يَعُد قادراً على المشي إلا بمساعدة أحدهم.

مع أنّ هذا الكتاب لا يدور حول قصّة مرعبة أو مريعة كهذه، إلا أنّنا بحاجة لاستكشاف هذا الموضوع أكثر قليلاً لنفهمه بوضوح أكبر. حاولوا تصوّر مدى فظاعة وبشاعة جراح روي وإصاباته. تصوّروا أنّي قد طلبتُ منكم أن تأخذوا ثلاث أو أربعة سكاكين من المطبخ، وغرسها في عنقكم ورأسكم، حتى طعنة واحدة من إحدى هذه السكاكين ستسبّب لكم ألماً لا يُحتَمَل. ثمّ وفي نفس الوقت، أريد منكم أن تضعوا رأسكم بين فكّي مِلزَمَة، وضغطها على رأسكم حتى تتكسّر جمجمتكم في عدّة مواقع. هذا ليست مجرّد نكتة، بل هذا ما حدث بالضبط لروي هورن. وتذكّروا، أنّ النمر لم يكن يحاول أذيته حتّى.

أخيراً، تأمّلوا الأمر التالي: بهذه الطريقة يكسب النمر عيشه كلّ يوم. هذا النوع من الألم والمعاناة ضروريٌ جداً، ليس لمرّة واحدة، وليس لعدّة مرات فقط، بل آلاف المرات في حياة النمور. وليس النمور فقط، بل كل الحيوانات اللاحمة التي تكسب عيشها بهذه الطريقة: الأسود، النمور، الشيتا، الذئاب، القيّوط، الأفاعي المجلجلة، الدببة القطبية، الحيتان القاتلة، سمك الإنقليس،

والبيرانا، وتستمرّ القائمة إلى ما لا نهاية. كمّيّة المعاناة التي تسبّبها عادات الطعام اليوميّة لهذه الحيوانات الآكلة للحم والطفيليات تتخطّى التصوّر والفهم الإنسانيين.

أحد أهمّ المفاهيم التي تَصعُبُ على أفهام العديد من الناس هي «اللامبالاة الكلّيّة» للطبيعة تجاه المعاناة. بالنسبة للأيل الذي يعاني بين أنياب النمر، لا شيء أكثر أهمّية بالنسبة له من تفادي هذا الألم. لكنّ التطور لا يملك أيّ مشاعر، إنّه عملية عمياء، الشيء الوحيد المهم هو البقاء. إذا كانت وجبة طعام النمر تتألّم وتعاني، فليكن الأمر كذلك. في الواقع عندما تعلّم أنثى النمر صغيرها الصيد، فإنّها تتقصّد في بعض الأحيان أن تسبّب ألماً أكبر لفريستها، عن طريق جرحها وإصابتها بجروح عديدة بدلاً من قتلها، حتى يتعلّم صغيرها كيفية القيام بالعمل على أحسن وجه. إنّ بقاءها وبقاء صغيرها يصيغ سلوكها وتصرفاتها، أمّا ألم فريستها فهو أمرٌ لا يعنيها في شيء.

نحن البشر لدينا ميلٌ كبيرٌ وسيء، في الحقيقة، للأنسَنَة... لإضفاء المشاعر الإنسانية والدوافع والمقاصد البشرية على الحيوانات الأخرى، والأشياء، والأحداث. في هذه الحالة نحن نُحِبّ أن نتصوّر بأنّ «الطبيعة الأم» (التي تعرف أيضاً بـ«التطوّر») تمتلك دوافع وأحاسيس ومقاصد خبيثة، بل وحتى شرّيرة. أو قد يعتقد البعض بدلاً من ذلك أنّ النمر نفسه لديه نوايا أو مقاصد سيّئة. لكنّ هذه النظرة مركزيّة جدّاً وأنانية إلى أقصى حَد، «إذا كان النّمر يؤذيني، فإنّه شرّيرٌ وسيء». لكنّ هذا الكلام أبعد ما يكون عن الحقيقة. الواقع أنّه ليس هناك أي دافع أو غاية يقودان التطوّر، فهو عملية عمياء، إنّها تجري فحسب. النمر ليس سيئاً أو شرّيراً، إنّه يتّبع الأنماط السلوكية الطبيعية التي منحه إياها التطور لبقاءه واستمراره. النمر لا يَملُكُ أدنى فكرة عن الألم أو المعاناة التي قد يسبّبها. فالتطوّر هو الذي شَحَذَ أنيابه ومخالبه، ليس

ليسبّب بهما الألم، بل ليحصل على الغذاء اللازم لبقاءه. أمّا الألم والمعاناة فهُما أعراض جانبية لا علاقة لها «بوجهة نظر» النمر التطوّرية.

هذا لا يعني القول بأنّ الألم والمعاناة لا علاقة لهما بالتطوّر، بل هما كذلك. فالألم هو من يساعد الغزال ويدفعه للجري بأقصى سرعته هَرَباً من النمر، الألم هو ما يمنعنا من وضع أيدينا في النار، أو الدّوس على أجسام حادة. الألَم هو سِمَة جوهرية وأساسية في التطوّر، مثل السعادة، والغضب، والغيرة، وجميع مشاعرنا وعواطفنا. لكنّ التطوّر لا يُلقي بالاً إلى حالتك العقلية، بل بقاءك ونجاتك فقط. إذا كان بقاءك يعتمد على معاناة بعض المخلوقات الأخرى ومعاناتها وموتها، فليكن ذلك. وإذا كان بقاء واستمرار بعض المخلوقات الأخرى يعتمد على ألمك ومعاناتك وموتك الأليم. فليكن ذلك... هذا سيء بالنسبة لك. التطوّر ليس عملية جيّدة أو سيّئة، خيّرة أو شرّيرة، بل إنّه مُحايد يفضّل تلك الأنواع التي تنجو.

هذا هو الواقع الذي يتحدّث عنه كورت فونيغوت في الاقتباس الذي بدأنا فيه هذا الفصل، عندما قال: « لم يسبق أن أعطى أحداً العلم حقّه « فحقيقة التطوّر، والمعاناة، واللامبالاة المطلقة لعملية الانتقاء الطبيعي بشأن سعادتنا، هي حقيقة غير سارّة على الاطلاق. الطبيعة مليئة بالألم والمعاناة، والعالَم ليس مكاناً جميلاً كما نتوقّع. وحسب العلماء، ليس هناك نهاية سحريّة ومضبوطة من أجلنا: فالحياة عبارة عن صِراع، ثمّ نموت.

قارِن بين هذه النظرة ووجهة نظر الأديان الإبراهيمية الثلاثة في العالم. الميمات التي تكوّن اليهودية والإسلام والمسيحية تتضمّن في نواتها إلهاً مُحِبّاً عطوفاً ومثالي اسمه «يهوه»، إله خيّر بطبيعته، وجميع معاناتنا وآلامنا مؤقّتة وستنتهي عند مرحلة معيّنة. تخبرنا هذه الأديان أنّ هذا الصّراع سينتهي ويتوقّف في أحد الأيام، وسيندحر الشّرّ من هذا العالم، ثم سنعيش في وئامٍ

وسلام.

إنّ المقارنة بين هاتين التركيبتين الميميائيتين لا يمكن أن تكون أكثر وضوحاً ممّا يلي: اللامبالاة المُطلَقَة لعملية التطوّر مقابل حُبّ يهوه المُطلَق وعطفه. إذن هل لنا أنّ نتعجّب بعد الآن ونستغرب لماذا تجد ميمات العلماء العلمية صعوبة بالغة في الانتشار بين الناس؟. هذا أحد أبسط الأمثلة عن بقاء الأصلح أو الأنسب، حيث يبيّن أنّ هناك فرقاً كبيراً بين صلاحية الميم وقدرته على البقاء والاستمرار، وبين صحّته ودقّته وما يتضمّنه من حقائق. هذه الحقيقة الواقعية حول الطبيعة غير سارّة لدرجة أنّها لوحدها قادت الكثير من الناس للابتعاد عن الإلحاد وتركه، والارتماء في حضن الطمأنينة والأمان الدينيين.

تعاضد ميمات: الذّنب، الجنّة، النّار، والتوحيد

«لقد تصوّر البشر بشكلٍ محموم جنّة ليجدوها عديمة الطعم واللون، وجحيماً ليجدوه سخيفاً وعبثياً»

[جورج سانتيانا 1863- 1952]

لتلخيص هذا الفصل، سنلقي نظرة سريعة على مفهوم التعاون _مجموعة من الميمات التي تعمل مع بعضها بطريقة تعاضديّة. إحدى أهمّ السّمات التّي تتكرّر كثيراً خلال هذا الكتاب هو موضوع التركيبة الميميائية، مجموعة من الميمات المتعاضدة والمتعاونة التي تشكّل مع بعضها أكثر من مجموع أجزائها. الميمات الثلاثة التي درسناها للتّوّ_التعصّب، الذنب، والجنة/النار، بالإضافة إلى ميم التّوحيد من جزء سابق_ تشكّل مثالاً رائعاً ومثالياً عن ذلك.

دعونا نبدأ مع سِمَة أو مِيزة غريبة في التّوحيد. قد يَعبُدُ المُشرك إلهاً واحداً أكثر من عدّة آلهة، لكنّها مسألة عملية/منفعية مَحضة _أنتَ تصلّي لإلهٍ معيّن من أجل الحُبّ الرومانسي، وتصلّي لإله الحرب من أجل الانتصار. إنّ فكرة أنّك قد تختار واحداً من الآلهة وتقول: «هذا هو الإله الحقيقي الوحيد، وجميع الآلهة الأخرى مزيّفة»، ليست منطقية بالنسبة للمُشرك أو التعدّدي. لكنّ الموحّد قد قام بهذا الاختيار بالفعل: لقد اختار إلهاً معيّناً من بين مجموعة من الآلهة وفضّله عليها، وأعلنه إلهاً واحداً وألغى جميع الآلهة الأخرى. إذا عُدنا في الزمن إلى الوراء لحوالي 3000 عام ونَسَينا كلّ شيء تعلّمناه في هذا العصر الحديث، لكنتَ ستنظر إلى معتقدات الموحّد بأنّها غطرسة وتكبّر وغرور.

بالنّظر إلى قرار الموحّد بأن يعبد إلهاً واحداً دون غيره من الآلهة الأخرى، فإنّه لا يُعَدّ خطوة كبرى لاختيار كنيسة بعينها دون غيرها من الكنائس

الأخرى، والإعلان أنّ يهوه ليس الإله الوحيد والحقيقي فقط، بل تفسيرنا الخاصّ للكتاب المقدّس هو التفسير الوحيد والصحيح. وهذا يقودنا إلى القفزة الأخيرة: لَن تَنالَ الخَلاص عن طريق يسوع من خطاياك وذنوبك إلّا عن طريق كنيستنا. نحن لدينا التّعاليم والقواعد الضرورية، نحن نمتلك التفسير الحقيقي والحصري للكتاب المقدّس، وأيّ انحراف عن هذه التعاليم والقواعد سيودي بك إلى الهَلاك والعذاب الأبدي في الجحيم. (مرّةً أخرى أذكّر القرّاء بأنّه ليست جميع الكنائس المسيحية تطلق مثل هذه المزاعم، لكنّ بعضها يفعل ذلك).

هذا قاسٍ، أليس كذلك؟ يمكنك أن تسمّي ذلك بـ «ميم المسلّمات» _لنُسَمِّه ميم الكنيسة الواحدة_ ميم «كنيستنا هي الكنيسة الواحدة والصحيحة». والآن دعونا نرى كيف يتفاعل هذا الميم _ميم الكنيسة الواحدة_ مع الميمات الأخرى.

أعطى ميم التعصّب الدين دَفعةً قويّةً بين العموم، لأنّه مَنَحَ الناس أسباباً قويّة للإيمان (أو ادعاء الإيمان) بيهوه. كان ميم التعصّب هو السلاح الفعّال الأوّل الذي استخدمته الأديان ضدّ بعضها البعض، حيث سمح لها بتدمير معابد مناوئيها وقتل جميع المنتسبين إلى الأديان الأخرى. كان هذا بمثابة تقدّم كبير للتركيبة الميميائية الفيروسية للدّين، لكن على غرار جميع القوى القسرية والعوامل الإجبارية، فإنّها قد قادت إلى أتباع ممانعين مُجْبَرين وغاضبين.

ثمّ جاء ميم الذنب، الذي سَمّمَ جميع المشاعر والعواطف التي يملكها كلّ إنسانٍ سليم وعاقل: الجنس، الجوع، الرغبة، الفخر، التعب _كل شيء تقريباً كان جيّداً تحوّل إلى سيءٍ الآن.

سابقاً (في ظلّ الأخلاق الإغريقية على سبيل المثال) كان عليك أن تفعل

شيءٌ ما سيء حتى تشعر بالذنب، لكن مع الخطايا الجديدة التي ابتكرتها المسيحية، فأنتَ مذنبٌ فقط لأنّك إنسانٌ وكائنٌ بشري هكذا وبكل بساطة. وفوق كل ذلك، إذا تدبّرتَ أمركَ بطريقة ما وتجنّبت جميع الحاجات الإنسانية وعشت حياةً مثالية تماماً، فستظلّ مذنباً، لأنّك ورثت خطيئة حوّاء الأولى!! أنتَ في مشكلة مهما كان الأمر.

ثمّ هناك فكرة أو ميم، «يسوع وحده هو القادر على تخليصِكَ من خطاياك». لا يَهُمّ مدى أسفكَ ونَدَمِكَ، لا يهمّ ماذا تفعل وكم تبذل من جُهدٍ للتوبة وتصحيح أيّة أخطاء أو ذنوب قد ارتكبتها، ولا يهمّ كم لديك في ميزان الله من حسنات وأعمال صالحة وخيّرة مقابل أعمالك السيئة وخطاياك. فليس هناك سوى سبيلٌ واحدٌ يمكنك نيل الخلاص والنجاة من خلاله، وهو عن طريق قبول المعتقد المسيحي الدوغمائي.

وآخر عضوٍ في هذا الفريق الميميائي المركّب هما ميمَيّ الجنة/النار وهرمجدون. فإذا لم تقبل بالدوغما المسيحية، فإنّ النتائج والعواقب ستكون وخيمة. اللعنة الأبديّة والعذاب الأبدي، واعتماداً على كلّ فرعٍ أو مذهب تنتمي إليه من المسيحية، فالنهاية الوخيمة تتراوح ما بين الخيبة الأبديّة إلى العذاب الأبدي.

عودٌ على بدء، وبالنظر إلى ميم الكنيسة الواحدة، فإنّنا نكتشف ما يلي:

- أنتَ مذنبٌ مهما كلّفَ الأمر وستظلّ مذنباً.
- الكنيسة المسيحية هي الوحيدة القادرة على حلّ مشكلتك.
- إذا لَم تَعتَنِق الديانة المسيحية، فالعقوبة قاسية إلى حَدٍ لا يمكن تصوّره.

هذه الميمات، التي تطفّرت وتغيّرت ونَضُجَت لتصبح في كامل قوّتها

خلال حقبة العصور الوسطى، قوّية جداً عندما تجتمع مع بعضها. والتعاون بينها يجعل التركيبة الميميائية أكثر قوّةً وفعاليةً من هذه الميمات كلٌ على حِدَة.

ملحق: بيلي العنصري

«أَيُّهَا الْعَبِيدُ، أَطِيعُوا سَادَتَكُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، فِي بَسَاطَةِ قُلُوبِكُمْ كَمَا لِلْمَسِيحِ، لاَ بِخِدْمَةِ الْعَيْنِ كَمَنْ يُرْضِي النَّاسَ، بَلْ كَعَبِيدِ الْمَسِيحِ، عَامِلِينَ مَشِيئَةَ اللهِ مِنَ الْقَلْبِ»

[رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس 6: 5-6]

في البلدة الصغيرة التي نشأت فيها، كان في مدرستي الابتدائية طالب أسود واحد، وعدد قليل من الأطفال من أصل إسباني وياباني وصيني. معظم «التنوع العرقي» في بلدتنا كان سببه مجتمع الصيد الإيطالي. كان والدايّ ديمقراطيين ليبراليين، وعملا بجدٍ لغرس روح التسامح والاحترام في نفوس أطفالهما لجميع الأعراق والأديان والاتجاهات. كطالب جامعي خلال فترة السبعينيات الليبرالية بعد حرب فييتنام، أصبحتُ أكثر التزاماً بالقضية الليبرالية، واعتقدت أنّ العرق ببساطة لن يكون مشكلة بالنسبة لي.

بعد عقد من الزمن أو نحو ذلك، أخذتني فرصة عمل للعيش والعمل في نيو أورلينز لمدّة ثلاث سنوات. وكطفل وُلِدَ في كاليفورنيا، كانت التجربة بمجملها صدمة كبيرة. كانت نيو أورلينز مذهلة ومخيفة في نفس الوقت، فهي من نواحٍ كثيرة «عالم ثالث» أكثر من معظم دول العالم الثالث. يوجد في الكازينوهات الرائعة والمتألّقة عمّال نظافة لم ينهوا الصّفّ الأول من تعليمهم حتى. مسيرات ماردي غراس الصاخبة كانت تعبر في الماضي عبر مشاريع الرعاية الاجتماعية. يلعب بعض أفضل الموسيقيين في العالم للحصول على نصائح في شارع بوربون، بجانب سكارى مُغمى عليهم على الأرصفة. في إحدى الليالي، عالج صديق مقرب لي كان يعمل طبيباً في غرفة الطوارئ أكثر من ثلاثين جرحاً غير

مرتبط بطلقات نارية. كانت بعض المدارس العامّة ممتازة، لكنّ مدرسة واحدة على الأقل قمتُ بزيارتها شاهدت فيها نوافذ مكسورة، وأعشاب تصل حتى الركبة، وأحد الطلاب يصرخ، «مرجباً، أيّها الأبيض [*honky*]، ماذا تفعل هنا؟» من أجل تسلية أصدقاءه. وكانت هذه مدرسة ابتدائية.

عندما اشتريت منزلي الجديد في نيو أورلينز، كنتُ مسروراً للغاية، وربّما فخوراً، لأنّ شارع الطبقة الوسطى الذي أسكن فيه يضمّ خمس عائلات من السود وخمس عائلات من البيض. كان كلٌ منهم ودوداً للغاية، وعملت ضيافتهم الجنوبية سحرها، ممّا جعلني أنا وعائلتي نشعر بالترحيب. كان لديّ ثلاثة أطفال في سنّ المدرسة، وسرعان ما أصبحتُ صديقاً جيداً لعَدَد من العائلات الأخرى من المدرسة.

كانت تجربتي الأولى في العنصرية الشخصية عندما ذهبت إلى سوبر ماركت في الحيّ. يوجد في نيو أورلينز خطوط ترسيم واضحة وصارخة: يمكن أن يكون أحد جوانب الشارع قصور الطبقة العليا، والجانب الآخر عبارة عن حيّ فقير. على ما يبدو ، لقد عبرتُ دون قصدٍ أحد هذه الخطوط، من الحيّ الذي يعيش فيه من الطبقة الوسطى المختلطة عرقياً، إلى حيٍ كان يقتصر على السود (ومعظمهم فقراء). كان العملاء والموظّفون في السوبر ماركت مهذّبين ومفيدين بقدر الإمكان. كنتُ أنا المشكلة. كنتُ خائفاً. كنت هنا ، ولأوّل مرّة في حياتي، كنتُ الرجل الأبيض الوحيد في مرمى البصر، وقد جعلني ذلك عصبياً ومستفزّاً. قال لي جانبي العقلاني، «هؤلاء جميعاً مجرّد أناس عاديّون، يتسوّقون مثلك تماماً». لكنّ الأمر لم يكن في يدي _ففي أعماقي، اكتشفت حالة غريبة من عدم الراحة مع أشخاص من لونٍ مختلف. لقد كانت تجربة فريدة حقاً، والتي أنزلتني من برجي الليبرالي إلى العالم الحقيقي، وأعدّتني، إلى حَدٍ ما على الأقل، لمقابلة صديقي بيلي.

أحد الجوانب الرائعة لمدينة نيو أورلينز هو تنوّعها العرقي. لقد عشتُ لعَقدٍ من الزمان في عالم معزول بوادي السيليكون. كان أعزّ أصدقائي، حتى آخرهم، من المهندسين. في الحفلات في أسوأ الأحوال، قد يكون الشخص «المختلف» محاسباً أو محامياً. في المرّة الأولى التي ذهبت فيها إلى حفلة في نيو أورلينز، شعرتُ بالدهشة عندما وجدتُ أنّ من بين الضيوف قبطان زورق قطر، وحفّار نفط، وعالم جيوفيزيائي، ومحرّر كبير في صحيفة *Times Picayune*، وزوج يعملان نادلين، وكاتب، ومعلّم، ومجموعة من الأشخاص الآخرين المتنوّعين والرائعين. كانت هذه المجموعة من العائلات تجتمع كلّ أسبوع أو أسبوعين لغلي جراد البحر الكبير أو الشواء، والاستمتاع بأمسيات الصيف الدافئة والمحادثة اللطيفة الرائعة.

كان من بين هؤلاء الضيوف بيلي، وهو مواطن طويل ونحيف من نيو أورلينز، وأب لنصف دزّينة أو نحو ذلك من الأولاد. كان يكسب رزقه كعامل بارع، يقوم بأيّ عملٍ يأتي في طريقه. لقد كان رجلاً رائعاً، ولطيفاً قدر الإمكان، ومستعدٌ دوماً للمجيء ومساعدتي إذا كنت بحاجة إلى يد في مشروع، ولطيف المَعشر ومهذّب الكلام. على الرغم من أنّ بيلي لم يكن متعلّماً جيداً، إلا أنّه كان مواكباً للسياسة والشؤون الحالية، ولم يكن لديه مشكلة في إجراء مناظرة مع محرّر صحيفة *Times Picayune*.

جاء درسي الثاني عن العنصرية في نيو أورلينز في أحد الأيام عندما اعترف بيلي، خلال محادثة ما، بأنّه عنصري غير نادم. لقد صَدَمَني اعترافه في الحقيقة، ليس فقط لأنّ صديقي بيلي كان يحمل معتقدات أجدها مرفوضة للغاية، ولكن أيضاً لأنّه كان صريحاً ومنفتحاً بشأن ذلك. قال: «أعلم أنّ هذا خطأ، لكن لا يمكنني إلا أن أكون كذلك. لقد نشأت بهذه الطريقة. لقد تعلّمنا أنّ السّود أقلّ شأناً وأحَطّ مكانَةً، وتعلّمنا أن ننظر إليهم باحتقار. لقد حاولتُ

حقيقةً أن أغيّر منظوري، لكنّني لا أستطيع تغيير ما تربّيت عليه، ما زلتُ أرى أنّ السود أقلّ شأناً من البيض». على الأقل كان بيلي لا يستخدم» كلمة N « مُجامَلَةً [يقصد زنجي أو *Nigger*]، لكنّ اعترافه كان لغزاً حقيقياً بالنسبة لي. لو أنّ صديقاً لي في وادي السيليكون قد أدلى بالاعتراف نفسه، كنت أنا وجميع أصدقائي قد أخرجناه من دائرتنا الاجتماعية. هذا النوع من العنصرية العَلَنيّة لم يسمع به أحد في كاليفورنيا. ولكن في العمق في الجنوب، لا تزال العنصرية على قيد الحياة وشائعة، وحتى في بعض الدوائر لا يُنظَر إليها كأمرٍ مُخزٍ.

ثم قال بيلي شيئاً اعتقدت أنّه بصيرة ثاقبة. قال: «على الأقل أنا أعترف بذلك. يشعر الكثير من أصدقائك هنا بنفس ما اشعر به. لقد نشأنا جميعاً هنا في الجنوب، وهذا ما تعلّمناه. قد لا يرغب هؤلاء الأشخاص الآخرون في الاعتراف بذلك، لكن لا أحد هنا مصابٌ بعمى الألوان». فكّرتُ في تجربتي في السوبر ماركت، وكيف كانت عنصريتي الكامنة حاضرة طوال الوقت، وأدركتُ أنّ بيلي كان على حقّ. لا أحدٌ منّا بلا خطيئة. على الأقل كان بيلي صادقاً في ذلك.

وعلى الرغم من أنّني لا أوافق على موقفه ولو قليلاً حتى، إلا أنّني سأقول أنّه عندما دعا ابنه بيلي جونيور وابني صديقاً أسود للعب، شجّعهما بيلي الأكبر، وأعدّ لهم الغداء، ولم يُبدي أبداً أي علامة من مشاعره الداخلية. ربّما كان بيلي عنصرياً، لكنّه على الأقل كان يعمل بِجِدٍ حتّى لا ينقلها إلى بيلي جونيور وبقية أطفاله. كان يعلم أنّ عنصريته خَطَأ.

لقد فهم بيلي غريزياً أنّ ما تعلّمه عندما كان طفلاً، من الصعب جداً التخلّي عنه كشخصٍ بالغ. لم يكن قادراً على التراجع عن تحيّزاته والتخلّص منها، ولكن على الأقل كانت لديه الشجاعة ليكون صادقاً، والقوّة لعدم نقل عنصريته إلى أطفاله.

هذه القصّة لها خاتمة مثيرة للاهتمام. خلال الفترة التي أمضيتها في نيو أورلينز، أصبحتُ من أشدّ المعجبين بفرقة أيرلندية محلّية كانت تعزف في نهاية كل أسبوع في حانة في شارع بوربون. للأسف الشديد، تمّ شراء هذه الحانة القديمة الرائعة من قبل سلسلة مطاعم وطنيّة، والتي حوّلتها إلى بار كاريوكي غربي، وهو أسوأ كابوس موسيقي بالنسبة لي. لكنّني اكتشفتُ أنّ الشبّان الأيرلنديين كانوا سيعزفون في حانة في ميتاري، إحدى ضواحي نيو أورلينز إلى الغرب من المطار.

وصلتُ إلى الحانة واتّخذتُ مقعداً مناسباً بالقرب من الفرقة. لقد أخذوا أماكنهم، لكن لسببٍ ما، شعرتُ بعدم الارتياح الشديد، وبدأت أشعر بالتوتر. لم أتمكّن من معرفة السّبب، بدا المكان غريباً جداً وبغيضاً. ثم في منتصف الحلفة المسائية تقريباً، صعقني ما شاهدته: كان كل شخص في البار أبيض اللون. في نيو أورلينز، كان هذا غريباً جداً ومريباً لدرجة أنّني أدركتُ على الفور أنّ هذا لم يكن المكان المناسب بالنسبة لي. لقد تحوّلت من رجلٍ كان متوتراً في سوبر ماركت مليء بالسود بالكامل، إلى رجلٍ كان غير مرتاح في حانة مليئة بالبيض بالكامل.

اتّضح لاحقاً أنّ الحانة كانت مملوكة لديفيد ديوك، الرئيس السابق لمنظمة كو كلوكس كلان العنصرية[1]. وكان من الأفضل ألا يدخلها السود. كانت العنصرية لا تزال حيّة وبصحة جيدة في نيو أورلينز. ودّعتُ الموسيقيين المفضّلين لديّ، وداعاً، ولم أرهم مرّةً أخرى أبداً.

(1) كو كلوكس كلان، بالإنجليزية : Ku Klux Klan واختصاراً تدعى أيضاً KK، هو اسم يطلق على عدد من المنظمات الأخوية في الولايات المتحدة الأمريكية منها القديم ومنها من لا يزال يعمل حتى اليوم. يرجع أصل التسمية إلى كلمة كوكلوس (باليونانية: Kuklos) وتعني الدائرة. تؤمن هذه المنظمات بالتفوّق الأبيض ومعاداة السامية والعنصرية ومعاداة الكاثوليكية، كراهية المثلية وأخيراً بالأهلانية. تعمد هذه المنظمات عموماً لاستخدام العنف والإرهاب وممارسات تعذيبية كالحرق على الصليب لاضطهاد من يكرهونهم مثل الأمريكيين الأفارقة وغيرهم.

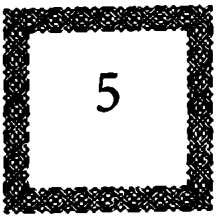

﴿لماذا يتكلّم البشر؟﴾

هل جاءت اللغة نتيجة تكيّف أم مصادفة؟

«كلمة «الله» بالنسبة لي ليست أكثر من مجرّد تعبير عن الضعف الإنساني ونتيجته. الكتاب المقدّس هو مجموعة من قصص الأطفال الجميلة، لكن البدائية في نفس الوقت. وليس هناك أيّ تفسير أو تأويل مهما كان سخيفاً (بالنسبة لي) يمكن أن يغيّر ذلك»

[ألبرت آينشتاين]

لقد تحدّثنا كثيراً عن الميمات وماهيّتها، حان الوقت الآن لطرح السؤال، لماذا الميمات موجودة؟. هذا الكتاب من بدايته وحتى نهايته مؤسّس على مفهوم الميمات، ولا يمكننا تجاهل مصدرها وأصلها. حاول علماء اللسانيات، والاجتماع، والانثروبولوجيا على مدى عقود طويلة حَلّ هذه المسألة، «لماذا تطوّرت لغة الإنسان؟»، وتمّ تقديم العديد من الأجوبة الجيّدة، التي تنقسم إلى معسكرين. المعسكر الأوّل، رائده عالم التطوّر الرائد والشهير ستيفن جاي غولد، الذي يرى أنّ اللغة البشرية قد تطوّرت كَعَرَض جانبي بالصّدفة عن دماغ أقوى وأكثر تطوّراً. فكرة غولد هي أنّ الذكاء المتزايد قد جعل

البشر «أكثر صلاحيةً للبقاء»، أمّا اللغة فأمرٌ ثانوي جاءت كَعَرَض جانبي.

المعسكر الثاني يرى أنّ اللغة البشرية تكيفيّة، وأنّ اللغة هي التي جعلت البشر «أكثر كفاءةً وملائمةً للبقاء». رائد هذا المعسكر العالِم الإدراكي ستيفن بِنكر الذي يرى أنّ القدرة على مشاركة المعارف والمعلومات حول الصّيد، ومصادر الغذاء، ومواطن الخطر، وما إلى هنالك، جميع هذه الأمور مَنَحَت البشر أفضليّة تطوّريّة على منافسيهم الذين لا يستطيعون الكلام، وقال بأنّ اللغة تطوّرت بشكلٍ خاص كَسِمَة تكيّفيّة ناجحة وموفّقة.

ولكن من وجهة نظري الخاصّة، أرى أنّ كلا التفسيرين على خطأ ويجانبان الصّواب وأنّهما لا يتمتّعان بالقوة التفسيرية لعلم الميمياء... لقد تطوّرت الميمات كآلية جديدة للتطوّر. لقد حَلّت الميمات مَحَلّ الجينات بوصفها الآلية التكيّفيّة الرئيسيّة للبشر.

التطوّر بطيء

«هدف العلم بناء مصيدة أفضل للفئران... أمّا غاية الطبيعة بناء فئران أفضل»

[مجهول]

لنتأمّل قواعد علم التطوّر الداروينى ومبادئه ومضامينه. فلكي يتمكّن النوع من النجاة والاستمرار، فإنّ المعلومات المشفّرة في مادّته الوراثية يجب أن تقابل عدداً من المعايير.

أولاً، يجب أن تكون معلومات المادة الوراثية مستقرّة جداً. فهنالك حوالي ثلاث مليارات قاعدة مزدوجة في الجينوم البشري والتي تحتاج إلى نسخها وإعادة إنتاجها بدقّة متناهية. تلك كمية هائلة من المعلومات. رواية جيمس ميتشنر نصف التاريخية «هاواي» تتألّف من 1000 صفحة، وكلّ

صفحة تتضمّن حوالي 1000 حرفاً، لذلك فرواية ميتشنر «هاواي» تتألّف تقريباً من حوالي مليون حرف. إذا حوّلنا الجينوم البشري إلى حروف وقمنا بطباعتها، فسيتطلّب 3000 كتاب بكبر رواية «هاواي» لاحتواء الجينوم البشري!! تخيّلوا صنع نسخة دقيقة مئة في المئة لمجموعة من الكتب تشغل حوالي 175 متراً على الرفوف في المكتبة. ومع أنّ حدوث أخطاء بمعدّل ضئيل جداً يُعتبَر أمراً محمولاً أثناء النسخ، إلا أنّه معدّلٌ ضئيلٌ جداً ومحدودٌ وضيّق. لكن إذا أصبح معدل الأخطاء كبيراً، عندئذٍ سوف تحدث طفرات ضارّة ومؤذية كثيرة، وسيموت النوع ويندثر.

النقطة الأساسية والهامّة هنا هي أنّ المعلومات يجب أن تكون مستقرّة، وليس الدنا DNA نفسه. هذا يعني، أنّ الطفرة التي لا تغيّر البروتينات التي تنتجها المادة الوراثية هي ليست ذات أهمية. (وقد رأينا عوارض مماثلة في نكتتنا عن القدّيس بطرس الذي يرافق مجموعة من الوافدين الجُدُد في رحلة عبر السماء: المفهوم الرئيسي، الجزء المضحك، لم يتغيّر حتى بوجود نسخ عديدة ومختلفة من النكتة).

إضافةً إلى أنّ المعلومات يجب أن تكون قادرة على التغيّر (التطفّر). وفي هذا الأمر تناقض لأنّه يتعارض مع الحاجة للاستقرار، لكنّ كلاهما ضروريان وصحيحان. إنّ معدّل تطفّر الدنا يجب أن يكون مرتفعاً بما يكفي ليتكيّف النوع على الأقل بالسّرعة التي تتغيّر فيها بيئته، لكن يجب أن يكون بطيئاً أيضاً بما يكفي حتى لا تحدث طفرات سيّئة وضارّة وتقضي على النوع. الأنواع التي لم تتطفّر بسرعة كافية لم تَعُد موجودةً اليوم. أخيراً، يجب أن يتضمّن الدنا الوسائل الضرورية لتكاثره وتضاعفه. فإذا كان أفراد النوع لا يتكاثرون، فهذا يعني نهاية سريعة بالنسبة للدنا.

والآن لننظر إلى المساوئ التي تترافق مع تطوّر الجينات المشفّرة في الدنا.

التطوّر عمليّة بطيئة. وكل طفرة تبدأ من فرد واحد على الأقل، ثمّ ينبغي على الجين الذي يحمل السّمات المتطوّرة الجديدة أو الخصائص المتغيّرة أن ينتشر من خلال أبناء وسلالة ذلك الفرد لينتقل إلى مجموعات أكبر من السكّان، عشرات، مئات، أو حتى آلاف الأجيال، حيث أنّه يحّلّ تدريجياً وببطء مَحَلّ السّمات والخصائص القديمة أو الأقلّ تكيّفاً. أيّ حَدَث مفاجئ أو سريع، كحدوث عصر جليدي طارئ، أو وصول أنواع جديدة منافسة من أماكن أخرى، أو أمراض وأوبئة قاتلة، تحدث بشكل سريع جدّاً ومفاجئ لدرجة لا يستطيع معها التطوّر مواكبتها، غالباً ما تكون النتيجة: الانقراض.

والأسوأ، أنّ التطوّر عمليّة عشوائية وفوضوية. ليس هناك عناية إلهيّة مُرشِدَة، لا غايات أو أهداف أو نوايا، لا دوافع أو حوافز. تميل الأرجحيّة نحو الطفرات السيّئة أكثر من الجيّدة. وهذا من شأنه أن يزيد من بُطءِ سير عمليّة التطوّر أكثر: لا يقتصر ذلك على أنّه يجب أن يمرّ زمنٌ طويلٌ حتى تحدث طفرة ما، بل حتّى الطفرات «الجيّدة» تصبح نادرة جداً بين طفرة وأخرى سيئة، لذا فإنّ أغلب الطفرات تموت وتندثر.

وأخيراً، آلية التنقية والفلترة التي تعمل على الطفرات صعبة جدّاً وقاسية: الموت. هذا معناه أنّ الفرد ذو الطّفرة السيئة أو غير الناجحة إمّا أن يموت على الفور، أو يخسر سباق «البقاء للأصلح» في المدى البعيد. لا مجال للقول «أوبس، هذه الطّفرة كانت فكرة سيئة، لنُعِد الكرّة مرّةً أخرى عَلّها تُنتِجُ نسخة جيّدة من هذا الجين». ما أن تحدث الطفرات السيّئة، تنتهي اللعبة.

إذن نلاحظ أنّ عملية «التطوّر التقليديّة»، تطفّر المادة الوراثية والتّصفية القاسية والصارمة من قبل الطبيعة، هي عمليّة بطيئة جدّاً، تعمل على أحسن وجهٍ وعلى فتراتٍ زمنية طويلة جدّاً، لكنّها غير قادرة على الاستجابة للتغيّرات الطارئة والمفاجئة، حيث أنّ كلمة «طارئة» تعني «أسرع من عدّة

أجيال»، كما أنّها تقف عاجزة في وجه الكوارث.

البديل السريع

«بعض الناس يسارعون في نقد الكليشيهات، لكن ما هي الكليشيهات؟ إنّها حقيقة احتفظت بصحّتها وصلاحيتها مع مرور الزمن... البشر سيفقدون نصف حكمتهم التي كدّسوها بصعوبة، وعلى مَرّ سنوات طوال، إذا فقدوا تلك الكليشيهات»

[مارفِن جورج]

من أين جاءت لغة البشر_الميمات_ ودخلت المشهد؟ التطوّر لديه طريقة مُدهِشَة في حَلّ المشكلات الصّعبة: خُذْ على سبيل المثال عين الإنسان، سُمّ الأفعى، قدرة طيور النورس على التحليق فوق مياه المحيط أسبوعاً كاملاً دون أن تَحُطّ، وقدرة البطريق على النجاة، والإنجاب والتكاثر في القارة القطبية الجنوبية المتجمّدة. هذه، وغيرها من النتائج الأخرى المذهلة للانتقاء الطبيعي، تبيّن كيف أنّ القوى العنيدة للتطوّر يمكن أن تحاول مرّةً بعد أخرى للعثور على حلول رائعة لمشكلة البقاء.

إحدى أصعب المشكلات التي تواجه التطوّر هي: أنّه عملية بطيئة ومُرهِقَة. تصوّر أنّ هناك فصيلتين متشابهتين تقريباً من الرئيسيات، لكنّ واحدةً منها قادرة على التطوّر بشكلٍ أسرع، مع القليل من الطفرات المؤذية والضارّة. مع تغيّر الطقس، ووصول أمراض جديدة، وتزايد المنافسة، وما إلى هنالك، ستتفوّق المجموعة سريعة التطوّر على المجموعة الأخرى: إذ بإمكانها تطوير صوف أكثر دفئاً، أو تطوير نظام مناعي بشكل أسرع، أو تتعلّم كيفية التماشي مع المنافسين الجُدُد وتتفوق عليهم أسرع من المجموعة

الأخرى. لَن يَطول الأمر كثيراً على الإطلاق بالنسبة للرئيسيات المتطوّرة بسرعة لتتفوّق وتتغلّب على المجموعة العادية. هذا معناه، إنّ القدرة على التطوّر بسرعة هي بِحَدّ ذاتها تمثّل أفضلية مُذهِلَة، طالما أنّها غير مترافقة مع طفرات مؤذية وضارّة. وإذا كان بمقدور التطوّر أن يُسَرّع، وفي نفس الوقت يتجنّب التغيّرات الضارّة، فإنّ ذلك سيكون بمثابة تقدّم مُذهِل بالنّسبة للنوع.

هذا ما حدث بالضبط، وهذا له علاقة وثيقة باللغة والميمات. في منعطف منطقي غريب جداً، خَلَقَ التطوّر، نسخة أفضل وأسرع من نفسه، عن طريق استخدامه للميمات لتمرير المعلومات ونقلها من جيل إلى آخر، بدلاً من الجينات. لقد أعاد التطوّر ابتكار نفسه، على شكل معلومات يتمّ تمريرها ثقافياً وليس وراثياً، لكنّه ما زال خاضعاً لنفس مبادئ وقوانين علم التطوّر.

بمعنى آخر: الميمات هي وسيلة التطوّر التي يُحَسّن نفسه من خلالها.

لقد سبق وأكّدتُ عدّة مرات أنّ المعلومات في مادتك الوراثية هي الأهَمّ، وليس المادة الوراثية بحَدّ ذاتها. إنّ فعل الولادة أو الإنجاب بحَدّ ذاته، وبجوهره، هو فعل نسخ للمعلومات. الميمات هي أفضل الطرق الفعّالة لفعل ما كانت تفعله الدنا DNA والرنا RNA طوال عدّة مليارات من السنوات: نسخ المعلومات وإكثارها.

دعونا نقارن تطوّر الميمات والجينات بتفصيل أوسع من ذلك. لماذا الميمات أفضل؟

الميمات القصدية

«بالنسبة لي الدّيانة اليهودية ما هي إلا تجسيدٌ لأكثر الخرافات طفولية وبدائية»

[آلبرت آينشتاين في رسالة إلى صديقه الفيلسوف إيريك غوتكايند 3 يناير 1954]

بخلاف الدنا، فإنّ تطوّر الميمات ليس عملية فوضوية بالضرورة. فَمِنَ الشّائع جدّاً عند البشر أن يصنعوا ويُبَرمِجوا ميمات عن قصد ولأغراض معيّنة. فكّروا بالأغنية التالية: «أودّ أن أعلّم العالَمَ الغناء»، أغنية إعلان عن الكوكاكولا (كاتبا الأغنية كوك وغرين أواي). بالرّغم من أنّ أغلبنا يكرهون أغاني الإعلانات، إلا أنّ هذه الأغنية قد احتلّت المرتبة الأولى، وخصوصاً في المملكة المتّحدة حيث أنّها واحدة من أفضل مئة أغنية على الإطلاق. لم تكن شركة كوكاكولا ترغب بطريقة رخيصة لإيصال رسالتها إلى المستهلكين. لقد دفع الناس المال للاستماع لإعلانها!! على الأرجح هذا من أفضل ميمات الإعلانات في التاريخ، وغالباً ما يرجع الفضل إلى شركة كوكاكولا، التي واجَهَت منافسة شرسة ومحتدمة من قبل شركة بيبسي، التي استعادت مركزها بوصفها المشروب الغازي رقم 1 في أمريكا. أوَدّ أن أعلّم العالم الغناء هي مجموعة من الميمات المتداخلة والمتعاضدة، بعضها يساعد على تكاثرها وانتشارها (أغنية لطيفة وجذّابة)، والأخرى تحمل رسالتها الاعلانية، الاقتصادية.

خلال العَقد الأخير، أصبح لهذا النّمط من التسويق اسم خاص وهو «التسويق الفيروسي». فمجال الإعلانات يحتلّ مكان الصّدارة في علم

الاجتماع، ومستعدٌ دوماً لاستغلال آخر وأحدث الأبحاث عن الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني لكي يستطيع روّاده بيع المزيد من السلع. ويعرف خبراء التسويق في جادَة ماديسون ذلك جيّداً وكانوا من الأوائل الذين أدركوا قوّة الميمات وعلم الميمياء، وحوّلوها إلى أداة من أجل الربح والتجارة. إنّ «التسويق الفيروسي» هو التقنية التي تقوم على خَلق حَملَة إعلانية-تسويقية تحمل بداخلها شيءٌ ما مُغرٍ جدّاً وجذاب ليخبر به الناس بعضهم بعضاً دون الحاجة لوجود معلنين أو مندوبي تسويق. حملة التسويق الفيروسية تتركّز حول فكرة ذاتية التّضاعف والانقسام، ميم، يحمل بداخله رسالة المُعلِن ويحمل بالإضافة إلى ذلك الأدوات والوسائل الضرورية اللازمة لتكاثره. أغنية كوكاكولا لم تَكُن الحملة الفيروسية الاعلانية الأولى من نوعها لكنّها كانت أفضلها على الإطلاق.

تُثبِت عملية التسويق الفيروسية وجهة نظرنا وتوضّح النقطة القائلة بأنّ طفرات الميم ليست صدفوية أو عشوائية دائماً. بخلاف الجينات، يمكن صنع الميمات عَمداً ونَحتها وتحسينها.

الميمات السيّئة ليست فتّاكة

ملاحظة برويز: كيف تعيش والفترة التي تعيشها ليس لها أي علاقة بفترة حياتك التي تقضيها حتى تموت.

في عام 1960، قام البروفيسور تيموثي ليري من قسم علم النفس بجامعة هارفرد، بالسفر إلى كويرنافاكا بالمكسيك، وانضمّ هناك إلى بعض السكّان المحلّيين في طقس احتفالي ديني تضمّن استخدام فطر البسيلوسيبين، وهو عبارة عن عَقّار مهلوس طبيعي وقوي جداً. هذه التجربة علّمته، كما يروي الدكتور ليري، في عدّة ساعات فقط عن دماغ الإنسان أكثر ممّا كان قد تعلّمه طوال السنوات الخمسة عشر السابقة.

في ذلك الوقت، كان استخدام مهلوسات ومخدرات مثل البسيلوسيبين وحمض الليسرجيك LSD أمراً قانونياً، كما أنّ استخدام هذه الأدوية والعقاقير من قِبَل الباحثين وعلماء النفس كان أمراً مطلوباً. كان ليري مهتمّاً جداً بهذه العقاقير والبصائر التي منحته إياها، إذ أنّها قد غيّرت مجرى حياته، والتاريخ الأمريكي كذلك. لقد أصبح أيقونة من أيقونات الثقافة المضادّة، مُدافعاً مقداماً، متحمّساً ومنطلقاً عن الأدوية المغيّرة للحالات العقلية، وأحد أبطال الحركة المناهضة للحرب خلال فترة الستينيات. في النهاية، أصبح ليري مطارَدَاً عالمياً، وتمّ سجنه عدة مرات، وأُطلق سراحه أخيراً من قبل حاكم كاليفورنيا جيري براون.

ملايين الأشخاص في فترة الستينيات، جيل الهيبيين حول العالم، جرّبوا أو استخدموا بشكلٍ منتظم ومتكرّر_الأدوية والعقاقير المهَلوِسة التي دافع عنها ليري. ومع أنّ ليري لم يَكُن وحده المسؤول عن «ميم العقاقير المهلوسة» والشعبية الناتجة عن ذلك لأدوية LSD، إلا أنّ تأثيره كان قويّاً وملحوظاً.

بَدَت عقاقير الـ LSD فكرة رائعة وجذّابة بالنسبة للعديد من الناس في الستينيات، لكن جميع التقارير أشارت بأنّ الاستخدام الطويل الأمَدَ لهذا العقار قد تكون له عواقب خطيرة. لكن لحسن حظّ أغلب مستخدمي حمض الليسرجيك، لم يكن هذا الميم فتّاكاً. بعض المستخدمين يختبرون «رحلات مرعبة وسيئة»، لكنّ الأعراض نادراً ما تدوم طويلاً.

بخلاف طفرة الدنا، التي يتمّ نقلها إلى سلالة الفرد من بعده، يمكن للعقل البشري أن يقبل، ثم يرفض لاحقاً، ميماً معيّناً، طالما أنّ الجسم البشري لا يتأثّر بهذه المحنة.

إحدى أكثر الأسرار قَتَامةً لأولئك الذين عايشوا فترة الستينيات، ذلك النوع من الأسرار التي حاولوا جاهدين إخفائها عن أولادهم، هي أنّ العديد منهم جرّبوا هذه الأدوية وتعاطوها في شبابهم. في فترة الستّينيات، إضافة إلى السبعينيات، لم تكن هناك حفلة جامعية تخلو من الرائحة اللاذعة للماريجوانا، كما أنّ استخدام عقاقير أقوى كان أمراً شائعاً جدّاً. لكنّ معظم أولئك الأشخاص أنفسهم رفضوا لاحقاً خلال حياتهم «ميم العقاقير المهلوسة» بسبب ماهيتها: إنّها فكرة سيئة. وهم لم يكونوا بحاجة لكي يموتوا ليتخلّصوا من هذا الميم.

التطوّر عالي الموجة

«وانقضت فترة قصيرة بعد وفاة المُصلِح العظيم للدّين اليهودي، قبل أن تنتقل تعاليمه ومبادئه من عند أولئك الذين اعترفوا بأنهم كانوا خَدَمَهُ المُمَيّزين، وتحوّلت إلى أداة وآلة لاستعباد بني البشر، تفخيم وتعظيم قامعيهم في الكنيسة والدولة»

[توماس جيفرسون، رسالة
إلى س. كيرتشيفال 1810]

الأفضلية الأخيرة التي تملكها الميمات والتي تتفوّق بها على الجينات هي كمّية المعلومات الكبيرة التي يمكن تمريرها. يتضمّن الجينوم البشري حوالي 25000 جيناً مشفّراً على شكل بروتينات، وهذه كمّية كبيرة من المعلومات. لكنّ حجم المعرفة التي يمكن نقلها جينياً ضئيلة نسبيّاً، قسم صغير من المعرفة التي يمكن للشخص اكتسابها خلال فترة حياته.

تصوّروا أنماط المعارف المشفّرة جينياً (أي المعرفة الغريزية). الطّيور تهاجر عبر مسافة آلاف الأميال. سمك السلمون يسافر في جميع أصقاع المحيط ثم يعود إلى نفس النهر بالضبط، أو الجدول أو البحيرة التي فقّس فيها. العنكبوت يبني بيوتاً رائعة الجمال من خيوطه. البطريق يعرف أنّه حينما تقترب عاصفة ما، فعليه التكاتف مع البطاريق الأخرى والالتصاق معها وإلا سيتجمّد ويموت من البرد.

وتستمرّ قائمة الغرائز المذهلة. لكنّ الأكثر إذهالاً وإدهاشاً منها قدرة الإنسان على وصف جميع الأنماط السلوكية وبدقّة عالية وتمرير معرفته إلى أصدقاءه، تلامذته، جيرانه، وأطفاله، وبدقّة منقطعة النظير، والحفاظ على

هذه المعلومات طوال عدّة أجيال، ولألفيّات من الزمن.

تصوّروا المهارات المكتَسَبة كالكتابة، الهندسة، الشعر، الحِرَفْ، الزراعة، أو الموسيقى. نحن بالكاد نستطيع تصوّر هذه السّمات والخصائص من دون اللغة.

الميمات تستطيع حمل ونقل الكثير والكثير من المعلومات أكثر من الجينات.

استقرار الميم وثباته

«الأطفال سُذّج وبسطاء _إنّهم يصدّقون الجميع. المدرسة سيّئة بما يكفي، لكنّك إذا وَضَعتَ طفلاً في أيّ مكان بجوار كنيسة، فإنّك تبحث عن المشاكل»

[فرانك زابّا]

تذكّروا أنّ الاستمرارية والثبات من أهمّ السمات والخصائص لمادّتكم الوراثية DNA إذ يجب أن تنتقل المعلومات بدقّة. وبسبب ذلك، تمتلك أجسامنا بعض الآليات البيوكيميائية المذهلة التي تحمي مادّتنا الوراثية وتحافظ عليها من الضرر، وتصونها من أنواع معينة من الأضرار التي يمكن إصلاحها. هل نفس الأمر ينطبق على الميمات؟.

يبدو أنّ الدماغ البشري مُبَرمَجٌ من أجل هذا الغرض بالضبط: استقرار الميمات. خلال طفولتنا، نكون قادرين على امتصاص كمّيّات ضخمة من المعلومات حول العالم، حول أصدقائنا وجيراننا، وكيف نعيش ونكسب رزقنا. كتاب روبرت وولفام الرائع والعبقري «كل ما أحتاج إلى معرفته تعلّمته في الروضة» صحيحٌ بشكلٍ مذهل _جميع الأمور الهامّة والضرورية والجوهريّة نتعلّمها في طفولتنا خلال سِنٍ مبكّرة، ولن ننساها أبداً ما حيينا.

يبدو أنّ الأولاد يمرّون عبر مرحلة مفتوحة وواسعة، حيث يتمّ تعليمهم كل شيء عن كلّ شيء تقريباً (حتى بعض الأمور غير القابلة للتصديق)، وسيقبلونها ويمتصّونها. إحدى أعظم مباهج الأبوية تتمثّل في مراقبة طفلك وهو يستكشف العالم، ويجرّب كل شيء. الأطفال سيشاهدون، ويشعرون،

ويشمّون، ويلتقطون، وحتى يأكلون كلّ شيء يجدونه تقريباً. طفل بعمر الخامسة يكون مليئاً بالأسئلة لدرجة أنّه قد يدفع والديه للجنون. الأطفال يحبّون محاكاة وتقليد أهلهم، ويمكنهم قضاء ساعات أو أيّام وهم مستغرقون في «لعبة المحاكاة»، يلعبون لعبة البيت، والصيد، صيد السمك، القتال، وحتى الرومانسيات الطفولية. لكن عندما يكبر الطفل ويشبّ ويصبح راشداً، تترسّخ المعتقدات وتصبح جزءاً من حالته العقلية. يبدو أنّ عقل الطفل الواسع والمنفتح، الذي يتوق لتعلّم كل شيء جديد وامتصاصه، يتحوّل إلى أرشيفٍ مُغلَق ومُغبرّ. قد تدخل بعض المعلومات الجديدة، وخصوصاً إذا كانت متوافقة مع المعلومات الموجودة داخل عقله مسبقاً، لكنّ معظم معتقدات الفرد الأصلية والأساسية تصبح مَنيعَة بعمر الثامنة عشرة.

من الصعب جداً تغيير رأي شخص بالغ. فعنوان كتاب وولفام الذي اقتبسناه في الأعلى ومقولة القدّيس اغناطيوس الشهيرة «أعطني ولداً، وسأعطيك رجلاً»، كلاهما يشيران لهذه الحقيقة: إذا أردتَ أن تعلّم إنساناً معتقدات أساسية وتبرمجه عليها، عليك أن تعلّم الأولاد، لأنّه عندما يصبح الإنسان راشداً، فإنّ الوقت قد تأخّر.

يبدو هذا منطقياً من الناحية التطوّرية، فإذا كان التطوّر البيولوجي قد «أعاد ابتكار» نفسه على شكل ميمات، كطريقة أفضل لتمرير المعلومات من جيل إلى الجيل التالي، عندئذٍ نتوقّع أن يكون العقل البشري مُبَرمَجاً على الدّقّة في النقل. وهذا ما نراه بالضبط: ما أن ينضج الطفل ويصل سِنّ الرّشد، «يتصلّب» عقله، ويصبح منيعاً على الأفكار الجديدة، ويحمي صلاحية الأفكار التي امتصّها خلال طفولته.

لذا فإنّ الميمات تجتاز امتحان الوثوقية والدّقّة، وهي بذلك كالمادّة الوراثية

DNA، معلومات يمكن نقلها وتمريرها خلال عدّة أجيال وبدقّة. وهذا أمرٌ أساسي وحيويّ من أجل بقاء الإنسان. فمواقع الغذاء، والطرق والأساليب الفعّالة في الصيد، وإجراءات صنع الأدوات، اللباس، والأسلحة، جميع هذه الأمور يجب تمريرها من جيل لآخر إذا كان يريد النوع النّجاة والاستمرار. خلال أغلب مراحل التاريخ البشري، كان معدّل الحياة أقصر بكثير ممّا هو عليه اليوم، ربما كان لا يتجاوز الخمسة وعشرين أو الأربعين عاماً. وهذا معناه أنّه خلال الزمن الذي وصل فيه البشر إلى عمر العشرين، ربّما كان والدك أو والداك قد ماتا. إذا لم تتذكّر الدروس التي قد تعلّمتها منهما، حتّى تنقلها بدورك إلى أولادك، ستضيع تلك الدروس إلى الأبد.

لذا ليس من المستغرب أنّ أدمغتنا «مُصَمّمة وموصولة جيداً» لتكون أمامها فترة زمنية مفتوحة لتلقّي الأفكار وامتصاصها (طفولتنا، عندما كانت الميمات تُحَمّل إلى أدمغتنا), متبوعة بفترة ترسيخ لتلك الأفكار وتثبيتها (سنّ الرّشد) حيث نُحجِمُ عن تغيير معتقداتنا، ونبذل جهدنا لتمرير معرفتنا لأبنائنا بدقّة.

الميمات: إحدى «الخدع الناجحة» للتطوّر

«شخصياً أعتقد بأنّنا طوّرنا اللغة بسبب حاجتنا العميقة للشكوى»

[ليلي توملين]

إنّ قدرة البشر على الكلام ليست أكثر من سبيل أو طريقة للتطوّر يحسّنون أنفسهم من خلالها: إنّها طريقة أفضل لنقل المعلومات وتمريرها. إنّها أسرع، أكثر تكيّفاً ومرونة من التطفّر الجيني، ويمكنها تمرير معلومات أدَقّ وأكثر حساسية من جيل إلى الجيل التالي بطريقة أفضل من الجينات. شتاء جليدي؟ لا مشكلة، يتعلّم البشر استخدام جلود وفراء الحيوانات الأخرى من أجل الدفء... نوعٌ جديدٌ منافس؟ لا مشكلة، مجموعة من البشر يستطيعون إيجاد طريقة للقضاء على المنافسين الجدد... وخلال جيلٍ واحدٍ فقط، يمرّرون تلك المعلومات إلى جميع البشر... أمراض؟ بدلاً من الاعتماد الكامل على جهاز المناعة وحده، اخترع البشر الأدوية لتحسين فرصهم في البقاء. التطوّر الثقافي يمتلك جميع فوائد وميزات عملية الانتقاء الطبيعي الداروينية: يمكن للحلول المعقّدة أن تظهر من دون أي تصميم واعٍ أو ذكي. وبنفس الوقت، لا تعاني الميمات من خوارزمية «محاولة/خطأ» الهشّة التي تجعل من التطوّر الجيني عمليّة بطيئة جداً و واهِنَة. لقد أثبتت الميمات نفسها على أنّها السمات والخصائص الأكثر أهمّيةً وتكيّفاً في تاريخ الحياة على الأرض. لم يتمكّن حيوانٌ آخر من أي نوعٍ من مجرّد الاقتراب من مرحلة تقدّم البشر في سباق القدرة التكيفية والتقدّم المتسارع. البشر يعيشون في كل مكان على الأرض تقريباً، وقليلون منهم يعيشون تحت سطح البحر أو يعيشون في مدار خارج نطاق الغلاف الجوّي للأرض. لقد ارتفع معدّل عمر الإنسان بشكل ملحوظ. كان أكثر من نصف أولاده يموتون، أمّا الآن ارتفع معدّل البقاء بنسبة صغيرة.

ازدادت أعداد البشر من عدّة ملايين إلى أكثر من ستّة مليارات ($6*10^9$) إنسان على مدى عدّة قرون فقط، وبات تأثيرنا على البيئة ثقيلاً ومُدَمّراً لدرجة أنّ أكبر حالات الانقراض الجماعية التي حدثت في تاريخ الأرض على مدى 4 مليارات عام تحدث الآن في الوقت الحالي. الاستقرار الأقصى هو نتيجة طبيعية لـ«خدعة» التطوّر بإعادة ابتكار نفسه على شكل ميمات، أجزاء من المعلومات الثقافية التي تتّبع قوانين داروين التطوّرية، لكن بطريقة أحدَث وأحسن. نحن نتكلّم لأنّ الميمات أفضل من الجينات للتطوّر.

مُلحَق: صلاة

رَبّنا، إلهنا ساعدنا على تمزيق جنودهم إلى أشلاء دامية بقذائفنا... ساعدنا على تغطية حقولهم الباسمة ببقايا أجساد أمواتهم الوطنيين... ساعِدنا على إغراق دوي البنادق والسلاح بصراخ الجرحى والمتلوّين من الألم... ساعِدنا على تدمير منازلهم الحقيرة والوضيعة بإعصارٍ من نار... ساعدنا على إحراق قلوب أراملهم غير المشاركات بالحرب بألم وأسى لانهائيان... ساعِدنا على تحويلهم هم وأولادهم إلى مشرّدين بدون مأوى ليَهيموا على وجوههم وسط الخراب الذي يملأ أرضهم المحروقة بالبقايا والسّخام والجوع والعطش... تحت لهيب الشمس، وبرد الشتاء القارس، محطّمي النفوس، مبتلين بالألم، طالبين منك مأوى القبر وأنت ترفض ذلك...

من أجلنا، نحن الذين نحبّك ونعبدك، يا إلهي، حطّم آمالهم، شتّت حياتهم، أطِل رحلتهم المريرة، اجعَل خُطاهم ثقيلة، بَلّل دربهم بدموعهم، ضَرّج الثلج الأبيض بدماء أقدامهم المتقرّحة، نحن نناشدك ونتضرّع إليك يا مَن أنت روح الحُبّ ومَلجَأ كلّ مؤمن من كل تلك المِحَن المفجعة، ونسأل عونَكَ ومساعَدَتَكَ بقلوبٍ خاشعةٍ متواضعة.

اسمَع دعاءنا واستجب لصلاتنا، إلهي، وليَكُن مَجدَك وملكوتَك وعظمتك الآن وكل حين.

آمين.

[مارك توين 1835- 1910 «صلاة الحرب»]

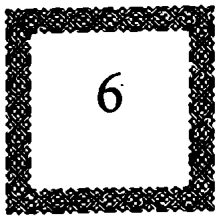

﴿نظام المناعة الديني﴾

يبدو أنّ أيّ شيء يستحقّ الامتلاك يستحقّ السرقة أيضاً، وبذلك فإنه يستحقّ الدفاع عنه وصَونَه: الشجرة لديها لحاء سميك لإبعاد الحشرات عنها، أجسامنا تتضمّن نظاماً مناعيّاً معقّداً لمحاربة الأمراض، مالِكُ الأرض يبني سياجاً حول أرضه لحماية ملكيّته، الدولة تضع جنوداً على حدودها لإبعاد الغُزاة عنها. هذه الأمور جميعها أمثلة لنفس الأمر: أنظمة مناعيّة قد تطوّرت (إمّا بيولوجياً أو ثقافياً) لحماية الأشياء الثمينة والغالية التي تساعد على بقائنا واستمرارنا.

الميمات التي كنّا قد درسناها حتى الآن قد تركّزت على المعتقدات الرئيسية لليهود والمسلمين والمسيحيين، أفكار مثل التوحيد، الخطيئة والذنب، الجنّة والنار، وأصل الأخلاق وفصلها. هذه الميمات هي القلب والأساس الذي يؤكّد على وجود يهوه، وقوّته، وشريعته.

في حين أنّ هذه الميمات اللاهوتية الأساسيّة كانت تتطوّر، كانت هناك مجموعة ثانية من الميمات قيد التطوّر بالتوازي مع الأولى: جهاز المناعة الدّيني، الميمات التي تعزّز وتدافع عن المفاهيم اللاّهوتية المركزيّة. في هذا الفصل، سنعود إلى الأزمنة ما قبل المسيحية مرّةً أخرى، ونشقّ طريقنا نحو الأمام، نتعلّم

عن هذه الميمات «المحاربة» وكيف حَسّنت نموّ وانتشار الأديان الغربية.

الميم المضادّ للعقلانية

«شَكّك بجرأة حتى بمسألة وجود الله نفسه، لأنّه إذا كان هناك إله، فإنّه سيوافق على احترام العقل والمنطق بدلاً من التسليم والإيمان الأعمى» .

[توماس جيفرسون]

من وجهة نظر الفيلسوف: جميع الدّيانات تعاني من مشكلة: لا يمكن إثبات صحّتها أو زيفها. بمعنى أنّ جوهر كلّ دين يجب القبول به على أساس التسليم والإيمان الأعمى فقط.

هذا الأساس القائم على التسليم والإيمان يمكن تبيانه على النّحو التالي:

س: كيف تعلم أنّ الله موجود؟
ج: لأنّ الكتاب المقدّس يخبرنا بذلك.
س: من كَتَب الكتاب المقدّس؟
ج: مجموعة من الأشخاص، لكنّهم كانوا يدوّنون كلمة الله الحقّة والمعصومة.
س: وكيف تعرف أنّ هؤلاء الأشخاص لم يخطئوا أو يرتكبوا أخطاء؟
ج: لأنّ الله هو من كَتَب الكتاب المقدّس.
س: إذن كَتب الله الكتاب الذي يثبت وجوده؟.

وهكذا، مرّة بعد مرّة، ضمن حلقة مفرغة من المنطق الدائري الذي ينتهي بنا في النهاية إلى الإيمان. منذ حوالي 2500 عام، كان العقلانيون الإغريق

قد اعتبروا _ورفضوا بشدّة_ هذا النّمط من المنطق على أنّه نوع من التفكير الدائري أو الحلقي. لقد أدرَكَ الإغريق أنّه لإثبات صحّة شيءٍ ما، فعليك أن تقيم دليلك على حقيقة أعمق وأكثر صحّة، أي البدء من حقائق معروفة، والاعتماد عليها لتسليط الضوء على المجهول. لن ينفع أبداً أن نأخذ حقيقتين غير مُثبَتَتَين، ونستخدم كلّ واحدةٍ منها «لإثبات» الأخرى (على غرار: الله كتب الكتاب المقدّس، و الكتاب المقدّس يثبت وجود الله).

عندما بدأ الإغريق باستعمار أراضي اليهود في القرن الرابع قبل الميلاد، اندَمَجَت الحضارتان، وبدأ اليهود بدراسة الفكر العقلاني الإغريقي. في هذا الوقت، كان اليهود مقتنعين تماماً بأنّ شرائعهم وقوانينهم مُنَزّلة من يهوه على موسى. الإغريق من جهةٍ أخرى كانت لهم فلسفة متطوّرة جدّاً استمدّت قَيَمَها الأخلاقية من المبادئ الطبيعية. وعندما قابل الاغريق الحضارة اليهودية ودرسوا شرائعها، افتُتِنوا بها، وخصوصاً بالتّراث اليهودي عن الدين المكتوب والشرائع المدوّنة. لكنّ الإغريق رَفَضوا فكرة اليهود أنّ القيم الأخلاقية لا تأتي إلا من يهوه. كانت الديانة اليهودية متعارضة مع سلوك وتصرّفات آلهة الإغريق (التي لَم تَكُن تتصرّف بشكل أخلاقي أو نموذجي!) ولم تكن المبادئ الأخلاقيّة اليهودية بدورها متوافقة مع الفلسفة العقلانية.

كانت هناك مشكلة دقيقة جدّاً وحسّاسة ومنطقيّة تتخلّل الأخلاق اليهودية المنزّلة من عند الله، حلقة دائرية اكتشفها أفلاطون. حيث جادل قائلاً: «إذا كان شيء ما جيّد أو سيء لأنّ يهوه موافقٌ عليه، كيف ليهوه أن يقرّر على ماذا يوافق؟» فيهوه نفسه لا يملك قوانين يسير وفقها _فالشيء يكون إمّا جيّداً أو سيئاً لأنّ يهوه يوافق عليه أو لا يوافق. بمعنى آخر، الصواب والخطأ يتولّدان مع يهوه، وليس هناك أيّ أساسٍ لهما. قد يقرّر يهوه أنّ قتل الأطفال الأبرياء كان أمراً جيداً، وأنّ ذلك سيجعل منه خيراً، ولأنّ

ذلك كان أمراً جيداً، وافق عليه يهوه. حسب أفلاطون، يهوه نفسه كان عالقاً في داخل حجّة دائرية. وكان ذلك يتناقض مع موقف الإغريقيين العقلاني، الذين اعتقدوا أنّ كافّة المبادئ والقيم الأخلاقية لها أساس.

طوّر الإغريق الفكرة القائلة بأنّ هناك قوانين منطقيّة قويّة جداً لدرجة أنّ الآلهة نفسها كانت غير قادرة على انتهاكها. على سبيل المثال، نحن نعلم أنّ 1+1=2، وحتى الإله لا يمكنه تغيير ذلك. وبنفس الشكل، حتّى الإله كان عليه أن يكون له أساس أو أرضيّة يقرّر على أساسها سواء كان شيئاً ما جيداً أم سيئاً، خطأ أم صواب _لا يمكن أن يقرّر فحسب من دون أساس أو أرضية، وإلا فإنه سيسقط في فخّ أفلاطون الدائري للأخلاق. الخطأ والصواب، حسب الفلاسفة العقلانيين، يجب أن ينبعا من طبيعة الإنسان وظروفه وسعادته.

مع مرور الوقت، امتصّ الفلاسفة والحاخامات اليهود الثقافة والفلسفة الهلنستية، وبدأ المنطق العقلاني بالزحف إلى التراث اليهودي. بالنسبة للبعض، بدا أساس الدين اليهودي مهزوزاً ومخلخلاً. كان اليهود يعانون من مشكلة كبيرة تقابلهم. كل شيء متعلّق بيهوه، من سلطته وقوّته إلى وجوده، كان موضع تشكيك وتساؤل.

والحلّ كان على شكل ميم جديد، ميم عَمِلَ على تقويض الفلسفة العقلانية للإغريق. فخلال قرنٍ من الزمن أو ما يناهزه بعد الغَزو الإغريقي، ظهر الميم «المضاد للعقلانية». هذا الميم أكّد على أنّ التفكير المنطقي عبارة عن نظرة ضالّة ومضلّلة إلى الحقيقة، بل عليك أن تتحلّى بالإيمان وتشعر بالحقيقة بقلبك، وليس بعقلك. يؤكّد الميم «المضاد للعقلانية» بأنّ الفكر المنطقي والعقلاني ليسا أفضل طريق إلى الحقيقة. وأنّهما في الحقيقة يضلاّن بك ويبعدانك عنها.

«الوحي الإلهي، وليس العقل، هو مصدر جميع الحقائق» [ترتوليان القرطاجي 150-225م]

بمعنى آخر، إنّ ألغاز يهوه كانت تتجاوز الادراك والفهم البشريين، ولم يكن يساعد الفهم سوى أعمال الإيمان. إنّ الميم المضاد للعقلانية قد حلّ المشكلة اليهودية من أساسها، وشكّل قفزة فوق فَخّ المنطق الأفلاطوني. فبدلاً من محاولة إثبات وجود يهوه بالمنطق والعقل، عليك أن تشعر به في قلبك. وبدلاً من محاولتك إثبات أنّ أخلاق الوصايا العشر لها أساس طبيعي ومنطقي قائم على سعادة الإنسان، عليك أن تصلّي إلى يهوه من أجل الرشاد والهداية إلى الصراط المستقيم. لقد تمّ تحييد مشاكل الفلسفة الإغريقية، والصعوبات التي ظهرت من خلال الفكر العقلاني الاغريقي قد جرى استبعادها والتخلّص منها. لقد بات اليهود، والمسيحيون والمسلمون من بعدهم، آمنين مَرّةً أخرى. كان الغزو الإغريقي لمنطقة الشرق الأوسط قد أطلق شرارة الميم «المضاد للعقلانية»، لكنّ تطوّره لم يتوقّف عند تلك المرحلة، فعشرين قرناً من الزمن كانت فترة زمنية كافية لينضج وينتشر. تأمّلوا في هذه النسخ الأكثر حَدَاثَةً من الميم: «بالرغم من أنّ الألوهة مصبوبة بنور الإيمان فهي أقوى بكثير من النور الطبيعي للعقل، مع أنّنا في مرحلتنا الحالية لا نشارك فيه إلا بشكلٍ ناقص» [القديس توما الأكويني 1225-1274]

إنَّ نسخة القدّيس توما من الميم المضاد للعقلانية قد جرى تحسينها في سياق أنّه حتى إيماننا مشكوكٌ فيه، قد يكون لدينا إيمان، لكنّه ناقص ومَعيوب. ثمّ تأمّلوا الآن التصريح الحديث لكنيسة الروم الكاثوليك: «لطالما اعتقدت الكنيسة الكاثوليكية بأنّ هناك نظامين مزدوجين من المعرفة، وأنّ هذين النظامين متمايزان عن بعضهما، ليس من ناحية المبادئ فقط، بل من ناحية

الموضوع، في أحدهما نحصل على المعرفة من خلال العقل الطبيعي، أمّا في الآخر فإنّنا نحصّل المعرفة عن طريق الإيمان والتأمّل الدينيين، موضوع أحدهما هو الحقيقة المكتسبة عن طريق العقل الطبيعي، أمّا موضوع الآخر فهو الألغاز والأسرار المخفيّة بالله، تلك الألغاز التي نؤمن بها ولا يمكن معرفتها إلا من خلال الوحي الإلهي» [الموسوعة الكاثوليكية]

إنّ النسخة الرومانية الكاثوليكية من الميم تقسم المعرفة إلى فئتين: تلك التي يمكن فهمها وإدراكها بالعقل، وتلك التي يتمّ تبيّنها بالتسليم والإيمان.

والأكثر إدهاشاً وإذهالاً هو التصريح التالي:

«من الممكن أنّ لله حكمته للسّماح للبشر بالوجود، لكنّنا لا نستطيع إدراك حكمته تلك بكلّ بساطة. بهذا فإنّ المسيحيين بإمكانهم الثّقة بالله والإيمان به بأن يدركوا أنّ طرقه مختلفة عن طرقنا» [كهنوتية الأبحاث والدراسات المسيحية org.carm.www].

هذا التصريح بحَدّ ذاته، من وجهة نظر المسيحيين ورأيهم، يؤكّد وبقوّة على أنّ العيب كامنٌ في منطقنا!! قد يكون هناك منطقٌ أعلى من المنطق الإنساني وأسمى منه، لذا لا يهمّ كم بلغنا من الذكاء والفطنة، فإنّ يهوه أذكى منّا، ولا يمكن لأيّ إنسانٍ مهما بَلَغَ في درجة تفكيره وذكاءه أن يفنّد أيّ شيء عن الدّين قد يبدو لا عقلانياً أو غير منطقي. وهذا تغيّر خطير وقويّ جدّاً طَرَأ على الميم المضاد للعقلانية، فهو لا يؤكّد فقط بأنّ الإيمان يغلب على المنطق، بل إضافةً إلى ذلك، فإنّ قدراتنا وإمكانياتنا المنطقيّة مشبوهة ولا يمكن الوثوق فيها.

ميم «الجهل نعمة»

«إنّ الاستسلام للجهل ومناشدة الله في كل شاردة وواردة، لطالما كان أمراً طفولياً، ومازال كذلك حتى اليوم»

[إسحق عظيموف]

في عام 2008، أصدَرَت محكمة كاليفورنيا مرسوماً قضائياً مثيراً جاء فيه أنّ التدريس أو التعليم المنزلي كان غير شرعي بتاتاً إلا إذا كان عن طريق مدرّس مرخّص (عادةً ما يكون واحداً من الأبوين)، ومسموحٌ له بممارسة التعليم في المدارس. وقد أدّى ذلك إلى عاصفة نارية من الاحتجاجات، من قِبَل الأهالي، وموجّهي المدارس الحكوميين، وحتى من قبل الحاكِم نفسه. لكنّ أكثر الاحتجاجات صَخَباً صدرت من قبل المنظمات المسيحية، التي صدرت عنها تصريحات تتّهم هذا المرسوم بمهاجمة ومعاداة المسيحية علناً.

تراجَعَت نفس المحكمة عن قرارها بعد ذلك بعدّة أسابيع، لكنّ العاصفة الهوجاء التي سبّبها هذا المرسوم قد سلّطت الضوء على الدوافع الأساسية التي تدفع الكثير من العائلات إلى ما يسمّى بالتعليم المنزلي: إنّها تحاول تجنّب التعليم العلمي-العلماني الذي يمنع أولادهم من عيش حياة دينية مسيحية أو يهودية أو إسلامية. وظَهَرَت شائعة واسعة الانتشار كثيراً ما كرّرها الكتّاب والمؤلّفون المسيحيون تقول بأنّ 85٪ من طلاب المدارس الحكومية قد تخلّوا عن إيمانهم.

نلاحظ أنّ المحافظين المتشدّدين من المسيحيين والمسلمين واليهود يتشاركون مخاوفهم من علم الفيزياء الحديث، الكيمياء، البيولوجيا، الجيولوجيا، الانثروبولوجيا، والتاريخ، لأنّ دياناتهم التي تتجاوز الألفيّة

من الزمن لا تتطابق مع العلوم والمعارف الحديثة. أغلب النّصوص المقدّسة للديانات الابراهيمية ظلّت «جامدة» على شكلها الحالي لفترة متراوحة ما بين 2800 سنة (التاناخ اليهودي) و1400 سنة (القرآن الإسلامي)، إلا أنّ العلم والحضارات قد أنجزت الكثير من التقدّم في جميع الفروع المعرفية تقريباً. من الناحية الطبيعية هناك تصريحات في هذه النّصوص المقدّسة لا تتوافق أو تتلاءم مع الاكتشافات العلمية المعاصرة، وقد أثبتت التجارب بأنّ الاطلاع على هذه الأفكار الحديثة أمرٌ خطيرٌ جداً. فمن شأنه أن يؤدّي بالناس إلى الضلال، وخصوصاً النشء والشبان.

ولحماية أطفالهم وأولادهم من هذه التأثيرات، وإبقائهم «ضمن القطيع»، فإنّهم يدرّسون أولادهم في البيوت، وبذلك يتحكّمون بمقدار المعرفة ونوعيّتها التي يصل إليها أولادهم والتّي لا تتعارض مع معتقداتهم ومسلّماتهم القديمة.

هذا مثالٌ صارخ عن ميم «الجَهل نعمة». فقد تطوّر هذا الميم للدفاع عن الدّين ضدّ المعرفة التي تتعارض مع التعاليم والشرائع الدينية. باختصار، إنّه يعلن أنّ «كلّ ما أنا بحاجة لمعرفته موجودٌ في الكتاب المقدّس»، ويأتي هذا الفيروس بتأثيرات مختلفة، بعض الناس يزعمون مزاعم جريئة بأنّ التاناخ أو الكتاب المقدّس أو القرآن يتضمّن مختلف أنواع المعارف والعلوم، لكنّ المعارف المسموح بها هي تلك التي لا تتعارض مع النصوص المقدّسة.

في عام 1968 ألغَت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أكبر عملية حظر فكرية في التاريخ، كانت تعرف باسم (قائمة الكتب الممنوعة أو المحَرّمة *Index Librorum Prohibitorum*) التي أطلقها البابا بول IV عام 1559، هذا المشروع الذي دام أربعة قرون كان ناجحاً للغاية، وحتّى ضدّ المؤمنين من غير الكاثوليك. كانت الكنيسة قوّيةٌ جداً في أوروبا وأمريكا

لدرجة أنّ الكثير من المفكّرين والمؤلّفين كانوا يتفادون الخوض في مواضيع مثيرة للجدل، أو تعديل آرائهم وأفكارهم لتتناسب مع تعاليم الكنيسة، ومن أجل تجنّب المنع أو الحظر أو تفادي سخط الكنيسة. المؤلّفون الذين تجاهلوا تعاليم الكنيسة وتمّ منعهم وحظر كتبهم كانوا يجدون الكثير من الصعوبات في العثور على ناشرين، وحتى إذا تمّ نشر كتبهم، كان من الصعب _وأحياناً من المستحيل_ العثور على كتبهم لأنّ متاجر الكتب والمكتبات كانت خاضعة لمراقبة دورية صارمة.

يعود ميم «الجهل نعمة» في تاريخه إلى ما قبل عام 1559 حتّى. إلى عصر إحراق الكتب، ورفض الأناجيل المنحولة أو غير الشّرعية (أناجيل يسوع التي لم يُقبَل بها من قِبَل مَجمَع نيقيا)، قمع الاكتشافات العلمية وتحييدها كاكتشافات غاليليو غاليليه وكوبرنيكوس _وجميع هذه الأمور ما هي إلا أمثلة أخرى عن ميم «الجَهل نعمة». إنّ جميع أجهزة الرّقابة وأخواتها كالتغييب (كالبروباغندا الحكوميّة الرقابيّة)، على الأرجح قديمةٌ قِدَمَ الكتابة نفسها، بل ربّما أقدَم من ذلك. عملياً كلّ منظّمة أو مؤسّسة أو هيئة تمارسها بدرجة معينة، بدءاً من الطبيب، للمرشّح السياسي، أو نجم سينمائي أو شركة، إلى الأسرار العسكرية الحكومية، إلى الرقابة العلنية التي تمارسها الحكومات القمعية والاستبدادية كالصين، وكوريا الشمالية. لكن لا شيء يشبه الرّقابة التي تفرضها الأديان على مَرّ التاريخ الإنساني.

ومَع أنّ جدول الكتب الممنوعة الذي أصدرته كنيسة الروم الكاثوليك قد انتهى عهده بشكل رسمي، إلا أنّ الرّقابة الشديدة على الكتابات المضادّة للدّين لم تُصبح بعد جزءاً من الماضي. فأثناء كتابتي لهذه الكلمات، تدور الآن حرب ضروس في المدارس الأمريكية الحكومية لمنع تدريس علم التطوّر. وأشهر معركة جَرَت حول هذا الموضوع دارت عام 1925 «محاكمة سكوبس

مونكي»، التي دارت رحاها في قاعة محكمة ريف تينيسي، والتي كانت بمثابة هزيمة شرعية للتطوّر (حَكَم القاضي أنّ مَنع تعليم نظرية التطوّر في حصص العلوم بالمدرسة لم يكن تعصّباً لأي دين)، لكنّه كان انتصاراً على مستوى العلاقات العامّة بالنسبة للعلم. ولم يَطرأ أي جديد على هذا الصعيد حتى عام 1968 حين أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة قانوناً ينصّ على أنّ القيود والموانع المفروضة على تدريس علم التطوّر في المدارس كانت غير قانونية أو تشريعية لأنّ سببها الأساسي والرئيسي كان التحيّز الديني الأعمى. بدا الأمر وكأنّ العلم قد ربح المعركة لبعض الوقت، حيث تمّ منع تدريس نظرية الخلق والتكوين في جميع المناهج الدراسية، وأصبح علم التطوّر يُدَرّس في جميع المدارس الحكومية تقريباً. لكنّ أنصار نظرية الخَلق بدورهم اخترعوا أو لفّقوا نظرية التفافية جديدة، وتصنّف من ضمن العلوم الزائفة أطلقوا عليها اسم «التصميم الذكيّ»، والتي باتت تهدّد مجدّداً أُسُسَ تدريس العلم في أمريكا. عن طريق تدريس نظرية الخلق والتكوين تحت رداء العلم، بات مسيحيّو أمريكا من المحافظين يحاولون فرض رقابة جديدة على نظرية داروين في التطوّر، ليس عن طريق منعها بشكل مباشر، بل عن طريق التضليل ودسّ السُمّ في العسل.

ميم العصمة من الخطأ

«الكتاب المقدّس كلمة الله المعصومة. إنّه كتاب لا يدخله الشّكّ، خالٍ من الأخطاء في جميع الأمور التي تتعلّق بالإيمان والممارسة، بالإضافة إلى مجالات أخرى كالجغرافيا، والعلم، والتاريخ، إلخ...»

[المبشِّر جيري فالويل]

كانت آلهة الديانات القديمة مَرِنَة ومتغيّرة باستمرار. ليس الآلهة ذاتها، إنّما المفاهيم (التركيبات الميميائية التي تصف كلّ إله)، كانت القصص تسافر من مكان إلى آخر، وتنتقل من شخصٍ إلى آخر، تتغيّر وتتراكب، وبذلك تغيّر من طبيعة الآلهة نفسها. هذه العملية التقريبية، عملية دمج المعتقدات والقصص الميثولوجية ومَزجها أثناء التقاء الحضارات وتفاعلها مع بعضها، هي أساس عمل الميمات وعملية التطوّر الثقافي.

لنأخذ على سبيل المثال الإلهين، زيوس وجوبتر. مبدئياً، كلاهما كانا إله السماء، وكانا يُصدِرَان رعداً وبرقاً عندما يغضبان، لكنّهما كانا يشتركان ببعض الخصائص. كان زيوس، على غرار الآلهة الإغريقية القديمة، إلهاً شخصيّاً مكوّناً من لحمٍ ودمٍ والكثير من العيوب البشرية، لكنهّ كان يمتلك قدرات إلهيّة. الإله الروماني جوبتر بدأ كروح أرواحية/أنيما، أشبه ما يكون بروح ترمز إلى النور السماوي، من دون جسد مكوّن من لحم ودم ومن دون شخصية إنسانية على الإطلاق. كان جوبتر... مُمِلاً. لم تكن هناك قصص وروايات مُبهِجَة أو مخيفة، لا توجد أساطير لإدخال الدهشة إلى قلوب الأطفال الرومان، لا دروس أخلاقية ليتعلّموها من جوبتر اللطيف.

أول ما سمع الرومان بالآلهة الإغريقية عن طريق جيرانهم

الأتروسكانيين[1]، ومن خلال المستعمرات الإغريقية في جنوب إيطاليا حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. كانت آلهة الأولمب الإغريقية اكثر إثارة من نظيرتها الرومانية، وكما سبق وتعلّمنا من دراستنا لعملية التطوّر الميميائية، فقد أصبحت هي «الفائزة»، الناجية. لكنّ الأمر كان أشبه بدمج الآلهة وخلطها أكثر من إحلال آلهة مكان أخرى: أغلب الآلهة الاغريقية كان لها نظراء موجودين في الديانة الرومانية، كان جوبتر يحمل إلى حَدٍ ما هوية زيوس، حيث تَبَنّى كافّة القصص والروايات الميثولوجية التي كان يرويها الإغريق لعدة قرون. وعند نهاية عملية الجمع والمزج، أغلب ميمات ميثولوجيا زيوس قد ربطت نفسها بجوبتر، ممّا جعل الإلهين إلهاً واحداً غير متمايز. عمل جوبتر على الاحتفاظ باسمه. وهناك شيئاً آخر، لم يكن الإغريق والرومان حالة فريدة طبعاً، فاللاهوت الاسرائيلي المبكّر كان عرضةً لنفس العملية التطوّرية _التقاربية. على سبيل المثال، قصّة طوفان نوح كانت منقوشة قبل ذلك على ألواح مدينة ماري (تقع في سوريا الحالية) يعود تاريخها إلى ما قبل حوالي

(1) الحضارة الإتروسكانية كانت حضارة في إيطاليا القديمة، تقريباً في المنطقة القائمة فيها الآن توسكانا وغرب أومبريا وشمال لاتسيو، وأجزاء شمالية في وادي بو التي هي الآن إميليا، رومانيا، وجنوب شرق لومبارديا، وجنوب فينيتو، وجنوباً في بعض مناطق كامبانيا الحالية. الأتروسكانيون هم شعب غامض أنشأ حضارتهم في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. في أراضي إيطاليا الحالية شمال غرب روما. مارست ثقافتهم تأثيرها أولاً على اليونان القديمة، ثم على روما القديمة، إلى حد أنّ أول الأباطرة الرومان كانوا من الأتروسكانيين. يمكن تتبّع تأثير الأتروسكانيين إلى إفريقيا (قرطاج)، كانوا الأمة المهيمنة والمكونة للثقافة في كل أوروبا، ثم حرفياً أمام أعين أوروبا كلها اختفوا فجأةً في فترة تاريخية قصيرة. تم تطوير مدن الأتروسكانية التجارية ومراكز دينية، وتم تزيينها بعدد كبير من المباني الطقوسية الحجرية الرائعة والتماثيل والجداريات وغيرها من الأعمال الفنية. صهر الحرفيون الأترووريون النحاس والحديد ، وقام المزارعون بزراعة الحبوب والكتان والعنب. السفن التجارية الأتروية قد حرثت البحار والمحيطات.

2000 سنة ق.م، باستثناء أنّه في ملحمة ماري كان أوتنابشتيم[1]، بدلًا من نوح، هو الذي بنى الفُلك. كلا الروايتين، ملحمة ماري أوتنابشتيم، وقصّة نوح، تحتويان على عناصر مشتركة كبِنَاء فُلك، طوفان كارثي يُغرِق الأرض، سَير الفلك في المياه فترة زمنية معينة، إرسال طيور لاستكشاف مواقع اليابسة، وتقديم أضحية امتناناً للآلهة عندما وصل الجميع بخير وسلامة.

لقد وصلت عملية التطوّر إلى نقطة مسدودة عندما اخترع اليهود فكرة «الدّين المكتوب أو الكتابي». يقول التّراث اليهودي أنّ التوراة قد أنزلَت أو أوحيَ إلى موسى من الله، لكنّ التاريخ يرينا أنّه بدءاً من حوالي 850-800 عام ق.م، ظهر كاتبان أحدهما يُعرَف بال«يَهويّ» والأخر بال«إيلوهيّ»[2]. وبَدَءا بجمع القصص والروايات اليهودية وتدوينها. الإيلوهي، كان كاهناً لاويّاً، وقام بتدوين أجزاء أساسية من سفر التكوين، الخروج، والأعداد. أمّا «اليهويّ»، وكان على الأرجح امرأة، وليس كاهناً، فكانت أكثر الكتّاب التوراتيين إنتاجاً. فأعمالها تتضمّن أجزاء كبيرة من التكوين، يوشع، القضاة،

(1) أوتنابيشتيم: هو شخصية في ملحمة جلجامش الذي كلفه إنكي بالتخلي عن ممتلكاته الدنيوية وإنشاء سفينة عملاقة تسمى الحافظ من الحياة. وقد كُلف أيضًا بإحضار زوجته وعائلته وأقاربه إلى جانب الحرفيين في قريته والحيوانات والأطفال والحبوب. قدوم الفيضان سوف يمحو كل الحيوانات والناس إلا من كان على السفينة، وهو مفهوم مشابه للقصة التي ذُكرت في التوراة والقرآن لسفينة نوح. وبعد مرور أثنا عشر يومًا على الماء، فتح أوتنابيشتيم فتحة السفينة لينظر حوله ورأى منحدرات جبل نيزر، حيث أراح سفينته لمدة سبعة أيام. وفي اليوم السابع، أرسل حمامة لمعرفة ما إذا كانت المياه قد انحسرت، ولم تتمكن الحمامة من العثور على شيء سوى الماء، لذلك عادت. ثم بعث السنونو، وكما عادت التي قبله، عاد هو الآخر، بعد أن لم يجد شيئًا. وأخيراً، أرسل الغراب، ورأى الغراب أن المياه قد تراجعت، لذلك حلق حولها، لكنه لم يعد. ثم أطلق أوتنابيشتيم جميع الحيوانات، وقدم تضحية للآلهة. ثم جاءت الآلهة له، لأنه كان قد حافظ على بذرة الإنسان في حين بقي موالي وواثق بألهته، وأُعطيت لأوتنابيشتيم وزوجته الخلود، وكذلك مكانًا بين الآلهة السماوية.

صموئيل1، صموئيل2، والملوك، ومن المرجّح أنّها ساهَمَت في كتابة سفر الخروج، الأعداد، والتثنية.

ثم جاء بعد اليهوي والإيلوهية، «المصدر الكهنوتي» (حوالي 700 ق.م)، «المشرّع» (حوالي عام 600 ق.م) و«المحرّر» (حوالي 350- 400 ق.م). يتّفق أغلب الباحثون أنّ هؤلاء الخمسة، الذين غالباً ما يُشَار إليهم بالاختصارات التالية R, D, P, J, E هُم مَن دَوّنوا أغلب القصص التي أصبحت اليوم تُعرَف بالتوراة، لكن هناك خلافٌ في الرأي حول هذا الموضوع، إذ يجادل البعض قائلاً بأنّ التوراة هي عبارة عن مجموعة من النّصوص الأصغر. في كلا الحالتين، أغلب الباحثين يوافقون بأنّ هذه النّصوص مدوّنة في وقتٍ ما خلال الفترة ما بين 300- 900 ق.م.

كانت الولادة الحقيقية لميم «العصمة من الخطأ» أثناء التجمّع الأكبر للعلماء والكتّاب اليهود حوالي عام 450 ق.م. فحسب التّراث اليهودي، قام رجال المجمّع الأكبر بجمع محتويات التاناخ على النحو الذي هو عليه اليوم، والتي بَقِيَت على شكلها الأصلي من دون أي تغيير منذ ذلك الوقت. العلماء المعاصرون يقولون أنّ محتويات التاناخ قد استمرّت بالتطوّر لعدّة قرون أخرى، حتى وصلت إلى شكلها النهائي حوالي عام 200 ق.م، وظلّت تطرأ عليها تغييرات طفيفة لحوالي أربعمئة سنة أخرى.

كان هذا أحد أهم الأحداث في تاريخ الدّين. فللمرّة الأولى في التاريخ أصبح هناك كتاب مقدّس رسمي، سِجِلّ صحيح لكلام الله. كافّة الكتابات التي لم تكن مُتَضَمّنة التاناخ كانت تسمّى «منحولة» _فقد تمّ فحصها والتدقيق فيها من قبل رجال المجمّع الأكبر. علاوة على ذلك، التوراة أو الجزء الأهم والأكثر قداسةً في التاناخ، قيل أنّها كتبت بيد موسى نفسه بوحيٍ من الرّبّ مباشرةً. بمعنى آخر، التوراة كانت كلام الله الخالص، كلام كامل

ومثالي وخالٍ من أيّة أخطاء من أيّ نوع. كان ذلك أصل ونشأة ميم «العصمة من الخطأ».

كان لميلاد الديانة المسيحية صدىً عظيماً لنفس التاريخ. فبعد موت يسوع حوالي عام 30 م، تحوّلت أقواله وأفعاله إلى أساطير وحكايات شفهية دارَت بين أعضاء الجالية المسيحية. وعلى غرار القصص اليهودية في التوراة، كانت قصص حياة يسوع عرضةً للعوامل التوفيقية للحضارة الإنسانية: الفلكلور والقصص التي كانت شائعة قبل زمن يسوع تمّ مزجها وخلطها ضمن وعاءٍ واحد، ممّا أدّى إلى تحويل الرجل من معلّم ومُجَدّد مُنشَقّ إلى شبه إله، ولاحقاً إلى تجسيد ليهوه.

والحال أنّ الفترة الشفهية كانت قصيرة، فقد كان التّراث اليهودي المؤسّس والمترسّخ فيما يظهر بالدين المكتوب يعني أنّ المسيحيين الأوائل (الذين كانوا ما يزالون يهوداً) قد بدأوا بوضع القصص والروايات والأخبار على الورق. وقد استمرّ ذلك لقرنين من الزّمن، حتى انعقاد المجمّع المسكوني في نيقيا، وعلى غرار أسلافهم في المجمّع الأكبر تمّ اختيار عدّة كتابات حول حياة يسوع، وإعلانها وحدها على أنّها الكتابات المقدّسة الرسمية والشرعية، الكتابات الصحيحة، الكلام المعصوم من الله نفسه. أمّا أعمال المنشقّين والمنعزلين عن المجمّع المسكوني فقد جرى اعتبارها مزيّفة و«منحولة»، وجرى إقصاؤها وحرقها، حتى لا تربك أو تشوّش المسيحيين «الحقيقيين».

ظلّ ميم العصمة ساكناً، يفعل فعله لكنّه لا يغيّر الكثير، وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر. لقد سلّطت العصور الوسطى وعصر النهضة الضوء على العقلانية الاغريقية وأعادتا اكتشافها، وتمّ إحراز خطوات تقدّمية رائعة في المنطق والرياضيات. كان عمالقة الفكر كالفيلسوفين رينيه ديكارت وشهاب الدين السُهْرَوَرْدِي مبهورين جدّاً بانتصارات ونجاحات المنطق

الحديث لدرجة أنّهما حاولا تطبيقه على الدين، «مُثبتين» أنّ الله موجود عن طريق سلسلة من الخطوات الاستدلالية والاستنباطية القائمة على أساس حقائق معروفة ومثبتة.

خلال أوائل القرن التاسع عشر، ظهر جيلٌ ثانٍ من الفلاسفة المعاصرين الذين أخذوا يطبّقون نفس مبادئ المنطق هذه لإثبات «عصمة» الكتاب المقدّس. وصلت هذه الحركة إلى أوجها عندما نشر هارولد ليندسِل كتابه «صراع من أجل الكتاب المقدّس»، وهو كتاب انتقادي جدّاً وهجومي ضدّ أيّ شخصٍ يُشَكّك في عصمة الكتاب. أكّد ليندسِل أنّ الإيمان بالعصمة كان المقياس الحقيقي للمسيحي التبشيري، وأنّ أولئك الذين لا يريدون التأكيد على عصمة الكتاب المقدّس لم يكونوا مؤمنين حقيقيين. أغلب المسيحيين النموذجيين اعتبروا أفكار ليندسِل مثيرة للخلاف والجدل، وقد جعل الأمر أسوأ عندما هاجم أشخاصاً، بالاسم، يُعتبَرون من الزعماء والقدّيسين المسيحيين ورؤوس الكنائس.

بغضّ النظر عن دوافع ليندسِل أو مناهجه وطرقه، فموضوع العصمة ما زال أحد أكثر المواضيع أهمّيةً في الديانة المسيحية، بالإضافة إلى اليهودية والإسلام. عشرات أوراق البحث تُكتَب كلّ عام، وآلاف المواقع الالكترونية التي تناقش جميع هذه النقاط التي تتعلّق بالموضوع.

ما زال ميم «العصمة» مستمرّاً في عمله. وأهمّ أهدافه حتى الآن هو علم التطوّر بحدّ ذاته، وهو أحد العلوم القليلة التي تتعارض بشكلٍ صريح ومباشر مع التعاليم التوراتية. لكنّه يدخل في مناقشة مسائل الأخلاق والقوانين والشرائع، سواءٌ إذا كان زواج المثليين أمراً مسموحاً به أو غير مسموح، فالمعارضون دائماً يشيرون إلى سفر التكوين (سدوم وعمورة) واللاويين، وبما أنّ الكتاب المقدّس معصوم، فلا مجال للنقاش إذن.

غالباً ما «تُسرَق» الميمات الناجحة وتُدمَج مع الميمات الأخرى، وميم «العصمة» لا يشكّل استثناء. فعندما تلا النّبي محمد كلام القرآن على كَتَبَته، يقال أنّه كان يتحدّث بصوت الله نفسه، ينطق بكلمات الله. وبما أنّ الله كاملٌ بشكلٍ مطلق، والقرآن هو كلام الله، فلا توجد أي أخطاء في القرآن حسب المعتقد الإسلامي.

يضيف ميم «العصمة» وزناً كبيراً إلى مرجعية كلٍ من التاناخ، والإنجيل، والقرآن. ومن دونه، فإنّ أيّ مقطع أو آية من هذه الكتب المقدّسة تصبح مفتوحة أمام التأويل والتفسير، ويصبح للمؤمنين حرّية التشكيك في أصالة وعصمة أيّ شيء. لا شيء يمكن أن يكون مؤكّداً. لكن عند إضافة ميم «العصمة»، يصبح الكتاب المقدّس نهائياً والفَصل بشكلٍ كامل. فإذا تمّت كتابة أي شيء وتدوينه، فهو كلام الله، وانتهى الأمر.

ميم الشهادة

«الشهادة هي السبيل الوحيد الذي يمكن للإنسان من خلاله أن يصبح مشهوراً بدون أي موهبة»

[جورج برنارد شو 1856- 1950]

إنّ التفجيرات الانتحارية الارهابية على الأرجح من أسوأ آفات العالم الحديث. نكاد في كل يومٍ تقريباً نقرأ عن إرهابي «شهيد»، قد فجّر نفسه (غالباً ما يكون ذكراً) بين عشرات أو حتى مئات الأشخاص الأبرياء الذين يسقطون ما بين قتيل وجريح. هؤلاء الشّهداء يؤمنون فعلاً أنّ شهادتهم ستمنحهم بطاقة ذهبية إلى الجنّة، وأيّة جنّةٍ هذه! أنهارٌ وينابيع (من اللبن والعسل والخمر)، مختلف أنواع الطعام وصنوفه، واثنان وسبعون فتاةً عذراء. وليس هذا فقط، إذ لا يقتصر الأمر على العذراوات فحسب، بل إنّ الرجل لن يستنفذ طاقته الجنسية أبداً، بل سيتمكّن من تلبية رغبات أولائي العذراوات، والأفضل من ذلك أنّه وبعد كلّ جماع جنسي، فإنّ الفتاة التي استمتعت بممارسة الجنس مع الشهيد ستعود عذراء مرّةً أخرى! هكذا أخبرونا.

المضحك والمثير للسخرية أنّ هؤلاء الرجال ليسوا شهداء على الإطلاق، ليسوا كذلك على الأقل من وجهة نظر أيّ تيّار ديني نمطي. فكلمة «شهيد، *Martyr*» تعني الشخص الذي قُتِلَ أو عانى بشدّة في سبيل معتقداته الدينية أو مبادئه، عادةً لأنّه يرفض التنكّر لمعتقداته، أو يرفض الاعتراف بآلهة أخرى غير إلهه. على عكس الإرهابيين الانتحاريين، فالشّهداء الحقيقيون هم بكلّ بساطة مُخلِصون لدينهم وإيمانهم، ولو كلّفهم ذلك حياتهم. الشهداء

الحقيقيون لا يَسعون وراء الموت، وبالتأكيد لا يقتلون الأبرياء كجزءٍ من شهادتهم. ميم «الشهادة» هو أيضاً واحد من الآليات البقائية القوية التي تطوّرت كجزء من فيروس الدين. الأديان في حالة دائمة من التنافس مع بعضها البعض، وجزءٌ كبيرٌ من تلك المنافسة قد تتضمّن القسر والاكراه والملاحقة. وقبل زمن يسوع بقرونٍ طويلة، عانى اليهود كثيراً على أيدي الإغريق عندما رفضوا إنكار شريعتهم اليهودية وانتهاك قوانينها، من بينها الاعدامات التي كانت تجري ضد أولئك الملتزمين بيوم السبت [الشابات]، أو لرفضهم تكريم الآلهة الوثنية الرّسمية للحكومة اليونانية. بمعنى، كانت الشهادة عَرَضاً جانبياً من أعراض ميم التوحيد اليهودي، لأنّه قبل ظهور فكرة التوحيد، لم يكن لدى الناس أيّة مشكلة في تكريم آلهة أخرى والصلاة لها ـ بل كانت علامة على الاحترام. أمّا باقي الآلهة الأخرى لم تكن تشعر بالغيرة أبداً من بعضها الآخر. لكن كما سبق ورأينا في دراستنا هذه، فإنّ التوحيد دائماً يجلب معه الاضطهاد والملاحقة في أي مجتمع تعدّدي/ شركي. وبذلك، كانت الشهادة عَرَضاً جانبيّاً حتميّاً للتوحيد. فعن طريق رفض المشاركة في الطقوس الوثنية في ذلك الوقت، فقد جنى اليهود على أنفسهم أو كما يقال جلبوا الدّبّ وأدخلوه إلى كرومهم، وقد تحوّل الاضطهاد والملاحقة إلى خطر حقيقي للتركيبة الميميائية ليهوه. لقد طوّرت الديانات آليات مختلفة لمقاومة الإكراه والجبر، بعضها درسناها في الجزء الذي يتناول ميم «الجنة/ النار» (جوائز مُجزية/ عقاب للإقدام على خيارات صحيحة/ أو خاطئة)، وميم الذنب. لقد أضاف ميم الشهادة سلاحاً جديداً إلى ترسانة فيروس الدين لمقاومة الاكراه والقسر: هؤلاء الذين يموتون كشهداء يتحوّلون إلى أشخاص مبجّلين: قدّيسين.

كان لليهود ميم شهادة راسخٌ وقوي جدّاً قبل وصول يسوع إلى المشهد،

إلا أنّ يسوع قد نقّى ورفع من شأن هذا المفهوم وكرامته خلال خطبته على الجبل:

«طوبى للمطرودين من أجل البرّ، لأنّ لهم ملكوت السماوات، طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي، كاذبين. افرحوا وتهلّلوا، لأنّ أجركم عظيم في السماوات .....» [متى 5: 12-10]

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» [متى 5: 43-45]

هذا ميم رائع واحترافي. إنّه يقول للمسيحيين أنّه كلّما ساءت الأمور أكثر، أصبَحَت أفضل ممّا قبل. وكان هذا ضروري جداً بشكل خاص خلال الأيام الأولى للمسيحية عندما كانت ما تزال أقلّية دينية مُطارَدة ومُضطَهدة. المسيحيون الذين كانوا يعانون في سبيل إيمانهم كانوا بحاجة لأيّ مساعدة مُمكنة يمكنهم الحصول عليها. كان ميم «الجنّة» بداية موفّقة، لكنّ ميم الشهادة قد منح المسيحيين شيئاً للتمسّك به عندما كانت تسوء الأمور كثيراً.

لا بدّ أنّه قد عمل على نحوٍ ممتاز، لأنّ المسيحيين قد أصبحوا معروفين بعنادهم. يصف ترتوليان (ما يقارب 155- 230 للميلاد)، زعيم مسيحي وكاتب غزير الانتاج، مجموعة من المسيحيين في أفسس (مدينة قديمة تُعرَف الآن بإزمير في تركيا) كانوا يطالبون بالشهادة على يَد الرومان. قام القادة الرومان بإعدام البعض منهم، لكنّ الباقين كانوا يُرسَلون بعيداً ويُنفَون تحت عنوان «مخلوقات بائسة، إذا كنتم تريدون الموت حقّاً، فلديكم ما يكفي من هُوَى الوديان وحبال المشانق».

تأمّلوا النسخة الرسمية من ميم الشهادة الخاصّ بكنيسة الروم الكاثوليك:

«هؤلاء الذين يعانون أو يموتون في سبيل الدّين دون أن يكونوا قد تعمّدوا من قبل، فإنّهم يُعَمّدون عند موتهم مع المسيح. هذا العِماد بالدم، مثل الرّغبة بالعماد، يؤتي ثمار العماد من دون أن يكون قدّاساً» [الكنيسة الكاثوليكية، تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، ج2، الفصل الأول، مادة رقم 1، قدّاس العماد]

طبعاً قدّم ميم الشهادة للدّين خدمات جليلة على مَرّ السنين. فهو يأتي في أشكال مختلفة، لكلّ دينٍ من الديانات الابراهيمية الثلاثة، وكلّ ديانة من هذه الديانات لها تعريفٌ خاص ومختلف لمفهوم الشهادة، لكنّ الفكرة الأساسية _أنّ أولئك الذين يعانون ويموتون في سبيل دينهم لهم مكافآت مجزية في الجنة_ عامّة ومشتركة فيما بينها. لقد ساعد ميم الشهادة كلاً من الديانة اليهودية والمسيحية والإسلام على البقاء والاستمرار، بل والازدهار حتى، خلال أوقات الشدّة والاضطهاد.

الأشكال المختلفة لميم الشهادة تُظهِر إحدى أكثر الفوائد المثيرة لاستخدام نظريّة الميمات أو وجهة النظر الميميائية لدراسة الدّين. لقد بدأنا هذا القسم بالكلام عن منفّذي العمليات التفجيرية من الإرهابيين الانتحاريين، وكيف أنّ أغلب الأمريكيين يعتقدون أنّ الإرهابيين الاسلاميين جميعهم قادمون من خلفيات متخلّفة وأمّية وغير مثقّفة وتم إغوائهم لتفجير أنفسهم من أجل الوعد بإثنان وسبعين عذراء من الحور العين، في الواقع، أغلب المدارس أظهَرَت أنّ هذه النظرة خاطئة ومغلوطة، فأغلب الانتحاريين من الارهابيين تدفعهم معتقدات سياسيّة وليست دينيّة، وأغلبهم مثقّفون ومتعلّمون ومن بينهم من هم من أعلى درجات التحصيل العلمي، وينتمون إلى الطبقات الوسطى، بل والغنيّة حتّى. لكنّ ميم «الإرهابي الانتحاري»

النّمطي عند الأمريكيين هو بحَدّ ذاته مثال على مبدأ «البقاء للأصلح»: لسببٍ ما، يحبّ الأمريكيون هذا الميم ويتبنّونه. إنّهم لا يريدون أن يعرفوا أنّ مسألة كراهية السياسات الأمريكية الخارجية هي مسألة معقّدة جدّاً، ولها جذورها الراسخة بعيداً في الزمن منذ حقبة الامبريالية الأوروبية. سيفضّل الأمريكيون الاعتقاد أنّ أي أحدٍ يكرههم خطيرٌ بشكل ما ومؤذٍ، وأنّ كراهيته ليست منطقية أو عقلانية. فميم الـ 72 عذراء من الحور العين أحَبّ إليهم بكثير، لأنّه يزيل اللوم عن أكتافنا. إنّ بقاء ميم الـ 72 عذراء ليس له أيّ علاقة سواء أكان صحيحاً أو خاطئاً، أهمّ شيء هو أنّه يعجب الأمريكيين.

ميم «الضحية» أو «المظلوم»

«لم أرَ قَط، أو أسمَع، أو أقرأ، أنّ رجال الدّين كانوا محبوبين في أية أمّة انتشرت فيها الديانة المسيحية. لَم يَكُن هناك أيّ شيءٍ يجعلهم مشهورين أو معروفين، سوى محاكم التفتيش والاستقصاء»

[جوناثان سويفت]

لقد استغلّ ميم «الضحيّة» أو «المظلوم» أو «المضطهد» أو «المهضوم حقه» حقيقة أنّ الناس المظلومين والمضّطهدين يميلون للتضامن مع بعضهم والدفاع عن بعضهم البعض. هذا الميم هو أحد الأقارب المقرّبين من ميم «الشهادة».

في رواية جورج أورويل الرائعة 1984، نقرأ عن دولة توتاليتارية تُبقي جماهير شعبها البروليتارية في حالة دائمة من الخوف مُستخدمةً أنظمة مراقبة، رقابة، بروباغندا، وبحالة حَربٍ دائمة. لقد علّموا البروليتاريين الخَوف الدائم من الإبادة، أو حتى أسوأ من ذلك، على أيدي أعدائهم، وأبقوهم يعيشون في حالة دائمة من اختلال التوازن تحت خطر الهزيمة. كان البروليتاريون يعملون بشكلٍ محموم ليل نهار لزيادة معدّل الإنتاج من أجل الحرب، ولم يكونوا يشكوّن أو يتأفّفون من السياسة القمعيّة للحكومة. في الحرب، لا يحتمل الأمر أيّة معارضة أو مخالفة للأوامر!!.

صوّر لنا أورويل ببراعة واحدة من أكثر غرائز البشر بدائية: نحن نتجمع مع بعضنا ونتصرّف كمجموعة موحّدة عندما نشعر بالتهديد أو بالخطر. تعود هذه الغريزة في تاريخها إلى ملايين السنين، قبل وجود البشر حتّى. العديد من الحيوانات الاجتماعية والرئيسيات كالكلاب، والجواميس،

والقردة العليا، تمضي أغلب أوقاتها وهي تتقاتل وتتصارع مع بعضها خلال الأوقات الجيّدة، لكن عندما تواجهها بعض الأخطار الخارجية، كحيوانات أخرى مفترسة تتربّص بها، فستنسى الحيوانات مشاكلها وخلافاتها الصغيرة مع بعضها وتتّحد لتدافع عن الجماعة.

لقد عرف اليهود معنى الاضطهاد والظّلم في مراحل مبكّرة من التاريخ. فهناك قصّة الخروج التي تخبرنا كيف تمّ طرد الإسرائيليين وإخراجهم من مصر وإجبارهم على التّيه في الصحراء لأجيال عديدة، حيث أصبحت هذه القصّة رمزاً لتآلف ووحدة المجتمع اليهودي. لنضع جانباً فكرة أنّ القصّة بأكملها قد تكون مجرّد أسطورة (على غرار العديد من القصص الأخرى في التوراة، ليس هناك أي دليل أركيولوجي يثبت صحة الخروج والتّيه).

فقصّة شجاعة الاسرائيليين في وجه الاضطهاد والمعاناة هي واحدة من أكثر الميمات قوّةً وثباتاً وإصراراً في الديانتين اليهودية والمسيحية.

كان المسيحيون هم الضحيّة التالية. فاضطهادهم على يَد الرومان أمرٌ أسطوريّ حقيقةً، ناهيك عن أنّهم اضطهدوا بعضهم البعض بضراوة ووحشية، وهذه القصّة تطرّقنا إليها سابقاً. منح هذا الاضطهاد المسيحيين _على الرغم من قساوته وضَراوته_ نقطة أفضليّة، ولمّ شملهم ووحّدهم ضمن جماعة واحدة متعاونة.

ميم المضطهد أو المظلوم هو السبيل الذي يَضمَن الدّين من خلاله أن يفكر الناس _بغضّ النظر عن مدى حسن سير الأمور_ أنّهم مُضطَهَدون من أجل أفكارهم ومعتقداتهم. اليوم في أمريكا، عندما نجري بحثاً على الشبكة العنكبوتية عن «المسيحية والاضطهاد» فإنّنا نشعر وكأنّنا عُدنا إلى أيّام الرومان حين كان المسيحيون يُطعَمون للأسود ويمزّقون إرَباً بأنياب

الكلاب. فعلى الرّغم من أنّ المسيحية ما زالت حتى الآن هي الدّين المسيطر والمهيمن في أمريكا، كما أنّها تتمتّع بأكبر قسطٍ من الحرية الدينية أكثر ممّا كانت من قبل، كثيراً ما يميل الكتّاب المسيحيون لأن يبدوا في مظهر ضحايا القمع والاضطهاد والسخرية من معتقداتهم.

هذا مثال آخر عن عملية التطوّر الميميائية خلال عملها. الأديان التي تبنّت ميم «المظلوم أو الضحية»، أو عادَة تفسير أي شيء خارج سياق معتقدها أو تعاليمها هو هجومٌ صارخ عليها، قد نَجَت ونَجَحَت بشكل رائع. فهي تُبقي «الطبقات الأخرى» في حالة خَلَل دائم، وتبقي القادة والزعماء الدينيين في الصدارة دوماً. فالناس يرغبون دوماً باتّباع زعيمٍ قويٍّ عندما يشعرون بالخطر والتهديد، والزعماء يكونون أكثر هشاشةً وضعفاً أمام التحدّيات إمّا عندما يفشلون بشكلٍ ذريعٍ وكامل، أو عندما تحلّ أوقات السلام والازدهار. لذا فحتّى في أوقات السلام والازدهار، سترى اليهود والمسيحيين، والمسلمين مؤخّراً، يؤكّدون دوماً بأنّهم ضحايا القمع والاضطهاد، وأنّ نمط حياتهم ومعتقداتهم مهدّد بالانقراض والزوال، إنّهم ضحايا الاضطهاد.

ميم «أمّةٌ واحدة تحت الرّبّ»

من أهمّ معارك الميمات اليوم هي فرض سيطرة الدّين على الحكومة الأمريكية. فما يسمّى الآن «باليمين المتديّن» يحاول زرع فكرة أنّ أمريكا قد تأسّست على أيدي المسيحيين، وللمسيحيين، وأنّها يجب أن تكون بلداً مسيحياً. على المستوى السطحي، قد يبدو هذا الادّعاء معقولاً. فحسب وكالة الاستخبارات المركزية CIA، إنّ التوزّع الديني في أمريكا عام 2002 كان على النّحو التالي: ٪78 مسيحيين: ٪52 بروتستانت، ٪24 روم كاثوليك، ٪2 مورمون. ٪12 غير مسيحيين: ٪1 يهود، ٪1 مسلمين، ٪10 آخرون. ٪10 لا شيء.

يشير المسيحيون إلى هذه الأرقام، بالإضافة إلى العديد من المواد التي وَرَدَت فيها كلمة «الله/الرب» في دستورنا التأسيسي، التي يستخدمونها لدعم مزاعمهم وادّعاءاتهم التي تقول بأنّ أمريكا تأسّست كدولة مسيحية، وأنّ الاتجاه العلماني عند الحكومات الحالية عبارة عن فساد حَدِيث العَهد وضلال وابتعاد عن المبادئ التأسيسية لأمّتنا العظيمة.

«إنّ حكومة الولايات المتحدة لم تؤسّس بأي شكل من الأشكال حسب مبادئ الديانة المسيحية» [المادة 11 من معاهدة طرابلس، المُبرَمَة من قبل شيوخ الولايات المتحدة (7 حزيران/يونيو 1797) والموقعة من قبل الرئيس جون آدامز (10 حزيران/يونيو 1797)]

إنّ وثيقة طرابلس التي كُتِبَت أثناء فترة رئاسة جورج واشنطن، تمّ توقيعها وتصديقها من قبل سيناتورات الولايات المتحدة، ووقّع عليها الرئيس جون آدامز تثبت وتبيّن _بالألم نشرح_ أنّ الآباء المؤسّسون لم يكونوا راغبين بإقامة دولة دينية. وذلك يتناقض بشكل صارخ مع تاريخ اليمين المتديّن المزعوم:

«فكرة أنّ الدّين والسياسة لا يلتقيان قد اخترعها الشيطان نفسه لإبعاد المسيحيين عن دينهم وبلدهم»

[الواعظ جيري فالويل]

الجانب الأكثر إثارة للاهتمام لهذا النقاش يتمثّل في أنّ اليمين المتديّن الأمريكي قد نجح في إقناع الكثير من الأمريكيين بأنّ نسختهم من التاريخ صحيحة وحقيقية. هذا وبالرغم من حقيقة أنّ «الآباء المؤسّسين» لأمريكا كانوا مُدرِكين تماماً لمخاطر وشرور الحكومة المؤسّسة على أُسُسٍ دينية، إذ أنّهم كانوا قد شهدوا المشاكل والكوارث التي سبّبها هذا النمط من الحكومات. لذلك صاغوا الدستور الأمريكي بحذرٍ شديدٍ للحفاظ على الحكومات المستقبلية علمانية بعيدة عن التديّن. لم يكونوا معادين للدّين، بل على العكس. فالهدف من إبقاء الحكومات علمانية هو لضمان حَقّ الحرّية الدينية في أمريكا. وقد نجح ذلك: بفضل بصيرة وبُعد نظر هؤلاء الذين كتبوا الدستور، باتَ بإمكان جميع الأمريكيين عبادة أيّ إلهٍ يريدون واعتناق أي دينٍ يفضّلون. أمريكا فيها أعضاء من جميع الديانات تقريباً يعيشون ويمارسون طقوسهم وعباداتهم بحرّية.

لذلك علينا أن نسأل: لماذا اليمين المتديّن متحمّسٌ جدّاً لجعل حكومتنا مسيحيّة بدلاً من جعلها علمانية؟ في النهاية، يَضمَن الدستور العلماني للمسيحيين الحَقّ في أن يعبدوا ويمارسوا طقوسهم بحرية _ما الذي يريدونه أكثر من ذلك؟ ما المشكلة؟ لماذا هذا التغيير الجذري للحكومة مهمٌ إلى هذه الدرجة؟.

الجواب بسيطٌ جداً: أثناء مرحلة تطوّر التراكيب الميمائية للأديان المعاصرة، فإنّ أحد الميمات الناجحة على الاطلاق هو أنّ الدّين يجب أن

يكون جزءاً حيوياً ورئيسياً من الحكومة. هذه هي أقوى الخدع الناجحة التي ابتكرها فيروس الدّين حتى الآن. الأديان التي تزاوجت مع الحكومات، أو الحكومات الدينية، هي أكثر نجاحاً من الأديان التي تبقى منفصلة عن الحكومة أو السياسة. بمعنى آخر، هذا الميم أصبح ناجياً، أحد الميمات التي جعلت من المسيحية ديانة أكثر نفاذاً ممّا لو كانت غير ذلك (وذلك يصحّ على جميع الديانات، وبشكل خاصّ الاسلام الحالي، لكن من أجل هذا القسم، فإننا نركّز هنا على المسيحية في أمريكا).

لقد كان الدّين والحكومة ممتزجان منذ بداية التاريخ المكتوب على الأقل. إلا أنّ هناك كاتب شهير وذائع الصيت، أوريليوس أوغسطينوس، المعروف باسم القدّيس أوغسطين، قد وضع التبرير على الورق كما فعل أيّ شخص على مَرّ التاريخ. وبما أنّ كتاباته هي من بين أكثر الكتابات تأثيراً في تاريخ الكنائس المسيحية، بعد القدّيس بولس فقط، لذا فهي تستحق منّا بعض الانتباه. قال أوغسطين أنّه بالرغم من أنّ مُدُنَ الإنسان لم تكن لتُقارَن مع مدينة الله، إلا أنّه: «لم يَكُن بمقدور الكنيسة أن تتجاهل أو تُهمِلَ الدولة، بل عليها إرشادها لحماية البشر من طبيعتهم الخطّاءة الخاصّة. على الدولة أن تُنزِلَ العقاب وأن تتعامل بصرامة لضبط الناس، الذين هم مخطئون بالفطرة، من تدمير بعضهم البعض مع أولئك القلّة القليلة من الرجال والنساء الذّين اختارهم الرّبّ واصطفاهم من بين جميع خَلقه» [القدّيس أوغسطين، مدينة الرّبّ]

إنّ الشراكة بين الدّين والحكومة هي طريق ذات فرعين. الدّين يستفيد كثيراً إذا أصبح هو قانون الأرض _ففي النهاية، لن تذهب إلى السجن إذا قَتَلتَ أو عَذّبتَ أو اضطَهَدتَ باسم دينك وفَرَضتَ قانون الله وشريعته على الأرض. كما أنّ الحكومة تكسب الكثير من الفوائد إذا كان الله بجانبها.

فمَهما كانت القرارات التي تتّخذها الحكومة يمكن أن تكون نابعة من الله، ويصبح من الصّعب المجادلة بأنّ الحكومة على خطأ عندما تنبع سلطتها من عند الله.

لذلك، ليس من المستغرب أنّ اليمين الدّيني المتطرّف في أمريكا يسعى جاهداً لفرض نسخته الخاصّة من المسيحية وحشر قيمها ومبادئها حشراً ضمن قوانين الأرض. لقد قام دينهم بتطوير هذا الميم كأفضل ميماته.

تعاون ميمات المناعة وتضافرها

«من الواضح أنّ الشخص الذي يقبل بالكنيسة كمُرشِد معصوم سيؤمن بكلّ ما تمليه عليه الكنيسة»

[القدّيس توما الأكويني]

على غرار باقي مجموعات الميمات التي قمنا بدراستها، فإنّ القوّة الحقيقيّة لميمات المناعة الدّينية تصبح واضحة وجلية عندما نراها كتركيبة ميميائية توافقية متضافرة.

الميم المضادّ للعقلانية وميم «الجهل نعمة» يعملان مع بعضهما بشكلٍ توافقي لإعاقة وإحباط المعرفة والفكر العقلانيين. وإذا اندمجا مع ميم «العصمة من الخطأ»، الذي يقول أنّ الكتاب المقدّس صحيح مئة في المئة، عندها سيتعلّم المؤمنون الثّقة المطلقة بكتابهم المقدّس، والثّقة بدينهم، وتفادي المعرفة العلمانية والتفكير المنطقي. تشكّل هذه الميمات الثلاثة تركيبة ميميائية أقوى بكثير وأكثر فعاليّة من أيّ ميمٍ كان على حِدَة.

ميميّ «الشهادة» و«المضطهد» يعملان مع بعضهما بتوافق لضمان أن يبقى المؤمنون يشعرون بالظلم والاضطهاد وبأنّهم ضحايا التعسّف والقهر، ومع ذلك فإنّ نفس الاضّطهاد سيكون المفتاح للحصول على جوائز ومكافآت لا نهائيّة في الجنة.

ميم «أمّة مؤمنة تحت الرّبّ» يعمل لضمان أن تصبح المعتقدات الدّينية قانوناً للأرض، وأن يصبح القادة والزعماء الدينيون أكثر قوّةً وسلطة. كما أنّه يعمل بالتعاون مع ميميّ «المضاد للعقلانية» و«العصمة» لإبقاء التعاليم والمبادئ العلمانية بعيدة عن المؤمنين، من خلال ضمان توافُق القوانين

السياسية مع المعتقدات الدّينية.

لقد قام الجسم الإنساني بتطوير مجموعة رائعة ومتنوعة من الدّفاعات والأجهزة المناعية لحمايته ضدّ جميع أنواع البكتيريا، والفيروسات، والطفيليات والعديد من الكائنات البائسة التي تهاجمنا وتغزو أجسادنا إذا تمكّنت منّا. وبنفس الشكل، قامت الأديان بتطوير منظوماتها المناعية الخاصّة بها، ميماتها المناعيّة، التي تهاجم المخاطر الخارجية والتهديدات المحتملة من أيّة عوامل خارجية من شأنها أن تضعف إيمان المؤمنين وتشكّكهم في معتقداتهم.

مُلحَق: هذا الكتاب

«في هذا العالم وغيره من العوالم الأخرى التي تحكمها الدّيانة المسيحية، إنّ جريمة الهرطقة ضدّ الله هي جريمة كبرى في طبيعتها، وينبغي المعاقبة عليها بشدّة... بالموت»

[جلسات استئناف ضد توماس آيكنهيد، سجلات قاضي العدل في إدنبره 1696م]

لم أضَع هذا الكتاب عن الدّين. فبذور هذا الكتاب قد تمّ غرسها قبل حوالي عشرين عاماً خلال دراستي لنيل درجة الماجستير في علوم الكومبيوتر بجامعة ستانفورد. وقد حالفني الحظّ لحضور حلقتين دراسيتين في المجالات الحسابية للغة الطبيعية (التراكيب والدّلالات) للبروفيسور العبقري واللامع فينوغارد. في نفس الوقت، كنتُ قد قرأتُ كتاب ريتشارد دوكنز، وقرأتُ فيه عن الجينات الأنانية والميمات الأنانية ومفهوم «فيروسات العقل»، واطّلعتُ أيضاً على مقالة دوغلاس هوفستاتر، «حول العبارات الفيروسية والبنى ذاتيّة التناسخ والانقسام»، الأمر الذي عرّفني على مفهوم الميمات الرائع. لقد قدّم البروفيسور فينوغارد محاجّة قوية جدّاً أنّ الذكاء الاصطناعي الحقيقي (AI أو الحواسيب التي يمكنها التفكير حقاً) سيكون خارج متناولنا وبعيد عن إدراكنا لفترة طويلة جدّاً، وأنّ هذه مشكلة عويصة في الحقيقة. إنّ سِمَة الذّكاء الاصطناعي نفّاذة في خيالنا، من كومبيوتر سفينة ستار تريك والشخصية (داتا)، إلى فيلم (المبيد *Terminator*). أغلب الأشخاص العاديين، (غير علماء الكومبيوتر والمعلوماتية) يعتقدون أنّ أنظمة الذكاء الاصطناعي القويّة باتت قريبة جدّاً وفي متناول اليد. في حصة البروفيسور فينوغارد، تعلّمنا أنّ العقل البشري أكثر إذهالاً وإثارة للعَجَب

والدهشة ممّا نتصوّر، وأنّ أنظمة الذكاء الاصطناعي ما زالت بعيدة المنال. وأثناء كتابتي لأطروحة حصّة البروفيسور فينوغارد، خَطَرَت ببالي فكرة من تلك اللحظات التي تقول فيها عادةً «أها، إنّها فكرة!!»، وعندئذٍ كتبتُ اطروحتي الأولى حول الميمات، حيث جادَلتُ بأنّ أنظمة الذكاء الاصطناعي قد تظهر «كخاصية طارئة وملحّة» للتركيبة الميميائية التي تضمّنت مجتمع علوم الكومبيوتر. كانت فكرة أطروحتي أنّ أيّ نظام كومبيوتر كان ممكناً، لكنّه كان يتجاوز ويتخطّى فهم وإدراك أي عالِم كومبيوتر بمفرده، إذ أنّه حتى وإن لم نَكُن نحن الوحيدون الأذكياء بما يكفي لخلق ذكاء اصطناعي، فمن الممكن بالنسبة لمجال علم الكومبيوتر ككل أن يطوّر ذكاءً اصطناعياً. باختصار، كنتُ قد أدركتُ أنّ القوانين التي اكتشفها تشارلز داروين والتي تقود عملية التطوّر في الطبيعة، يمكن نقلها إلى مستوى أعلى، وتطبيقها على مجالات أخرى.

مَنَحَني البروفيسور فينوغارد درجة جيدة على أطروحتي، أعتقد بأنّه وَجَدَ أنّ أفكاري خيالية وبعيدة الاحتمال ومُستَبعَدَة (وكان محقّاً في ذلك)، لكنّه منحني علامة جيّدة، وأثنى على أصالة فكرتي والقيمة المسلّية لأطروحتي.

كنتُ أرتاد جامعة ستانفورد بفضل منحة دراسات التخرّج من شركة هيوليت باكارد. وبالرغم من أنّني كنت مُمتَنّاً للشركة من أجل المنحة التي قدّمتها لي، لكنّي سرعان ما أصبحتُ موظفاً متحرّراً، إذ أنّهم قد وظّفوني خلال الفترة التي أعقبت تقاعد كل من بيل هيوليت وديف باكارد من إدارة الشركة. فبعد تقاعدهما مباشرةً، بدأت الشركة تنحدر إلى مستوى الأمور العادية، لتتحوّل من شركة فريدة رائدة أشبه بالعائلة، إلى مجرّد شركة من شركات وادي السيليكون المصنّعة للكومبيوترات. كانت تلك الفترة مُحزِنَة جداً بالنسبة لي والعديد من موظفي شركة HP، أن نرى شيئاً مميزاً كهذه

الشركة يختفي ببطء ويموت.

مع استمرار هذا الانحدار في شركة هيوليت باكارد، بدأتُ في التفكير حول الميمات وعملية التطوّر الثقافية، والورقة التي كتبتها من أجل حلقة البروفيسور فينوغارد. لقد تفاجأت بأنّ علم الميمياء أعطاني بصائر حقيقية عن ثقافة شركة هيوليت باكارد المتغيّرة. فشركات وادي السيليكون تتغيّر وتتطوّر، فهي عبارة عن كيانات متنافسة تتشارك مناخاً ثقافياً واحداً. إنّها تتنافس فيما بينها من أجل نفس الموظّفين، كما أنّها تُنتِجُ نفس البضائع والسلع، وهي تبيع سلعها ومنتجاتها لنفس الزبائن، إنّها تدفع نفس الضرائب ، وتشتري من نفس المصادر موادها الأولية. حتى أنّها ترمي نفاياتها في نفس المصارف والمجاري، وهذا أمرٌ بالغ الأهمية أكثر ممّا نعتقد: يتطلّب الأمر صرف ثروة صغيرة لتصريف جميع المواد الكيميائية السامّة والمعادن الثقيلة التي تستهلكها شركات وادي السيليكون وتستخدمها.

كنتُ قد قمتُ ببعض الكتابات الاستكشافية عن مؤسّسة هيوليت باكارد، ثقافة الشركة والميمات، وسرعان ما اكتشفتُ أنّ الميمات تمنحنا بصائر عميقة وهائلة حول جميع مجالات الحياة الإنسانية. توسّعَت كتاباتي الاستكشافية واتّسَقَت أكثر، وشملت النكت، الشركات، الموسيقى، معارف الصيادين/ الجامعين، الأدب... وكان هناك فصل واحد عن الدّين. ثمّ كان هناك عملٌ آخر، انتقال إلى ولاية أخرى، متعة ومشقّة تنشئة ثلاثة أطفال صغار، والعديد من الأحداث الأخرى، التي حَدَثَت من دون أي خيارٍ واعٍ للقيام بها، لذلك وضعتُ الكتاب جانباً. لكنّ اهتمامي بالموضوع لم يخبو أو ينطفئ، وبقيت أقرأ كلّ شيء تقع عليه يداي. كتب دينية، كتب سوسيولوجية، كتب عن الميمياء والميمات، كتب تاريخ، سير حياة مؤسّسي الشركات، وغير ذلك. كلّ شيء تقريباً علّمني أكثر عن سلوك الميمات والتركيبات الميمائية كان

موجوداً في تلّة الكتب التي كنتُ أقرأها.

كان ذلك منذ عقدين من الزمن. خلال هذين العقدين، وقع الكثير من الأحداث: دخلت كلمة «ميم» قاموس الألفاظ الشعبيّة، وقد تمّ نشر العديد من الكتب الجيدة والرائعة حول الموضوع. تغيّر المناخ السياسي والاجتماعي في أمريكا بطريقة دراماتيكية. كان هناك موجة شاملة من التغيّرات، نقلة دراماتيكية وتغيير جذري في المناخ الديني بأمريكا.

كان النقاش الدّيني يميل تارةً نحو المحافظة وتارةً أخرى نحو الليبرالية. عند الجانب المحافظ، كان اليمين المتشدّد في أمريكا يكتسب زخَماً هائلاً في السّلطة والتأثير. وعند الجانب الليبرالي، ظهرت العديد من الكتب النقدية اللاذعة للدّين والمعتقد الدّيني سرعان ما أصبحت في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً مؤخراً: كتاب «الكون المُلحِد» لديفيد ميلز، «تلفيق اقتباسات يسوع» لبارت إيرمان، كتاب ريتشارد دوكنز الطليعي «وهم الإله»، «كَسر التعويذة: الدين كظاهرة طبيعية» لدانييل دينيت، «مُلحِد» لدان باركر، «نهاية الإيمان» لسام هاريس، وكتاب كريستوفر هيتشنز «الله ليس عظيماً». في حين أنّ إيرمان ليس مُلحداً بشكلٍ كامل، إلا أنّ كتابه الموثّق والمنطقي فتح عيون الملايين حول مسألة «عصمة» الكتاب المقدّس. حجج ديفيد ميلز المعقولة والبسيطة التي تدعم وجهة نظر الملحد باتت شائعة ومشهورة جداً. أمّا رفض دوكنز وإقصاءه المباشر للدّين قد يبدو قاسياً بالنسبة للعديد من القرّاء، لكنّ كتابه غنيّ ومنطقي جداً. دينيت بدوره يلقي نظرة فلسفية قريبة وحذرة، مركّزاً على الديانة المسيحية في أمريكا، لكشف محاولاتها الدائمة لفرض سيطرتها على السياسة والحياة اليومية. باركر بدوره يخبرنا قصّته الرائعة لتحوّله من مبشّر مسيحي إلى أحد كبار ملحدي أمريكا. أمّا هيتشنز فيقول أنّ الدين «يسمّم كل شيء»، وهذا كلامٌ قويٌ جداً بالطبع. قبل ذلك

بعشرة أعوام فقط، كان المناخ الاجتماعي-السياسي في أمريكا يجعل من نشر هذه الكتب أمراً مستحيلاً، أمّا اليوم فهي موضوعة على جميع رفوف متاجر الكتب والمكتبات الكبرى.

أمّا الشرارة التي أعادت الحياة لهذا الكتاب فكانت مرض والدي ثم وفاته، وحواراتي مع العمّة كارولين، القصّة التي أوردتها في الملحق الأخير لهذا الكتاب. إنّ مَرَضَ ومَوتَ أحد ما قريبٌ منك يطرح أمامك الكثير من الأسئلة عن معنى الحياة وهدفها. كان جَدّي يرى الدّين بوصفه خلاصاً من «بؤسه»، في حين أنّ والدي كان على العكس تماماً، يُلقي اللوم على الدّين كونه هو السبب الرئيسي لجميع الأمور السيئة في الحياة. كنتُ أعتقد أنّ كلاهما على خطأ، حيث أنّهما كانا يركّزان طاقتهما على الدين بدلاً من حياتهما وأفعالهما. كان جدّي يستخدم الدّين كمخدِّر، أمّا أبي فاستخدم الدّين كعُذرٍ أو شمّاعة.

كنتُ مسروراً لأجد أنّني لم أقع في نفس الشَرَك الذي وقع فيه جدّي وأبي من قبلي، أي استخدام الدّين والتحجّج به للتهرّب من مسؤولياتي في الحياة. فأيّ القرارات قمتُ بها، ومهما كانت الاتجاهات التي اتجهتُ نحوها خلال حياتي، كانت تلك خياراتي وقراراتي الخاصّة. لكنّني ما زلتُ أتساءَل لماذا وقع رجلان ذكيان، متعلّمان، ومثقّفان بشكلٍ جيّد في نفس الشَرَك، لكن بطريقتين مختلفتين؟ هذا السؤال في النهاية ما دفعني لوضع القلم على الورق مرّةً أخرى: للإجابة عن ذلك السؤال، من أجل رضاي الخاص، ولأنّي أظنّ أنّها رسالة في غاية الأهميّة لجميع البشر.

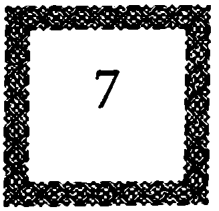

﴿ لماذا الدّين جذّاب ومرغوبٌ إلى هذه الدرجة؟ ﴾

يتساءل غير المؤمنين، بالرغم من جميع الإنجازات والتقدّم الذي أحرزناه في مجالات الفيزياء، الفلسفة، علم الأحياء، والكيمياء، ما زال الناس يتعلّقون بأديان ومعتقدات تمّ اختراعها منذ آلاف السنين؟ لماذا الدين عنيدٌ ومهم لهذه الدرجة؟ إنّ مسألة وجود الله غير قابلة للبرهنة والاثبات بشكلٍ كامل، وليس لها أيّ أساس في العلم أو المنطق. إذن لماذا يؤمن الكثيرون بوجود الله بهذا الحماس والعاطفة المتّقدة؟.

الكلاب وطيور الوقواق

«بما أنّ المسألة بكاملها باتت تتعلّق بالدّين، فالخاسرون سيتم إقصاؤهم حتماً»

[فولتير 1694 - 1778]

هل الصليب الأحمر قادرٌ على إنقاذ الناس من خلال إنقاذه لحيواناتهم الأليفة؟ الجواب على هذا السؤال له علاقة وطيدة بالجانب المُعَنّد للدّين.

في يوم الاثنين بتاريخ 22 اكتوبر عام 2007، استيقظتُ أنا وعائلتي على أصوات صفّارات سيارات الشرطة، تطلب منّا مغادرة منازلنا وإخلاءها

بسرعة. فالنار التي اشتعلت في غابات وايلد كريك كانت تلتهم الأحراج المحيطة بسان دييغو، وأوشكت على الوصول إلى عتبة بابنا. وبأقصى سرعة مُمكنة قمنا بجمع بعض ملابسنا الضرورية، وكلابنا الثلاثة وقطّتنا الوحيدة، تجمّعنا داخل شاحنتنا الصغيرة، وهربنا نحو المحيط، لم نكن نعتقد أنّنا سنرى منزلنا مرّةً أخرى. كان يمكننا رؤية اللهب على بعد نصف ميل، أمّا السماء فكانت مُظلِمَة جدّاً وداكنة وملبّدة بالدخان المتصاعد من الحريق لدرجة أنّنا اضطررنا لتشغيل مصابيح سيارتنا.

وقعت بعض الحوادث المأساوية، حيث مات عدد من رجال الإطفاء الشجعان، لكنّ عملية إخلاء 500000 مواطن تمّت بنجاح، وأبقَت أغلب هؤلاء بعيدين عن طريق الخطر والأذى. كنتُ أنا من بين المحظوظين، لقد تمكّن رجال الإطفاء من إيقاف النار على بعد خمسين متراً من منزلي. الآن تصوّروا لو أنّنا بإمكاننا إعادة نفس المشهد: نار برّية مرعبة وهائلة تلتهم الغابات تقترب منّا، أصوات صفّارات الإنذار تَصدَح، الدّخان يملأ الحيّ، الناس يسرعون لحزم حقائبهم وأشيائهم الثمينة، لكنّنا لو تركنا الكلاب والقطّة خلفنا. ماذا كنتم ستفعلون؟

سرعان ما أدرَكَ عمّال الإنقاذ والطوارئ أنّ أغلب الناس ينظرون إلى كلابهم وقططهم بوصفها أفراد من العائلة بكلّ معنى الكلمة. ملايين الأمريكيين تعاطفوا مع مشهد الكلب المبلّل والمتضوّر جوعاً وهو واقفٌ على سقف منزلٍ محطّم وجذوع الأشجار عندما ضرب إعصار كاترينا منطقة نيو أورليانز. وخلال حرائق ويست كريك، جذع أحد جيراني على قطّه الذي هرب من المنزل خلال عمليّة إخلائهم، وكان عليهم تركه. (عثر لاحقاً على القطّ آمناً وسليماً). وَجَدَ المنقذون وعمّال الطوارئ أنّهم عندما كانوا يطلبون من الناس ترك حيواناتهم الأليفة، كان الأهالي يرفضون ذلك.

كانوا يفضّلون البقاء والمخاطرة أو حتى الموت على ترك حيواناتهم الأليفة المحبوبة خلفهم، قطط، كلاب، أحصنة، تتضوّر جوعاً، أو تغرق أو تحترق. فَعَن طريق إنقاذهم للحيوانات الأليفة، سيكون عمّال الإنقاذ قادرين على إنقاذ المزيد من الأرواح البشرية.

ما الطفيلي؟

«الإنسان هو فكرة الكلب عن الله»

[هولبروك جاكسون]

لقد تعوّدنا على العيش مع الكلاب والقطط، كما أنّنا نشعر بوجود رابطة قويّة تربطنا مع حيواناتنا الأليفة، لذا بات من الصعب جداً «الرجوع خطوة إلى الوراء» ورؤية مدى غرابة هذا الأمر من وجهة نظر الطبيعة. فَمِنَ الغريب وغير المألوف أن يخاطر حيوان (بشري أو غير بشري) بحياته لحماية حيوان آخر من فصيلة أخرى أو نوعٍ آخر. لكنّه ليس أمراً غير مألوف، باستثناء أنّه اذا جرى بين الفصائل الأخرى، فإنّنا سنسميه عندئذٍ باسمٍ مناسب: طفيلية أو تطفّل/ *Parasitism*.

عندما يقول أحدٌ ما كلمة «طفيلي *Parasite*»، سرعان ما يخطر على بالنا العَلَقْ، والديدان الشريطية، والبراغيث والقمل، والعديد من الكائنات المقرِفَة والمتطفّلة على الجسم. لكنّ الطفيليات تأتي بأشكال مختلفة ومتنوعة، وتستخدم تشكيلة متنوّعة من الخدع لاستغلال الأنواع «المُضيفة». البكتيريا الوبائية التي كانت تُعرَف باسم «الموت الأسود» قَتَلَت قرابة ثلث سكّان أوروبا خلال منتصف القرن الرابع عشر وذلك بسبب خدعة بسيطة ومميّزة: تهاجم بكتيريا الموت الأسود أولاً ما يسميه علماء المناعيات باسم خلايا

الطحال المناعيّة الطبيعية وتدمّرها، ممّا يجعل جسدك خالياً من أهم جهاز مناعي لديه.

الطفيليات الأكبر حجماً كالديدان الشريطية قد تمكّنت من تطوير آليات تكبح ردود الفعل المناعيّة الطبيعية لأمعائك. جسدك يريد التخلّص منها، لكنّه لا يستطيع ذلك، لأنّ الدّودة الشريطية تفرز مواد كيميائية تخبر جسدك: «لا بأس، لا يوجد شيء هنا للقلق بشأنه».

هذه الكائنات المخيفة والمتسلّلة تنطبق مع فكرتنا العادية والطبيعية عن الطفيلي. لكنّ الطفيليات الأكثر إثارة للدهشة هي الطفيليات السلوكيّة. فبدلاً من خداع الكيمياء الحيوية أو الجهاز المناعي لمضيفها، فإنّها تتصرّف بطرق ووسائل تَخدَع بها مضيفها. فطيور الوقواق الطفيليّة المعشّشة على الأرجح أنّها أفضل الأمثلة المعروفة عن هذا النوع من التّطفّل: إنّها تَضَع بيوضها في أعشاش طيور أخرى من فصائل أخرى. تكون البيضة ملوّنة أو مبقّعة حتى لا يستطيع الطائر تمييزها عن بيوضه الخاصّة. وعندما يفقس صوص الوقواق، فإنّ الطيور الحاضنة تُخدَع بمظهرها وسلوكها، وترعاها وتطعمها كما لو أنّها صغارها. عادةً، سيقوم صوص الوقواق بقتل جميع الصيصان الأخرى عن طريق دفعهم وإسقاطهم من العشّ.

هذه الطفيليّة السلوكيّة استراتيجية ناجحة لأنّ صغار الوقواق تبدو وتتصرّف كأنّها صغار الطيور الحاضنة فتُخدع بها. ليس هناك عَلَق يمصّ الدم، أو موت أسود يسبّب أضراراً بالطحال، أو ديدان شريطية تكبح مناعة الأمعاء. كل ذلك يحدث عن طريق الاشارات السمعية والمرئية: الطيور المُضيفة تعتقد أنّها تربّي صغارها.

ما الانتقاء الطبيعي؟

«جميع المشاكل والعيوب التي تعانيها أمريكا يمكن إرجاعها إلى تعليم التطوّر»

[وليم جينينغز بريان]

كيف أصبحت كلابنا وقططنا طفيليّات سلوكيّة تتطفّل على الجنس البشري؟

إنّ «بقاء الأصلح أو الأنسب» هو مفهومٌ مرنٌ بامتياز. فعندما ندرس التطوّر، فإنّنا ندرس أموراً كالأنياب الكبيرة والحادة، المخالب الحادّة، أطراف أسرع في الجري، فرو أطول وأكثف، وتمويه أفضل _جميع السّمات والخصائص الضرورية في البرّية. من السهل ملاحظة أنّ الأرانب التي تهرب من القيّوط، «أنسب» ويمكن تمرير جيناتها لصغارها من الأرانب. لكن ماذا عن الأرانب الأليفة التي لا تَهرَب من البشر، لأنّها تمتلك فروا جميلاً أبيض، أذنان زغبتان، وعيون كبيرة واسعة وجميلة؟ هل هذا الأرنب أكثر «ملاءمةً أو صلاحية» من شقيقه الأرنب الذي لا يمتلك فروا ناعماً جميلاً، وأذناه صغيرتان، وعيناه ضيقتان؟

الجواب هو: نعم بالتأكيد! فالتطوّر لا يبالي بكَون سمة معينة أكثر أو أقل ترجيحاً لتؤدّي إلى نجاح تكاثري. إنّ كلمة «طبيعة» في عبارة «الانتقاء الطبيعي» تبدو أنّها تشير إلى أنّ النشاط الإنساني غير محسوب، لكنّ هذا الكلام أبعد ما يكون عن الحقيقة. فأيّ قوّة أو عامل يؤثر أو يغيّر من فرص نجاة جين معيّن هو جزء أساسي من التطور.

كلابي الثلاثة خير مثالٍ على ذلك. فعندما شاركت الذئاب نفس المسكن مع الإنسان، بدأت عملية إعجابنا أو عدم إعجابنا بها هي التي حوّلت الذئاب

إلى ما بات يعرف الآن بالكلاب الأليفة *Canis Lupus Familiarus*.

في البرية، على الذئاب أن تلتقط فريستها بنفسها، وأن تنجو من الشتاءات الباردة والمريرة، وأن تتنافس مع بعضها من أجل التزاوج. لكن ما أن ارتبطت بالبشر، تغيّرت العوامل والقوى التطوّرية بطريقة دراماتيكية. كان البشر يقدّمون لها معظم طعامها، وأشعلوا النيران وبنوا المنازل لإبقاء كلابهم دافئة بجانبهم. لذا لم تعد الأنياب الحادة والفراء الدافئ أموراً مهمّة وحيوية كما كانت من قبل. لكنّ البشر أنتجوا أيضاً معياراً خاصّاً بهم «للملاءمة»: هو أنّهم أحبّوا الكلاب.

الذئب: لا يبدو لطيفاً، بل برّياً ومتوحّشاً.

كلابنا أثناء التخييم ريثما يتمكّن رجال الإطفاء من احتواء الحريق.
من يمكنه ترك هذه المخلوقات اللطيفة لتلقَ مصيرها المؤلم!

ألقوا نظرة إلى الصّورة التي في الأعلى. الذئب لا يبدو جميلاً، وحتى إذا تمّت تربيته في المنزل فإنّه سيبقى غير أليف. ومهما بلغ مقدار ما تمنحه من حنان وحبّ وتدريب فذلك لن يغيّر الذئب إلى حيوان أليف ولطيف أبداً. إلا أنّ بريسبي وسكيتل وروكي من أكثر الحيوانات لطفاً وهضامةً على الإطلاق. لاحظوا كم يبدون صغاراً وطفوليين مقارنة بالذئب، وخصوصاً عيونهم الكبيرة والجميلة. والأمر لا يقتصر على مظهرهم فقط، فهؤلاء الثلاثة هم جزء أساسي ورئيسي من الحياة الاجتماعيّة لعائلتنا. إنّهم يتنزّهون معنا، يشاهدون التلفاز معنا، ويحاولون حمايتنا بشراسة عندما يطرق الباب شخص غريب، ويعرفون تماماً النظرة التي يرمقونك بها عندما تأكل شيئاً ما يحبّونه ويرون بعضاً منه. نحن لا نعجب فقط بكلابنا، إنّما نحبّها ونَهيم بها.

تلك الكلاب الثلاثة الصغار يستهلكون أكثر من كيلوغرام كامل من طعام الكلاب كل يوم، طعام مليء بالبروتينات والمغذّيات. النقود التي

أصرفها على هؤلاء الطفيليات الثلاثة اللّطفاء كافية لأن تدعم عدّة عائلات في أيّ بلدٍ فقير.

خلال الخمسة عشر ألف سنة الماضية، نحن البشر قد جعلنا هذا الأمر ممكناً. لقد قمنا بعملٍ رائع عندما هجّنّا هذه الحيوانات الرائعة واللطيفة التي أستطيع أن أئتمنها على أطفالي. الكلاب التي كانت أكثر لطفاً، أكثر سعادةً وجمالاً، والتي تتناسب مع معايير الإنسان الاجتماعيّة الهرمية، كانت هي التي تبقى ويُعتنى بها من قبل البشر. أمّا الكلاب التي كانت خطيرة، لئيمة، شرسة، وبشعة فكانت أقلّ ملائمةً، ولم تُعجِب البشر وجرى التخلّص منها.

من السهل بالنسبة إلينا إدراك النزعة الطفيلية/التطفّلية لدى طائر الوقواق، لأنّنا موضوعيون. لكن من الصعب جداً بالنسبة إلينا أن نرى أنّنا في نفس العلاقة مع حيواناتنا الأليفة. فالقطط والكلاب تؤثّر في غرائزنا الأبوية وتحرّكها _تلك الغرائز التي تدفعنا لحماية ورعاية أطفالنا وأولادنا، والتقرّب من البشر الآخرين بوصفهم رفقاء وأصدقاء. القطط والكلاب هي طفيليّات سلوكية، هي بمثابة أولادنا البدلاء أو عائلتنا البديلة، حيث تعمل على إرضاء غرائزنا الأبوية والأمومية، تماماً كما يجعل صوص الوقواق أبويه البديلين سعيدين.

لماذا الدين جذّاب ومرغوب؟

«لقد قمتُ مؤخراً بتفحّص جميع الخرافات المعروفة في العالم، ولم أجد أي شيء مميز في خرافتنا التي نعتنقها (المسيحية). كلّها تشبه بعضها البعض، قائمة على الخرافات والأساطير»

[توماس جيفرسون 1743- 1826]

لقد بدأنا هذا الفصل مع التساؤل المحيّر لغير المؤمنين: لماذا الدّين يبدو جذّاباً ومرغوباً إلى هذه الدرجة؟ لماذا ما زال موجوداً حتى الآن، بالرغم من كلّ هذا التقدّم والتطوّر اللذين أحرزناهما على الصعيد العلمي، والافتقار الكامل إلى الأدلّة والبراهين التي تثبت وجود الله؟.

كانت ميمات الدّين موجودة منذ أكثر من حوالي 10000 عام من التاريخ المكتوب، وأكثر من ذلك بكثير حتّى، حيث تعود جذوره إلى ما قبل التاريخ البشري. ومن الطبيعي القول أنّ هناك أشكال وصِيَغ مختلفة من فيروس الدين كانت موجودة على مدى حوالي 1000 جيل على الأقل، وربما على مدى 10000 جيل أو أكثر حتى.

خلال تلك الألفيات، تطوّرت جميع التركيبات الميميائية الدينية بشكلٍ ثابت وتغيّرت. آلاف المتغيّرات (الطفرات) كانت تتنافس فيما بينها في كل جيل لاحتلال مكان لها في المناخ الثقافي _عقولنا الجمعية. على سبيل المثال، اليوم لدينا هندوس، بوذيون، مسيحيون، مسلمون، ويهود (لم نذكر هنا سوى ديانات العالم الكبرى ولم نذكر الديانات الصغرى)، وضمن كل دين من هذه الأديان هناك العديد، من الطوائف والمذاهب المختلفة. المسيحية فيها تيارين رئيسيين، الشرقي والغربي، وضمن التيّار الغربي لوحده هناك

الكاثوليك، اللوثريون، المنهجيون، المعمدانيون، البروتستانت، وعدّة مئات من المذاهب. المسلمون واليهود لديهم قائمة مساوية أيضاً من الطفرات والتغيّرات، إضافة للهندوس والبوذيون. وتستمر القائمة. المنافسة كبيرة، والكثير من المتغيرات والطفرات، بين النسخ المختلفة من فيروس الدين.

على مَرّ التاريخ المكتوب كلّه، كان المناخ الثقافي _الايديولوجي مليئاً بالآلاف والآلاف من ميمات الله المتنافسة والتركيبات الميميائية المتعارضة.

لقد ناقشنا من قبل التاريخ المبكّر للدّين، كيف أنّ الآلهة البسيطة الشبيهة بالبشر فَسَحَت المجال لظهور آلهة أقوى (وأقل)، وكيف تغيّر ذلك كلّه إلى التوحيد. في كل خطوة، كل ميم من الميمات الدينية كان يتنافس ضدّ جميع الميمات الأخرى لجذب الانتباه، والتفضيل، والمصداقية، والإيمان، والاعتناق. كلّ ميم «أراد» أن يكون الميم الوحيد الذي يُمَرَّر إلى الجيل التالي من المناخ الايديولوجي البشري. وكنتيجة لهذه العمليّة التطوّرية، تطوّرت التركيبة الميميائية للدّين إلى طفيلي سلوكي. لقد تطوّر الدين لإسعادنا، ليحتلّ مكانة هامّة ومتميزة في مجتمعنا، وفي أمانينا، آمالنا، مخاوفنا، ورغباتنا.

أعِد التفكير بصوص طائر الوقواق، هؤلاء الأبوين الحاضنين سعداء جدّاً لأنّ غرائزهما تخبرهما بأنّهما يربّيان طائراً من فصيلتهما. وفكّروا في كلابي، التي تطوّرت بشكلٍ كبيرٍ لتبدو صغيرة وجميلة ومهضومة، ولتتلاءم مع عائلتي وكأنّهم أولادي _لإسعادي. وقد فعل فيروس الدّين نفس الأمر: لقد تطوّر ليمنحنا أجوبة مُرضِيَة عن أهمّ أسئلة الحياة المحيّرة والملغّزة، ليجعلنا سعداء. لكن على عكس كلابي، للدّين أيضاً جانبٌ مظلم، حيث يعمل عمله على مخاوفنا. إنّه يخيفنا لكي نؤمن به.

لقد زوّدتنا الطبيعة، أو التطوّر، بدوافع الجوع والرغبة الجنسية، لضمان

أن نسعى لإطعام وتغذية أنفسنا ونتناسل. كما أنّها منحتنا الشعور بالألم والخوف، لكي نتجنّب الإصابات والمخاطر. لقد زوّدتنا بمشاعر الغيرة لكي نبقي الآخرين بعيدين عن شركائنا، ورسّخت فيها هاجس فوبيا الغرباء [زينوفوبيا] لكي نبقى مُحتاطين وحذرين من الغرباء، وبالحبّ العميق لأطفالنا حتى نصونهم ونحميهم حتى يكبروا ويشتدّ عودهم وينجبون أولاداً لاستمرار سلالتنا.

لقد تطوّر فيروس الدين ليتناسب بشكل مثالي مع مخاوفنا، آمالنا، جوعنا، رغباتنا، غيرتنا، وخوفنا من الغرباء، وحبّنا الأبوي، ويستغلّ هذه الغرائز الأساسية من أجل بقاءه واستمراره.

إنّه يمنحنا الأمل عندما ينقطع الأمل. إنّه يخبرنا عندما تحدث لنا أمور سيئة، أنّ هناك سبب وراء حدوثها، وأنّ هناك جائزة أو مكافأة ستعطى لنا إذا بقينا على الصّراط المستقيم وحافظنا على إيماننا. إنّه يخبرنا أنّ أولئك الذين يؤذوننا سينالون عقابهم، إذا لم تكن في هذه الحياة، ففي الحياة الأخرى. إنّه يخبرنا أنّ الموت ليس هو النهاية، بل إنّها مجرّد البداية لحياة أخرى أفضل وأجمل وأدوَم. إنّه يخبرنا أنّ أولادنا سيُعَاقبون باللعنة الأبدية إذا لم ننقل الفيروس إليهم. وتستمرّ القائمة أكثر فأكثر، ومن ضمنها الميمات الأساسية التي كنّا قد درسناها من قبل. كما أنّ حقيقة هذه المعتقدات غير ضرورية. «عندما تموت، انتهى كل شيء بالنسبة إليك»، هذا الميم قد لا يبدو جذّاباً كالميم التالي «عندما تموت، ستعيش إلى الأبد في نعمة أبديّة»، بغضّ النظر عن أيّ واحدٍ منهما هو الصحيح والحقيقي. فيروس الدّين اليوم مصنوعٌ من ميمات نحن نرغب في الإيمان بها بشدّة.

كلّ فيروس ديني اليوم هو نتيجة عشرة آلاف جيل من التّنافس الحامي الوطيس مع الفيروسات الدّينية الأخرى، ولم تكتب النّجاة سوى للأفضل

والأصلح بينها. أهلك علّموك دينهم ولقّنوك تعاليمه ومبادئه، لأنه كان الدّين الأكثر مصداقية وصحّةً بالنسبة لهم، والدّين الذي تعلّماه أبويك من أجدادك، كان المتغيّر الذي وَجَدَه أجدادك هو الأكثر صحّةً، وهكذا رجوعاً في التاريخ. فيروس الدّين الذي أصابك هو الفيروس الأفضل في كل جيل، الأكثر جاذبيّة، الناجي والباقي الوحيد. في كل نقطة عبر التاريخ، كان هذا الفيروس يستبعد ويُقصي جميع الأفكار الأخرى، ليصل إليك كما هو. والناجي كانت تلك الأفكار التي تناسب أفضل المعايير في العقل البشري، تلك الأفكار التي كانت أفضل من غيرها في التلاعب بآمالنا وأمانينا، ورغباتنا ومخاوفنا.

فيروس الدّين فعالٌ جداً ويجيد إصابة عقلك بالعدوى. إنّه فعّالٌ وجيدٌ بالفعل، لأنّه إن لم يكن كذلك، فستكون هناك تركيبة ميميائية أخرى تعتنقها الآن.

لماذا البدء في سنٍ مبكّرة جدّاً

«أعطني وَلَداً، وسأعطيك رجلاً»

[القديس إغناطيوس 1491- 1556]

هناك سِمَة هامّة ومميّزة في مسيرة تطوّر فيروس الدين يجب علينا أن نوليها اهتماماً خاصّاً: الحاجة إلى تلقين الدّين للأطفال، حين يكونون ما يزالون في سِنٍ مبكّرة وضعفاء.

إحدى القصص التي تستعرض وجهة نظرنا هي من زمن الحرب يرويها لنا آرثر إيفلين واه تدور حول صديقه راندولف تشرشل (ابن السير وينستون تشرشل)، عندما كان كلٌ من آرثر وراندولف يخدمان بصفتهما ضابطين في الحرب العالمية الثانية. لقد تدبّر تشرشل أمره حتى سنّ البلوغ دون أن يقرأ ولو كلمة من الكتاب المقدّس أو أن يطّلع بطريقة جادّة على اللاهوت المسيحي. وظلّ كذلك حتى كبر واشتدّ عوده، حتى طفح الكيل مع صديقه آرثر وعبّر عن ذلك بحنق كاتباً: «من أجل إسكاته لبضع ساعات فقط، راهنّا أنا وفريدي راندولف ب 20 جنيهاً استرلينياً على أنّه لن يستطيع قراءة الكتاب المقدّس بكامله خلال خمسة عشر يوماً. كان الأمر يستحقّ هذا الثمن. لسوء الحظّ لم يؤتِ هذا الأمر ثماره. فهو لم يقرأه أبداً من قبل وهو سعيد بذلك بطريقة بشعة، إذ ظلّ يقرأ اقتباسات بصوتٍ عالٍ «أراهنك على أنّك لم تكن تعرف أنّ ذلك موجود بالكتاب المقدّس: «تنزلون بشيبتي بأسىً إلى القبر» أو كان يصفع جنبه ويُنشد بأعلى صوته «الرّبّ، أليس الرّبّ وغداً!»».
[آرثر إيفلين واه، رسالة إلى نانسي ميتفورد، نوفمبر من عام 1944]

في الفصل الذي تحدّثنا خلاله عن اللغة البشرية، كنّا قد نوّهنا أنّه لكي

يتمّ نقل أي ميم وتمريره بشكلٍ حرفي موثوق من جيل إلى الجيل التالي، يجب أن يكون الدماغ البشري منفتحاً على امتصاص وتشرّب كمّيات هائلة من المعارف والمعلومات أثناء سنّ الطفولة والشباب، ثم ما أن يصل الإنسان إلى سنّ البلوغ، حتّى يبدأ الدماغ بترسيخ وتثبيت هذه المعتقدات ليتمّ نقلها على شكل معلومات إلى الجيل التالي. عندئذٍ إنّ أغلب معتقداتنا العميقة وتصرّفاتنا المكتسبة ثقافياً لا بدّ أنّنا تعلّمناها منذ الصغر عندما كنا أولاداً. وعندما أصبحنا بالغين، كان الأوان قد فات.

فيروس الدّين، على غرار أيّ كيان متطوّر آخر، قد تكيّف ليتناسب ويتلاءم مع بيئته. ومع استمرار عملية تطوّره خلال الألفيات المتعاقبة، فإنّ التركيبات الميميائية الّدينية التي لم تؤكّد على تلقين تعاليمها للأطفال منذ نعومة أظفارهم، كانت أقلّ ثباتاً واستقراراً لمقاومة التغيّرات والطفرات. من جهة أخرى، التركيبات الميميائية الدينية التي تضمّنت ميمات قوية لتلقين الأطفال وبرمجتهم كانت هي الأكثر ترجيحاً لتنجو وتستمرّ وتنتشر.

وهذا أمرٌ تمت ملاحظته مسبقاً في حقيقة أنّ جميع الديانات الكبرى تبدأ في تعليم الأطفال وتلقينهم تعاليمها منذ سنّ مبكرة جداً. الأطفال يلقّنون صلاتهم قبل النوم ما أن يتعلّمون الكلام. دور العبادة، سواء أكانت للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو البوذيين أو الهندوس، جميعها تحتوي صفوفاً خاصّة للصغار والنشء، المراهقين، والشبّان. وبنفس الأهمية، فإنّ أولاد الملحدين وأبناءهم على الأرجح أنّهم سيكونون ملحدين، إذ أنّهم قد تعلّموا وتلقّنوا معتقداتهم الإلحادية في سنٍ مبكرة، وعلى الأرجح بسبب الافتقار للتربية والتعليم الدينيين.

ملحق: سعالٌ قد يقتلك

«كما أنّ اليوم الجيّد يجلب نوماً هانئاً، كذلك الحياة الجيّدة تجلب موتاً هانئاً»

[ليوناردو دافنشي]

ولاية نيو مكسيكو جنوب غربي أمريكا من أجمل الأماكن، وواحدة من الأماكن القليلة في أمريكا التي تتضمّن أغلبية سكّانية من الهسبانيين[1] المقيمين منذ زمنٍ بعيدٍ وليسوا مهاجرين عاديين. أغلب سكان نيو مكسيكو يعودون بجذور عائلاتهم إلى حوالي 400 عام أو أكثر، إلى زمن المستعمرات الإسبانية الأولى، وهم يزرعون الأراضي التي كان يزرعها آباؤهم وأجدادهم والكثير من الأجيال من قبلهم. هنود بويبلو في نيو مكسيكو هم أيضاً شعبٌ فريدٌ في أمريكا، فهم من الأمريكيين الأصليين والسكان المحليين الذين لم يخسروا أرضهم وأعيدَت ملكيتها لهم على شكل «محميّات هندية». فقد عاشوا على أرضهم باستمرار منذ قديم الزمان.

هذا التراث الطويل والغنيّ من الحياة العائلية والمجتمعات المتماسكة، مصحوباً بالجمال الطبيعي الأخّاذ لجبال جنوب نيو مكسيكو، جعل منه مكاناً رائعاً للعيش فيه وتربية أولادي. لقد حالفني الحظّ كوني عشت في سانتا فاي، بنيو مكسيكو لمدّة ستّة أعوام.

---

(1) هسبانيين، أو هسبان: هو مصطلح يُطلق على الأشخاص والشعوب والثقافات المرتبطة ارتباطاً تاريخياً مع إسبانيا والمنحدرين من هسبانيا، وهو الاسم الذي أطلِقَ على الأشخاص المنحدرين من شبه الجزيرة الإيبيرية (التي تضمّ حديثاً البرتغال وإسبانيا وأندورا وجبل طارق وبعض الجزر الجنوبية لفرنسا). ويُطلَق مصطلح هسبانو أيضاً على البلدان التي سبق وأن استُعمِرَت من قبل الإمبراطورية الإسبانية في الأمريكيتين وآسيا، بصفة خاصة أمريكا الإسبانية والفلبين.

لكن إحدى أسوء الأعراض الجانبية للعيش جنباً إلى جنب مع الثقافة الهندية هو عدد الجماعات الروحانية التي تعود جذورها إلى ديانات السكان الأصليين في أمريكا وثقافتهم. لقد طوّر الهنود _بين السكّان غير الهنود في أمريكا_ نوعاً من التصوّف، نوعاً من العلاقة والارتباط بالأرض، بالطبيعة، وبعالم الأرواح. الكثير من غير الهنود يحسدونهم على ما يرونه لديهم كمستوى أعلى من الصّفاء والنقاء الروحانيين، البساطة، والأخلاق التي تتماشى مع الميراث الهندي.

بالإضافة إلى هذا الانجذاب الذي يشعر به أولئك الساعين وراء التّجارب الدينية نحو الدّين الهندي، فإنّهم أيضاً ينجذبون إلى الجبال الجميلة والشاهقة لولاية نيو مكسيكو التي يبلغ ارتفاعها حوالي 4500 متراً. وأكثر من ذلك، هم يعتقدون أنّهم من خلال تواصلهم مع صخر الأديم الغرانيتي مباشرةً الذي يشكّل «عظام» الأرض، وعن طريق صعودهم إلى هذه المرتفعات الشاهقة، فإنّهم يكتسبون بعض البصائر أو يتواصلون مع الأرواح الأرضية التي تسكن هذه الجبال.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ مناطق جنوبي نيو مكسيكو مرصّعة بالعديد من الجماعات الصغيرة من المهاجرين الجُدُد، ومع أنّهم كلّهم من «الأنجلو»، الذين انتقلوا إلى هناك وشكّلوا الكثير من المجتمعات الدّينية الصغيرة، إلا أنّ كل جماعة منهم لديها مجموعتها الخاصّة والغريبة من الروحانيات. (كلمة أنجلو *Anglo* يستخدمها أهالي نيو مكسيكو ليعنوا بها أي إنسان ينتمي إلى العرق الهسباني. وحتى الشريف الأفريقي الأسود الذي تمّ ترشيحه لمدة عام واحد كان من «الأنغلو» بعرف أهالي نيو مكسيكو، حيث وجد هذا الامر مسلياً!).

خلال العام الأخير من إقامتي في نيو مكسيكو، التقطت نوعاً من

السّعال. في البداية بدا هذا السّعال كنزلة برد عادية أو انفلونزا، لكن ليس لفترة طويلة. فبعد يوم أو يومين، كان من الواضح أنّ سعالي لم يكن نزلة بردٍ عادية. كان شيئاً لم أختبره قط (حتى ذلك الوقت). نوبات سعال شديدة، عميقة ومؤلمة، مصحوبة بآلام شديدة، واستمرّت دون انقطاع. كان السّعال شديداً جداً لدرجة أني شعرت بتمزق عضلات حجابي الحاجز الأمر الذي زاد من معاناتي وألمي بما أنّ السعال كان من دون انقطاع. سأعفيكم من تفاصيل زياراتي إلى الأطباء، جرعات هائلة من الشراب المهدئ للسعال، وتوجّب عليّ البقاء في غرفة الضيوف حتى لا يلتقط بقية أفراد العائلة العدوى وليحصلوا في النهاية على بعض الراحة، لكنّ هذه المحنة استمرت لأكثر من ستّة أسابيع، ولم يشفَ حلقي حتى الآن.

لا يسعكم تصوّر دهشتي عندما أخبرني الطبيب بأنّه شخّص حالتي بالسعال الديكي! كنت أعتقد أنّ مرض السّعال الديكي قد تمّ القضاء عليه واستئصاله نهائياً في أمريكا، وأنّه بات شيئاً من الماضي. لكن كلا، في الواقع ما زال يظهر هنا وهناك. وهو يعتبر من الأمراض المقتصرة على المذاهب والطوائف الدّينية حصراً، التي يرفض أتباعها تلقيح أبنائهم ضدّ أمراض الطفولة. لقد تبيّن أنّه كان هناك وباء صغير في منطقة سانتا فاي، كان سببه بعض الطوائف الدينية المذكورة آنفاً. فبالإضافة إلى اعتناق الروحانيات الهندية، كان هؤلاء الناس يرفضون الأدوية الحديثة واللقاحات، وكان أولادهم معرّضون لجميع أنواع الأمراض.

يمتلك الأبستمولوجيون مصطلحاً هو «مناعة القطيع». لنفترض أنّك تملك قطيع من الماشية يحتوي على 10000 رأس بقر، وحوالي 9998 من هذه الأبقار تمتلك مناعة ضدّ المرض. الآن تصوّر أنّ واحدة من البقرتين الباقيتين اللتان لا تمتلكان أيّ مناعة ضدّ المرض قد التقطت مرضاً ما، ما

هي الاحتمالات أن تلتقط البقرة الثانية المرض من البقرة الأولى المصابة؟ على الأرجح ستكون النسبة منخفضة جداً. فالبقرتان، المريضة والأخرى السليمة غير المحصّنة _ستلتقيان مع العديد من البقرات المحصّنة كل يوم، لكنّ فرص التقائهما مع بعضهما ونقل العدوى من الأولى إلى الثانية ليست جيّدة إطلاقاً. لذا على الأرجح ستتحسّن حالة البقرة المريضة، أما البقرة الأخرى لن تصاب بالمرض، وسيصل المرض إلى نهاية مغلقة في ذلك القطيع.

أساساً، تحمي «مناعة القطيع» البقرة غير المحصّنة. فالأبقار الأخرى تلعب هنا دور المانع أو الحاجز الذي يمنع المرض من المرور إلى البقرة غير المصابة وغير المنيعة. الآن تصوّر أنّه بدلاً من البقرتان هناك 100 بقرة غير منيعة، وأنّ واحدة من تلك البقرات تلتقط مرضاً. بما أنّ نسبة 1٪ من الأبقار حسّاسة، فإنّ الفرص هنا ستكون مرتفعة، لدرجة أنّه خلال عدّة أيام، هذه الأيام التي ستكون فيها البقرة المصابة ناقلة للعدوى، فإنّها ستلتقي مع واحدة أو اثنتين من الأبقار غير المنيعة، وستمرض تلك البقرات... وكل بقرة ستلتقي ببقرة أو اثنتان وتنقل لهما العدوى، وبذلك سرعان ما ستجد أنّ الأبقار المئة قد أصيبت بالمرض.

بمعنى آخر، لا يتطلّب الأمر سوى نسبة صغيرة من السكان لتكون غير منيعة بمناعة القطيع حتى تزول وتندثر. وذلك بالضبط ما حدث مع السعال الديكي في نيو مكسيكو. فمع انتقال أفراد هذه المجموعات غير المحصّنة إلى الولاية أكثر فأكثر، وأخذ أولادهم يرتادون المدارس العامة، تجاوَزَت أعدادهم العتبة التي تختفي عندها مناعة القطيع. فعندما يمرض أحد التلاميذ _من خلال زيارة ولاية أخرى أو بلد آخر_ ثم يذهب إلى المدرسة، فإنّ المرض ينتشر بسرعة بين التلاميذ غير المنيعين.

لسوء حظّي، تعلّمت أنّ لقاحات الطفولة التي نتلقّاها ضدّ مرض السعال

الديكي لا تدوم إلى الأبد دائماً، في بعض الأحيان تزول المناعة وتتفكّك بعد مرور 20- 40 عاماً. لذلك تحوّلتُ إلى ضحية لهؤلاء المجانين المتدّينين. في حال لم يسبَق لك أن أصِبتَ بمرض السعال الديكي، فلم يَفُتكَ شيء. لطالما تساءلتُ كيف يمكن لأحدٍ أن يموت من السعال، لكنّي الآن عرفت.

8

﴿ مُعضلَة الملحد ﴾

المعضلة

«الطبيب المداوي لا يغضب من ضيق صبر المريض، ولا يشجب مرضه ويتضايق منه كون المريض شخص يعاني من حمّى. وهكذا يجب أن يكون الرجل الحكيم، هكذا عليه أن يعامل البشر، كما يعامل الطبيب المريض، وأن يعتني بهم فقط بوصفهم مرضى وسقيمين»

[لوشيوس أنايوس سينيكا 4 ق.م - 65 ب.م]

قد ينقسم الملحدون إلى مجموعتين: ملحدو «عِش ودَع غيرك يعيش»، الذين يرون أنّ الدّين ضَلالٌ وخطأ لكنه غير مؤذٍ أو ضار، والملحدون المعادون للدّين، الذين يرون أنّ الدّين مؤذٍ وضارّ وسامّ. حتى يذهب بعض الملحدين المتشدّدين المعادين للدّين إلى أنّ الدّين هو أساس ومصدر جميع الشرور في العالم، ويؤكّدون على أنّه من دون دين، سيعمّ السلام في العالم ويزول الفقر والمرض نهائياً. هناك العديد من الكتب التي تقع ضمن قائمة أفضل الكتب مبيعاً، والتي تنتقد الدّين، تتضمّن كلمات مثل «سم» و «وهم»

في عناوينها.

هذه الآراء المعادية للدّين بقوّة ليست أمراً مألوفاً، لكن يمكنني القول أنّ العديد أو غالبية الملحدين يرون أنّ الدّين مؤذٍ وضار أكثر ممّا هو مفيد. في نفس الوقت، جميع الملحدين تقريباً يعتقدون بصحّة علم التطوّر الداروينى.

هاتان الفكرتان، صحّة نظرية التطوّر وضرر الدّين وسُمّيته، يبدو أنّهما تخلقان معضلة حقيقية. هناك الساخرة والمتهكّمة المسيحية بيكي غاريسون، التي تخطئ فهم العديد من الأمور، هي كاتبة جيدة على الأقل. توجز الكاتبة غاريسون المعضلة باختصار، وتبيّن أنّ هذه المشكلة هي مشكلة حقيقية وينبغي على الملحدين مراجعتها والنظر فيها. فتكتب قائلة:

«هنا أورد إشكالية حقيقية أضعها أمام الداروينيين المتشدّدين. إذا كان الدّين عبارة عن آلية غير مجدية وهدّامة بالفعل ومن دون أيّة سمات أو خصائص بقائية تمكّنه من البقاء والاستمرار، أليس من المفروض أن يكون قد انقرض الآن؟ على الأقل، أنا أتوقّع أن يكون الدّين شبيهاً بالزائدة الدودية أو اللوزتين ... لكن بماذا تخبرنا حقيقة أنّ الدّين ما زال قائماً وموجوداً حتى اليوم؟».

كما صدف ورأينا عدّة مرّات، التطوّر لديه طريقة صعبة وفعّالة لتنقية الصفات والسّمات الضارّة وغير المفيدة. فلو كان الدّين سيئاً وغير مفيد، فلماذا لم تغيّر عملية التطوّر الدماغ البشري حتى تجعله منيعاً أمام الميمات الدّينية؟ هذه هي معضلة الملحدين المعادين للدّين: لماذا لم يحوّلنا التطوّر كلنا إلى ملحدين؟.

لكن في الحقيقة هناك خطأين يتخلّلان نتيجة غاريسون:

أولاً، ترتكب غاريسون خطأً كلاسيكياً عن التطوّر: الانتقاء الطبيعي يعمل على مستوى الأفراد، وليس الجماعات. الدّين هو خيارٌ شخصي، لكنّ أعباء الدّين قد تقع على كاهل المجتمع ، إذا كانت المعتقدات الدينية تفيد الأفراد، فإنّ الانتقاء الطبيعي سيفضّلها، حتى وإن كان الدّين سيئاً بالنسبة للمجتمع ككل.

ثانياً، إنّ التطفّل والتعايش ظاهرتان شائعتان جداً في الطبيعة. لذا مجرّد كون شيء ما ضار ومؤذٍ، فهذا سبب غير كافٍ للتخلّص منه.

دعونا نستكشف هذه النقاط ببعض التفصيل، ونرى كيف أنّها تحلّ المشكلة.

مأساة الشُّيوع

«لا تضايقني تلك الأجزاء التي لا أفهمها من الكتاب المقدّس، إنّما الأجزاء التي أفهمها»

[مارك توين 1835- 1910]

إنّ الفرق بين ما هو جيّد بالنسبة للفرد وكيف يمكن لذلك أن يكون مختلفاً بشكل جذري عمّا هو مفيد بالنسبة للمجتمع واضحٌ في الورقة الكلاسيكية التي وضعها عالم الأحياء غاريت هاردينز عام 1968 بعنوان «مأساة الشيوع». تصوّر قرية فيها عشرة مزارعين، ومرج يتشاركه جميع هؤلاء المزارعين (الشيوع)، بإمكانه استيعاب مئة بقرة قبل أن يبدأ الرّعي الجائر يضرّ بالمَرج. الحسّ العام يخبرنا أنّه إذا أراد المزارعون زيادة دخل القرية، ومراعاة الإنصاف للجميع، فيحقّ لكلّ مزارع أن يمتلك عشرة أبقار.

لكن الحسّ العام بالنسبة للقرية ليس سليماً بالنسبة لكل مزارع، إنّه موقف مخلخل وغير مستقرّ أساساً. لنفترض أنّ المزارع الجشع قد اشترى البقرة الحادية عشرة، ما الذي سيحدث؟ بات في المرج الآن 101 بقرة، وهذا لا يختلف كثيراً عن 100 بقرة، ربما قد يكون العشب ذابلاً بعض الشيء، وإنتاج القطيع الكلي قد يكون أقلّ قليلاً. لكنّ المزارع الأناني قد حسب الأمر بشكل جيد، فقد زاد معدّل إنتاجه بنسبة 10٪. بمعنى آخر، كلّ مزارع على انفراد يشعر باندفاع لفعل شيء يضرّ بالقرية. والثمن الناجم عن حليب بقرة إضافية يتشاركه جميع المزارعون العشرة، لكنّ الفوائد والمنافع تذهب إلى المزارع الأناني. أمّا إذا حافظت القرية على أعداد البقر بحيث لا تتجاوز 100 بقرة، فإنّ الوزن الكلي للقطيع (مجموع أوزان الأبقار المئة) سيزيد. لكن إذا

قام احد المزارعين الجشعين بكسر القوانين وانتهاك القواعد واشترى بقرة إضافية، فإنّ ذلك المزارع سيجني مالاً أكثر. المأساة الفعلية الناجمة هي عندما ينظر المزارعون التسعة الباقون إلى الوضع، ويستنتجون منطقياً بأنّ من حقّ كلّ واحدٍ منهم أن يشتري بقرة أخرى. فقد يقول المزارع «في النهاية، ما حدا أحسن من حدا، لماذا يتوجب أن أكون أنا الوحيد الذي لديه عشر بقرات؟». ويقومون هم أيضاً بشراء بقرات إضافية، والآن باتَ المرج مزدحماً ومكتظّاً أكثر ممّا يمكن استيعابه. ربما قد يكون أحد المزارعين قد شعر بالخيبة عندما اكتشف أنّ إنتاجه أقلّ ممّا كان يأمل، فيشتري البقرة الثانية عشر... وهكذا. قرارات المزارعين الفردية جميعها صحيحة ومنطقيّة، ومعقولة، لكنّ النتيجة هي أنّ جميع المزارعين أسوأ حالاً ممّا كانوا عليه عندما كانوا يمتلكون عشرة أبقار.

هذه هي «مأساة الشيوع». في أيّ موقف حيث هناك شيوع، مصادر مشتركة، فإنّ القوى الاقتصادية تضمن تقريباً انهيار الشيوع. سواءٌ أكانت مَرجاً يتشاركه مزارعين، أو صيّادو السلمون في المحيط الهادي، فإنّ الفرد مدفوعٌ لاستنزاف المصادر واستغلالها لأبعد حَدٍ ممكن. المزارع يشتري الكثير من الأبقار، الصياد يصطاد الكثير من الأسماك، والنتائج غالباً ما تكون كارثية.

إنّ «مأساة الشيوع» تحدث بشكلٍ دائم خلال عملية التطوّر. تذكّر من فصلنا السابق أنّ أغلب الأنواع تنجب سلالات وأولاد أكثر بكثير مما يتطلّبه البقاء، سواء أكان النوع عنكبوتاً فإنّها تضع آلاف البيوض، أو أرنباً ينجب عشرات أو حتى مئات الأرانب الصغار، أو فطراً يقذف ملايين الأبواغ في الهواء.

عادات الأرانب التناسلية شبيهة جداً بقصّة المزارعين والأبقار. في أيّ

نظام بيئي، الغذاء المتوافر محدودٌ جداً، وهناك بعض الأرانب التي ستبلي حسناً في ذلك النظام البيئي. إذا كانت الأرانب قليلة فلن يضيع سوى القليل من الغذاء، أمّا إذا كانت كثيرة، فستبدأ بالدخول في مرحلة المجاعة وانهيار البيئة.

لكن هل تتناسل الأرانب حتى تبلغ هذا المستوى الأمثل ثم تتوقّف؟ كلا! بل ستستمرّ في «التناسل والتفريخ» كما تفعل الأرانب. الأرانب التي تنجب أغلب الفراخ هي تلك التي ستمرّر جيناتها إلى الجيل التالي. فإذا كان هناك نوعاً من جينات «الحسّ بالمسؤولية» التي ساعدت الأرانب على الشعور بضرورة التمهّل عندما يبدأ الغذاء بالنفاذ بسرعة، فإنّ الأرانب التي لا تمتلك تلك الجينات ستتوالد بشكلٍ أسرع، وسيختفي جين «الحسّ بالمسؤولية» بسرعة. تضمن عملية البقاء للأصلح العنيفة والقاسية أن تقوم الأرانب بالتكاثر إلى أقصى حدٍّ ممكن.

إنّ فكرة «جين المسؤولية» عند الأرانب فكرة مسلّية، لكنّ لها نظير حقيقي في المناخ الايديولوجي للميمات البشرية: ميم «النموّ السكّاني بمعدل صفر» ZPG. في عام 1968، نشر عالم الحشرات باول إيلريك كتاباً دراسياً بعنوان «القنبلة السكانية»، حيث أشار أنّه من دون وجود برنامج تخطيط عائلي أو تحديد للنسل على مستوى العالم، فالبشرية ستواجه «انفجاراً سكانياً» ستكون نهايته مجاعات، فاقة، فقر، وعلى الأرجح حروب. يحتوي كتاب إيلريك بعض الأخطاء الرياضية التي تجعل من توقعاته تبدو تفائليّة إلى أبعد حَد، لكنّه هو من تطرّق لموضوع النموّ السكاني بمعدّل صفر وأدخله ضمن سياق الفكر المعاصر.

إنّ فكرة أنّ العائلات المسؤولة يجب أن تقتصر على ولدين لا أكثر، أو أقل من ذلك حتى، أصبحت مبدأً أخلاقياً جديداً في أمريكا وأوروبا. فقبل كتاب إيلريك، كان الأزواج ينجبون ثلاثة أولاد، أربعة، خمسة أو حتى أكثر من ذلك،

لكن عند حوالي منتصف السبعينات، أصبحت العائلات الكبيرة تعتبر ضمن جميع الدوائر الاجتماعية دليلاً على انعدام الحسّ بالمسؤولية، لقد تمّ ترسيخ ميم «النمو السكاني بمعدل صفر ZPG» في الثقافة الأمريكية والأوروبية.

بعد ذلك بأربعة عقود فقط، كان التطوّر قد بدأ بتمزيق ميم «النموّ السكاني بمعدل صفر». ففي بلدان مثل ألمانيا، فرنسا، سويسرا، وهولندا، كان المهاجرون من بلدان مثل تركيا، إفريقيا، والشرق الأوسط، الذين لم يسبق لهم أن سمعوا بميم «النموّ السكاني بمعدل صفر»، ما زالوا يتكاثرون بمعدّل ولادات مرتفع. سكّان ألمانيا الأصليين، الذي كان معدل الولادات لديهم تحت مستوى التعويض، كانوا يواجهون مستقبلاً حيث يصبحون هم فيه الأقلية ضمن بلدهم الخاص خلال عقد أو عقدين من الزمن، حيث طَغَت عليهم أعداد المهاجرين الألمان الذين لم يكونوا يؤمنون بميم النموّ السكاني بمعدل صفر واستمروا بإنجاب المزيد من الأولاد. وبذلك يكون ميم ZPG قد أخرج نفسه من الوجود وقضى على نفسه.

بالعودة إلى النّقطة التي بدأنا منها هذا الفصل، كانت بيكي غاريسون قد طرحت السؤال التالي: إذا كان الدّين سيئاً وضاراً، فلماذا لم يستأصله التطوّر ويقضي عليه؟ نحن نعلم الآن أنّه ما زال هناك تفسير محتمل وهو أنّ «عملية البقاء للأصلح» تعمل على مستوى الأفراد، وليس على مستوى الأنواع أو المجتمعات، سواء أكنّا نتحدّث عن عملية التطوّر الوراثية أو الميميائية. فمن الممكن بشكل كلّي أن يكون هناك شيء ما ضارّ بالنسبة للأنواع، أو المجتمعات، [لكنّه مرغوبٌ على مستوى الأفراد] مفضّلٌ من قِبل التطوّر.

طفيليات، متطفّلات ومتعايشات

«الإنسان كائنٌ مجنون بشكل صارخ، لا يسعه خلق برغوث، ومع ذلك خلق عشرات الآلهة»

[ميشيل دي مونتين]

إنّ الشعاب المرجانية والجزر الصغيرة التي تشكّل جزر كواجالين المرجانية جنوب محيط الباسيفيك هي من بين أجمل الأماكن في العالم. تحيط هذه الجزر والشعاب على شكل عقد من اللؤلؤ بإحدى أكبر البحيرات المحيطية في العالم، وتمتدّ على مساحة 2000 كم مربع في جزر مارشال بميكرونيزيا. وصل المستعمرون الأوائل إلى المنطقة قبل 3000 عام، وعاشوا بغموض نسبي حتى فترة الحرب العالمية الثانية. لسوء الحظ، وصلت حياتهم وأسلوب حياتهم العتيق إلى نهاية مسدودة عندما خاض الأمريكيون واليابانيون معارك ضارية على جزيرة كواجالين.

أمّا الدمار الحقيقي والفعلي لنمط حياتهم القديم لم يبدأ إلا بعد ذلك بعدة سنوات عندما قرّرت الولايات المتحدة استخدام جزر كواجالين المرجانية كمنطقة أهداف للصواريخ البالستية العابرة للقارات ومضاداتها. تمّ توجيه الصواريخ إلى جزيرة كواجالين، وحاولت الصواريخ المضادة إسقاطها قبل أن تبلغ أهدافها. لا حاجة للقول أنّ الولايات المتّحدة لم تكن تريد وجود سكان على هذه الجزر المستهدفة، لذلك انتزعت السكّان من موطنهم الأصلي. جزيرة إيبيي الصغيرة عند النهاية الجنوبية للحيد المرجاني تمّ استصلاحها وبناء مدينة صغيرة عليها. تمّ تهجير حوالي 6000 شخص من السكّان الأصليين من موطنهم الغني بالأسماك ومزارع جوز الهند،

وتجميعهم في تلك الجزيرة الصغيرة.

كانت معدّلات الانتحار بين سكان كواجالين الأصليين منخفضاً إلى حدٍ كبير بالرغم من ازدحامهم الشديد على الجزيرة، والصّدمة الثقافية التي سبّبتها سياسات الولايات المتّحدة. طوال عشر سنوات، من عام 1955 وحتى 1965، لم تحدث حالة انتحار واحدة على جزيرة إيبيي. في عام 1966، أقدَمَ شاب على شنق نفسه في السجن، لكن لم يكن لهذه الواقعة أي أثر يُذكر، ثم بعد ذلك بعدّة أشهر، شاب آخر من أسرة مرموقة وابن أحد رجال الأعمال المحليين، وجد نفسه مسؤولاً عن حبيبتين وطفلان، طفل من كل واحدة. فأقدم على قتل نفسه هرباً من هذا الوضع ولتفادي مواجهة العواقب.

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، أقدَمَ شابٌ آخر على قتل نفسه مقلّداً عملية الانتحار التي أقدم عليها الشاب الأول، ثم تبعه شابٌ آخر، واستمرّ العدّاد بالارتفاع. خلال السنوات العشر التالية، وقعت 25 حادثة انتحار، جميعها متشابهة ومتماثلة. شبّان من أعمار متقاربة، نفس طريقة الشنق، ونفس الرسائل تقريباً جميعها مشابهة لرسالة الشابّ الأول الذي أطلق هذه السلسلة من الحوادث. عملية الانتحار هذه اكتسبت لنفسها شكل وصيغة الطائفة السّرّية في المجتمع، وتمّت الإشارة إليها على ربطات العنق، والقمصان، وكلمات الأغاني المحلية التي كانت تذاع في الراديو.

يَسهَل فهم ميم «الانتحار الميكرونيزي» بوصفه «جرثومة مرضية»، فكرة ضارّة إلى أبعد حَدّ، لكنّها موجودة لا تزول، لأنّها تمتلك خصائص أخرى تعتبر جميلة وجذّابة ومرغوبة. الانتحار والموت يتميّزان بجاذبية داكنة ومظلمة بالنسبة للمراهقين الذين ما زالوا في سن الدخول في مرحلة النضج ويتعلّمون واقع أخلاقهم ومبادئهم الأخلاقية.

لقد ناقشنا كِلا نهايتي طيف العلاقات ما بين الأنواع، من التعايش (حيث تعود الفائدة لكِلا النوعين)، إلى الأمراض الفتّاكة والأوبئة القاتلة (ضارّة وسيئة لكلا النوعين). في الواقع، إنّ العلاقات بين الأنواع تغطّي كامل الطيف، من الأمراض والطفيليات، إلى الأنواع المتداخلة بالتعايش حيث لا يمكن لأحد النوعين العيش والبقاء من دون الآخر.

قد تفاجأ عزيزي القارئ إذا عرفتَ أنّ الكائنات المسبّبة للمرض هي العدوى الأقل شيوعاً في جسدك. معظم الكائنات التي تعيش بداخلك أو على جسمكْ لا تسبّب أيّة أعراض أغلب الأحيان. استراتيجيات تلك الكائنات أكثر نجاحاً بكثير من العدوى المسببة للمرض. إنّها تكمن بدون أن تجري ملاحظتها، خلال المراحل الأولى والمبكّرة من حياتك على الأرجح وتعثر على فجوتها المناسبة، على جلدك ربما، أو جفونك، شعرك، أو أمعاءك.

ديدان العيون (*Demodex Folliculorum*) أو ما يسمى بالدوديات الدقيقة/ الديموديسيات) هي مثال واضح. فأغلبنا لديه مثل هذه الديدان الدقيقة تعيش على جذور أجفاننا. إنّها لا يتجاوز طولها 0,4 ملم (أي حوالي 15 من الألف من الإنش)، لذلك فهي ليست واضحة للعين المجردة، وأسوأ ما يمكن أن تفعله بنا هو أن تسبّب بعض الحكّة في العين. قد يكون لديك العشرات منها عند جذور جفونك، إلا أنّ أغلبنا لا يعرفون أصلاً (أو لا يريدون أن يعرفوا) بأنّها موجودة هناك.

لاحظ كيف أنّ استراتيجية ديدان الأجفان الناجحة تتعارض مع استراتيجيات الأنواع المسبّبة للأمراض. فيروس الانفلونزا يواجه وسطاً معادياً وقاتلاً في جسدك. ليس لديه وقت أكثر من أسبوع أو أسبوعين لكي يتكاثر، لذلك يجعلك تعطس وتسعل لتنشره وتنقله إلى ضحية أخرى، قبل أن يفتك جسدك به بشكلٍ كامل، من الصعب أن تكون فيروس انفلونزا.

في المقابل، دودة العين تستقرّ عند جذور أجفانك لفترة من الوقت. ستظلّ دودة العين وجميع سلالتها معك وبرفقتك، ستعيش معك بسلام ودون أن تزعجك، لبقيّة حياتك.

الميمات لديها نفس الطيف من العلاقات مع البشر. بعضها تعايشي، أي أنّها تساعدك على البقاء سليماً، أن تجد الغذاء، تجذب الشريك، تستمتع بالحياة، تتناسل، وتعيش براحة وسلام. قد يكون هناك ميم ضمن أفراد قبيلة من الصيادين-الجامعين يساعد أفراد تلك القبيلة على تذكّر مواقع الغذاء ومكانه بالتحديد في كلّ فترة أو فصل من السنة. ميمات النكت والفكاهات هي ميمات مسلّية ومضحكة وتساعدنا على الاستمتاع والاسترخاء. ميمات الأخلاق تساعدنا على التكيّف والسلوك الحسن تجاه بعضنا البعض. الميم الذي يخبرك «صُنْ المرأة والأولاد وقم بحمايتهم» يساعدنا على حماية عائلاتنا والدفاع عنها ورعايتها. لكن، على غرار ما يحدث في العالم البيولوجي، هناك ميمات طفيلية، أفكار ضارّة ومؤذية، ومع ذلك فهي موجودة. الميمات التي تدفع الشبّان الصغار للانضمام إلى العصابات، تشجّعهم على التدخين، أو الإسراف في مصروفهم، وتعاطي المخدرات، جميعها ميمات ضارّة. ومع ذلك فهي مزدهرة في مجتمعاتنا المعاصرة، ومن الصعب جداً استئصالها وإزالتها والتخلص منها.

غزاةٌ غرباء

«الكل يلقي اللوم على الغريب فوراً»

[أسخيلوس 525-456 ق.م]

في أكتوبر من عام 1859، قام السيد توماس أوستن من وينشلسي، فكتوريا، (أستراليا)، بإطلاق واحدة من أسوء الآفات في العصر الحديث. لقد تسبّب بالقضاء على ثمن أنواع الثدييات في كامل القارة الاسترالية، وقد تضرّرت الحياة النباتية في تلك القارة لدرجة سيئة حتى ما عدنا نستطيع حساب المدى الكلّي للأضرار. أطلق السيد أوستن مشكلة تعرية للتربة ما زالت مستمرّة حتى اليوم، جارفة كميات هائلة من التربة السطحية الخصبة إلى البحر. الأضرار التي سبّبها السيد أوستن للزراعة الاسترالية والنظام البيئي والاقتصاد الاسترالي يصعب إحصاؤها.

ما هي هذه الجريمة الفظيعة التي ارتكبها السيد أوستن؟ في ذلك الشهر المصيري من عام 1859 أطلق السيد أوستن حوالي أربعاً وعشرين أرنباً. كان صيّاداً شرهاً، وكان يفتقد تلك الأيام في انكلترا حيث كان يخرج إلى الصيد ويصطاد عدّة أرانب من أجل طاولة العشاء. لذا أرسل رسالة إلى ابن أخيه ليرسل إليه بضعة أرانب (بالإضافة إلى بعض الأرانب الوحشية، وطيور الحَجَل، والسنونو).

لسوء الحظ، كانت أستراليا تمثّل برهاناً على صحّة مقولة قديمة «إنّهم يتناسلون كالأرانب». فخلال عشر سنوات فقط، تكاثرت تلك الأرانب الأربع وعشرون وتناسلت بكثرة لدرجة أنّك إذا قتلت منها مليوني أرنب كل عام فذلك لن يقلل من أعدادها. اليوم، ما زالت العادات المدمّرة

مستمرة بدون انقطاع حتى الآن، وكلّفت المزارعين والحكومة الاسترالية مئات الملايين من الدولارات كل عام جرّاء الأضرار المستمرّة التي تسبّبها الأرانب بالمزروعات والمحاصيل وغيرها من المشاكل الأخرى. حتى أنّها تكيّفت مع نوعين من الأوبئة المصممة لقتل الأرانب ونَجَت منهما، فيروس الميكسوما *myxoma* المميت الذي أنتجته الحكومة عام 1950، ومرض نزفي أقل فعالية *Calcivirus* في عام 1996.

في الغابات الرئيسية، تعاني الأنواع من حياة قاسية. كل نبتة عملياً، كل حيوان، حشرة، وفطر، تتنافس مع بعضها بشراسة وضراوة للحصول على الغذاء (بغضّ النظر عن نوعه)، كما أنّها في صراع دائم ضدّ المفترسات والطفيليّات. العشب يؤكل من قبل الأرانب، الأرانب تؤكل من قبل حيوانات القيوط، والقيوط تبتلى بالبراغيث والقراد، بالإضافة إلى أنّها بحاجة لأن تتفوّق على الذئاب بذكائها، الببكت، واليغور التي تتغذّى على الأرانب أيضاً. لا أحد منهم يعيش «حياةً هانئة».

إحدى أكثر السّمات الناتجة عن مبادئ التطوّر إذهالاً هي أنّ الأنواع تميل لتتطوّر بالتوافق مع بعضها البعض بطرق وأساليب تُبقي الأنواع في حالة توازن. تصوّر، على سبيل المثال، أنّ ثعالب القيوط قد تطوّرت لتصبح أسرع من الأرانب، لكي تستطيع الامساك بالأرانب بسهولة. يبدو ذلك عظيماً (بالنسبة للقيوط) أليس صحيحاً؟ ... خطأ: ستقوم ثعالب القيوط بقتل جميع الأرانب، ثمّ ستتضوّر جوعاً بعد ذلك حتى الموت.

تصوّر بدلاً من ذلك أنّ الأرانب قد تطوّرت لتكون أكثر سرعة من القيوط، حتى لا تتمكّن الأخيرة من الإمساك بها. رائع (بالنسبة للأرانب) صحيح؟ ... خطأ: فالأرانب الأسرع سيكون لديها بنية عضلية وعظمية أضخم بكثير، وهذا يعني أنّ هذه الأرانب الخارقة يجب أن تأكل أكثر

لتبقى حيّة. ما أن تتناقص أعداد القيوط، حتى تتراجع الأرانب من الناحية التطوّرية، لأنّها سيتوجّب عليها استهلاك كمّيات كبيرة من الغذاء لتعزيز العضلات والعظام الضخمة (وغير الضرورية)، لذا ستتفوّق الأرانب الأصغر والأبطأ وتسود. عادةً يفضّل التطوّر حالة التوازن بين مجموعة كبيرة ومتنوعة من المتغيّرات.

إحدى أكثر العلاقات التعايشية إثارةً للاهتمام بين مجالين أكاديميين حدثت عندما قام علماء الاقتصاد بتطبيق معادلاتهم الرياضية على مجال التطوّر. لقد أدرك الاقتصاديون أنّهم بإمكانهم دراسة الأنظمة البيئية معتمدين على تحليل الثَمَن/الفائدة. فمن خلال موازنة الفوائد (ألا يصبح الأرنب طعاماً للقيوط) مقابل الثّمَن (على الأرنب أن يأكل أكثر لكي يدعم بنيته العضلية والعظمية الضخمة)، كان الاقتصاديون قادرون على تبيان الأسباب التي تجعل الأنواع تميل لأن تبقى ضمن معركة ثابتة ومستقرّة ومتوازنة. فإذا أصبحت الأرانب أسرع من القيوط، فإنّ القيوط بدورها تصبح أسرع أيضاً، ولن يكون هناك اختلال كبير في التوازن.

لقد شاهدنا هذا الأثر مسبقاً خلال القسم السابق، عندما تحدّثنا عن أنّ الأمراض القاتلة والتي تفتك بالمضيف بسرعة تموت على الفور بعد أن تصل لنهاية مسدودة. إذا نظرنا إلى هذه الظاهرة من وجهة نظر عالِم اقتصاد، فستبدو منطقيّة تماماً: يستفيد الكائن المرض من غزوه للجسد (إذ يمكنه إنتاج نفسه بطريقة دراماتيكية)، لكن على حساب/ ثَمَن قَتل المضيف. أمّا المرض المثالي فإنّه يوازن ما بين الفوائد والتكاليف، حيث أنّه يبقيك على قيد الحياة (لكنّه قد يغيّر سلوكك ربما) أطول فترة ممكنة حتى يتسنّى له الانتقال إلى الضحية التالية.

عندما وجدت أرانب السيد أوستن نفسها حرّة ترتع في مرابع القارّة

الأسترالية، فإنّ جميع العوامل التي كانت تقيّدها قد زالت: لم يكن هناك حيوانات مفترسة، ولا شتاءات قارسة البرودة، ولا أياً من الأمراض التي تقلّص أعدادها وتعيق تكاثرها. كما أنّ جميع العوامل التي ساعدتها على الازدهار والتكاثر كانت متوفّرة بغزارة: كان الغذاء وفيراً، والمنطقة كانت مثالية، وبحلول عام 1859 كانت الزراعة منتشرة على نطاق واسع، ممّا منح الأرانب مصادر أكبر للغذاء. إنّ عادة الأرانب في التناسل _مثل الأرانب_ كانت ضروريّة في أوروبا لأنّ أغلب الأرانب كانت قد ماتت قبل أن تصل لسنّ التناسل. لكن في أستراليا، عاشت أغلب الأرانب حتى بلغت سنّ النضج، وتزايدت أعدادها وتكاثرت بطريقة أسّيّة.

لنكون منصفين مع السيد أوستن، فمصطلحات مثل «نظام بيئي» أو «تطوّر» لم تكن معروفة في أيامه. نشر تشارلز داروين كتابه الرائع «أصل الأنواع» في نفس العام، 1859، ونحن نتوقع أنّه لا السيد أوستن ولا أي أحدٍ آخر كان قادراً على توقّع حدوث كل هذا الخراب نتيجة إطلاق تلك الأرانب (مع أنّ داروين بنفسه، إضافة إلى عدّة علماء آخرين قاموا بتوثيق هذه الآثار الكارثية التي يمكن أن يتسبّب بها أيّ كائن غريب). علاوة على ذلك، لو لم يطلق السيد أوستن تلك الأرانب، لقام بذلك أحدٌ آخر بالتأكيد. لقد شاءت الصدفة أن يكون السيد أوستن هو الشخص الأول في التاريخ الذي يرتكب كارثة بيئيّة بحق نظام بيئي معيّن.

إنّ قصّة الأرانب بأستراليا هي واحدة من آلاف الحوادث حيث تدخل كائنات غريبة (أنواعاً ليست محلية) في نظام بيئي معين، مسببةً أضراراً إيكولوجية كارثية غير محسوبة. ذبابة الفاكهة المتوسطية قامت في إحدى المرات بتدمير كافة المحاصيل الجميلة من الفاكهة في هاواي، في حين أن طحلب كاوليربا *Caulerpa* ما زال يُدَمّر كامل النظام البيئي للبحر الأبيض

المتوسط. مستعمرات محار الحمار الوحشي من البحيرات الروسية تغزو الآن بحيرات أمريكا الكبرى. نبات المكحلة الحدقية المائية *hyacinth* من نهر الأمازون بات يخنق الأسماك ويُفسِد نوعية الماء في أفريقيا، وقد كلف الحكومات الافريقية مئات الملايين من الدولارات كل عام، و القائمة تطول أكثر.

الثقافة والمجتمع أيضاً كلاهما عرضة لعوامل التطوّر، مثل الأرانب والقيوط، كما رأينا خلال دراستنا للميمات. الميمات تتطفّر، تتنافس وتتكاثر. قد لا نفاجأ إذا وجدنا أنّ هناك «أنواعاً غريبة غازية» في عالم الميمات، مثل الأرانب في أستراليا. فعندما يتمّ إدخال ميم غريب إلى حضارة ما وبشكل مفاجئ، فيمكن أن يكون مدمّراً للميمات المؤسّسة لتلك الحضارة تماماً كما دمّرت الأرانب النظام البيئي الأسترالي الأصلي.

التركيبة الميمائية التي تهمّنا هنا هي الدين طبعاً. انظر إلى بدايات القرن السابع عشر، عندما اكتسبت الحقبة الاستعمارية التوسعية زخماً هائلاً وكبيراً. جميع القوى الأوروبية باتت تستخدم تفوّقها التكنولوجي لفتح وإخضاع باقي بلدان العالم، وبهدف الكسب الاقتصادي بشكلٍ أساسي. وبالإضافة إلى الهيمنة السياسية والاقتصادية جاءت هيمنتها الدّينية التي تتمثّل في الديانة المسيحية.

الكنائس المسيحية المتنوّعة تمّ تأسيسها وتشكيلها بعد ستّة عشر قرناً من المنافسة الداخلية والخارجية بين الميمات التي تشكّل الدّين المسيحي. ولم تبدأ التركيبة الميمائية من عند يسوع _فقد سبق ودرسنا بتفصيل كيف أنّ يهوه- قد تطوّر وتغيّر على مدى آلاف السنوات قبل بداية الديانة المسيحية، وكيف أنّ الميمات الدّينية كانت تتطوّر قبل يهوه حتى. كان التنافس بين الميمات الدينية المختلفة ضارياً، والميمات الأفضل كانت تلك المرغوبة أكثر، وتمتلك

قدرةً أكبر على التكاثر والانتشار. كانت المسيحية هي المجموعة الأقوى بين الميمات، إذ تمّت تنقيتها وتحسينها على مدى ما يزيد عن ألفيّ عام من التنافس الميميائي القاسي والضاري فيما بينها في تاريخ العالم.

الديانات الأصلية للمناطق مثل جزر الباسيفيك، أستراليا، ونيوزيلندا لم يكن أمامها أي فرصة. مع أنّ دياناتهم كانت قديمة جداً، وكانت مبجّلة وذات مكانة رفيعة عند شعوبها، لكنّها بكل بساطة لم تكن لديها تلك الأنياب الحادّة والمخالب التي تمتّعت بها الديانة المسيحية وميماتها عالية التطوّر. لم تكن مناسبة أو ملائمة مثلها. مفاهيم مثل الجنة، النار، الذنب، التعصّب وكافة المفاهيم الأخرى التي درسناها قد نضجت بشكل كامل خلال القرن السابع عشر، وقد استفادت من الميمات الدينية المحلّية قبل أن تقضي عليها وتزيلها.

فقر الدم المنجلي

ذهاب الصالح مع الطالح

«كلّما تقدّمت عملية التطوّر الروحي عند الإنسان أكثر، تأكّدتُ أكثر بأنّ الطريق نحو التديّن الأصلي لا يكمن في الخوف من الحياة، والخوف من الموت، والإيمان الأعمى، بل عن طريق السعي وراء المعرفة العقلانية».

[ألبرت آينشتاين 1879- 1955]

وُلِدَ والتر كليمنت نويل، رجل كاريبي من أصل افريقي، على جزيرة غرينادا عام 1884، وبفضل التغيير في العلاقات العرقية في الولايات المتحدة، أصبح من الممكن قبول السود في بعض الجامعات، والمدارس المهنيّة، مع أنّ ذلك كان نادراً جداً. كان نويل شاباً استثنائياً من عائلة ميسورة الحال من باربادوس، وكان قد تلقّى تعليماً جيداً. كان قد أدرك هدفه وحلمه عندما تم قبوله في كلية شيكاغو لطب الأسنان وجراحتها عام 1904.

لسوء الحظ، قبل أن يصل حتى إلى الولايات المتحدة، كان السيد نويل يعاني من مشاكل صحيّة جادّة. كان يعاني من آفات جلدية حادّة، آلام شقيقة، وعسر في التنفس وبعد أن وصل إلى شيكاغو بفترة قصيرة، تم إيداعه في مستشفى للطائفة المشيخية، حين قام الدكتور إيرنست آيرون الذي كان يعمل طبيباً متمرّناً تحت إشراف الطبيب البروفيسور جيمس هيّريك، وكان لا يتجاوز السابعة والعشرين من العمر، باكتشاف شيء غريب بعض الشيء في دم نويل، كان لديه خلايا حمراء متطاولة شبيهة بالمنجل. وخلال الأسابيع الثلاثة التالية، أُدخل نويل عدّة مرّات إلى المستشفى المشيخي، وكان يعاني من «آلام روماتيزم عضلية» و«نوبات صفراوية». تخرّج والتر كليمنت نويل

من كلية طب الأسنان عام 1907، واستقرّ في غرينادا حيث أصبح ثاني طبيب أسنان ممارس ومتمرّس يمارس عمله في مدينة سانت جورج الكبيرة. لكن بالنسبة إلى نويل، على غرار العديد من الأشخاص ذوي الأصول الإفريقية، كانت حياته قصيرة جداً. لقد مارس طب الأسنان خلال السنوات التسعة التالية، لكنّ معاناته استمرّت وزادت أعراضه سوءاً. مات نويل، «أول مريض بمرض فقر الدّم المنجلي» جرى اكتشافه عام 1916 بعمر الثانية والثلاثين. ومع أنّه قد أدرجت وفاته بأنّه قد مات جرّاء إصابته بالتهاب الرئة، فإنّ الأطباء الذين يعرفون مرض فقر الدم المنجلي *Sickle-cell Anemia* كانوا متأكّدين من أنّ هذا المرض لم يكن مُكتشفاً وأنّه كان عبارة عن ارتفاع ضغط دم رئوي سببه مرضه الأساسي.

مثّل مرض فقر الدم المنجلي معضلة بالنسبة للعلماء. كان هذا المرض مألوفاً جيداً للأفارقة جنوبي الصحراء الكبرى قبل أن يعالج الطبّ الحديث والتر كليمنت نويل. كان الأفارقة يعرفون أنّه يجري ضمن العائلات، والأطباء الذين درسوا فقر الدم المنجلي سرعان ما عرفوا أنّه كان مرضاً وراثياً. لقد تحيّر العلماء والتطوّريون: من الناحية الطبيعية، المرض الوراثي الذي يقتل الناس أمثال والتر نويل في سنٍ مبكّرة، ويسبّب مثل هذا المرض الحاد، سيتم القضاء عليه بسرعة عن طريق عملية الانتقاء الطبيعي الصارمة. إذن لماذا كان فقر الدم المنجلي منتشراً ومتفّشياً جدّاً بين أفارقة جنوبي الصحراء الكبرى. تبيّن أنّه وبالإضافة إلى أعراضه القاتلة والسيئة، فإنّ الخلايا الدموية المنجلية المشوّهة والغريبة، كانت منيعة ضد الملاريا. مرض الملاريا منتشر وشائع جداً في المناطق الاستوائية، وبشكل خاص في المناطق والأقاليم الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى حيث ينتشر مرض فقر الدم المنجلي أيضاً. وعندما وضع الباحثون هاتين الحقيقتين بجانب بعضهما، تمّ حلّ معضلة

مرض فقر الدم المنجلي. فهذا المرض الوراثي كان ضاراً ونافعاً في آنٍ معاً، لكنّ مظاهره النافعة غير مجدية سوى في المناطق التي تنتشر فيها الملاريا. ومع أنّ مرض فقر الدم المنجلي يقتل العديد من الناس، لكنّه أنقذ الكثير من الناس وساعدهم على مقاومة مرض الملاريا.

بمعنى آخر، أي سمة وراثية قد تكون مفيدة وسيئة في آنٍ معاً، فبقاء الجين واستمراره لا يعتمد على مفعول هذه الثنائية، مفيد/ضار. إنّ مرض فقر الدم المنجلي مفيد فقط حيث يوجد مرض الملاريا، وحتى هناك، فإنّ ثمن الحماية من الملاريا يكون عالياً جداً، متمثّلاً في المعاناة والآلام التي يختبرها المريض، بالإضافة إلى الموت المبكّر.

حلّ معضلة الملحد

«معضلتان أفضل من معضلة واحدة، فهما قد تقدّمان لك حَلاً»

[إدوارد تيللر]

إنّ تطوّر اللغة _قدرتنا على تلقّي ميمات من الآخرين وإعادة إرسالها ونقلها_ لا علاقة له بالدّين، لقد تطوّرت اللغة والميمات لأنّها كانت ضرورية جدّاً لبقائنا واستمرارنا وتكيّفنا. لكن بما أنّه يمكن للفيروْس أن يفرض سيطرته على خلايا جسدك لإعادة إنتاج نفسه، فاللغة البشرية يمكن استغلالها لأغراض مختلفة أخرى من قبل «الفيروس»، في هذه الحالة، فيروس الدين. فيروس الإنفلونزا لا يبالي بالكيمياء الحيوية الرائعة والمذهلة لجسدك وخلاياه وكيفية وجودها وتطوّرها، بل إنّه يستخدمها ويستغلّها فحسب. وبنفس الشكل، فيروس الدّين لا يبالي بالطريقة العجيبة التي ظهرت فيها اللغة البشرية إلى الوجود وكيفية حدوث ذلك، بل إنّه يستغلّها ويستخدمها لأغراضه وغاياته الخاصة، إعادة إنتاج نفسه.

في هذا الفصل، كنّا قد تعلّمنا أنّ هناك عدّة أسباب لوجود الميمات الضارّة والجينات الضارّة وعدم تصفيتها أو التخلّص منها عبر عملية التطوّر.

_ إذا كان ميمٌ معيّن يعود بالفائدة على الفرد فإنّه سينجو ويستمر، حتى وإن كان يضرّ المجتمع ككل (مأساة الشيوع).

_ الميمات الطفيليّة تسيطر على الآليات التي تطوّرت لأغراض مختلفة تماماً (القدرة على الكلام).

_ «الميمات الغريبة» قد تتطوّر ضمن ثقافة معينة، ثم مع تطوّر البشر

واكتشافهم مجالات جديدة، ومناطق جديدة، «تغزو» هذه الميمات حضارات أخرى حيث تسود وتنتشر وتقضي على الميمات الأصلية.

_ الميمات الحميدة والخبيثة في آنٍ معاً يمكن أن تنجو، طالما أنّ الجوانب الحميدة تغلب على الجوانب الخبيثة (كفقر الدم المنجلي).

هذه المبادئ التطوّرية الأربعة هي الحَلّ الأمثل لمعضلة الملحد. فمع أنّ الدّين قد يشكّل عبئاً على المجتمع، فذلك لا يضمن بالضرورة بأن يعمل التطوّر على تصفيته أو إزالته. فقدرتنا على الكلام، على نقل الميمات من جيل إلى التالي، منحتنا أفضليّة تطوّرية هائلة على جميع الكائنات الأخرى على الأرض. وعندما نقيس فيروس الدّين مقابل ذلك، فإنّه ضارٌ بالنسبة للمجتمع، إلا أنّه ما زال باقياً.

إنّ الكاتبة التهكمية بيكي غاريسون ومن هُم على شاكلتها من الذين يحاولون قلب علم التطوّر ضدّ ذاته، لإثبات أنّ «الدّين» يجب أن يكون مفيداً للبشر، ليسوا مثقّفين بما يكفي وجاهلين بتفاصيل نظرية داروين الدقيقة والثابتة.

ملحق: شكسبير، سفر التكوين، والانفجار العظيم

«لم يكتب وليم شكسبير جميع أعماله، إنّما قام بذلك شخصٌ آخر يحمل نفس الاسم»

[نكتة فلسفية قديمة]

صديق ولدي الصغير «ديل» (اسم مستعار) لديه أغرب تصوّر لكتاب التكوين التوراتي سمعت به من قبل. لسوء الحظ ديل صبي ذكي، باحث، متساءل، ومسيحي متشدّد يؤمن بأنّ الكتاب المقدّس كلام الله المُنزل. فالله، بحسب ديل، قد خلق العالم والكون منذ حوالي ستّة آلاف عام. لكنّ ديل صبي ذكي ومدرك أيضاً لحقيقة أنّ الأدلّة تبيّن هشاشة هذا المنطق، وعكس هذه الفكرة، وأنّ الأرض يتجاوز عمرها أربعة مليارات عام، وأنّ التطوّر بات حقيقة.

هاتين الفكرتين غير متوافقتين على الإطلاق. لذا، وحسب ديل، ولسببٍ غامض، لقد رتّب الله كل شيء لكي يبدو الكون وكأنّه جاء من الانفجار العظيم قبل عدّة مليارات من السنين. ومع أنّ النجوم تبعد عنّا آلاف السنوات الضوئية، فقد وضع الله الفوتونات بعناية بحيث تتّجه إلى الأرض ولكي تبدو النجوم وكأنّها موجودة هناك منذ مليارات السنين. لقد وضع الله الأحافير والمستحاثات بعناية في التربة وحتّ الأنهار ورفع الجبال وشَقّ الوديان بعناية أيضاً، وفعل كل ذلك لكي تبدو الأرض بعمر مليارات السنوات. لقد خلق الله جميع النباتات، الحيوانات، الفطور وكافة أشكال الحياة الأخرى بشكل ستبدو فيه وكأنّها قد تطوّرت عن طريق مبادئ داروين في التطوّر.

كنتُ قد تعجّبتُ من سماعي لكل هذا الكلام خارجٌ من صبي ذكي ومفكّر يوظّف كل طاقاته ومقدراته العقلية للتوفيق بين وقائع وحقائق العالم الواقعي وبين معتقداته الدينية. المشكلة التي تتخلّل نظريته هي أنّها عديمة الجدوى نهائياً. كان بإمكانه القول أنّ هناك رجالاً خضراً صغار يعيشون داخل الشمس، والإصرار بأنّه غير قادرٍ على إثبات خطأ نظريتي (وهذا صحيح). إنّ فرضية الرجال الخضر الصغار ليست صحيحة ولا خاطئة، بل غير مجدية ولا معنى لها. إنّها لا تحمل أيّة معلومات مفيدة، لا يمكن التنبؤ بها، ولا تفسّر أي شيء.

ونظرية ديل كذلك ليست صحيحة ولا هي خاطئة، بل إنّها بلا معنى بكل بساطة. فديل يزعم بأنّ الله قام بخدعة منذ ستّة آلاف عام، لكن بإمكاني الزعم أنا أيضاً بأنّ الله قد خلق العالم وكل ما فيه البارحة، ولم يمضِ على وجودنا على الأرض سوى يوم واحد، وأنّ الله زرع جميع ذكرياتنا في أدمغتنا حتى نظنّ أنّنا موجودون هنا طوال حياتنا. ليس بمقدور ديل أن يثبت خطأ فرضيتي. وهذه الفكرة جديدة ومعاصرة لما يسمى بالنزعة الأناوية *Solipsism* [وتعني الإيمان بالذات فقط وبوجود الأنا فحسب] والتي تؤكّد بأنّنا لا نستطيع حتّى إثبات أنّنا موجودون، لذا فجميع الحجج الأخرى غير مجدية وخرقاء. أنا أسمّيها بالنزعة الخرقاوية *Sloppyism*، استخدام منطق مشبوه وملتوٍ وغير مثبت لتضليل الناس الأذكياء وإلهاءهم عن التقدّم الفكري الحقيقي. لقد اكتشف ديل نفس المشكلة التي أربكت وأقلقت العديد من كبار الفلاسفة ومن بينهم عمانوئيل كانط. كان كانط محتاراً من حقيقة أنّ الأناوي كان بإمكانه الزعم «بأنّ العالم كله ليس سوى انعكاساً لمخيلتي، ولا تستطيع أن تثبت لي بأنّك موجود حتّى إلا في عقلي». لقد أطلق كانط على هذه المشكلة اسم «فضيحة الفلسفة» بأنّ مسألة أساسية

كوجود العالم لا يمكن الإجابة عنها. لكنّ الفيلسوف الألماني الأعظم مارتن هيدغر قد عبّر عن ذلك بشكل أفضل.

«إنّ «فضيحة الفلسفة» لا تتعلّق بتقديم دليل على وجود العالم، بل إنّ مثل هذه الأدلّة والبراهين متوقعة ومجرّبة مراراً وتكراراً» [مارتن هيدغر: الوجود والزمان (1927)]

على ديل أن يتعلّم من هيدغر: الفضيحة الحقيقيّة هي تقديم تأكيدات غير قابلة للإثبات لصرف الانتباه عن المشاكل الحقيقية. ديل يحاول تبنّي واعتناق حقيقتين غير قابلتين للمصالحة، وجعل الأمر يبدو حقيقيا، لقد ابتكر نوعاً من المنطق الغير قابل للدّحض. لسوء حظ ديل، وربما لحظّنا جميعنا نحن الذين سنخسر عقل هذا الشاب اللامع والذكي ليقع في أسر التنظيم والبرمجة الدينية، فإنّ تفسيره الغريب لم يقدّم شيئاً نافعاً سوى تخليص ديل من قلقه الفكري، فبدلاً من تفضيل سعيه وراء الحقيقة والمعرفة الحقيقية، بات ديل الآن عالقاً عند نهاية طريق فكري مسدود.

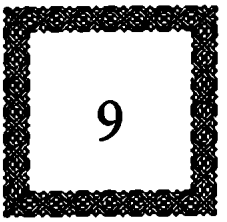

﴿الدين، التكنولوجيا، والحكومة﴾

في عالم النبات والحيوان، كثيراً ما يحدث أن تتدخّل بعض القوى والعوامل الخارجية، لتغيير كفّة الميزان لأي نظام بيئي محدّد لصالح نوعٍ معيّن أو ضرره. يمكن لأي كارثة طبيعيّة (طوفان، وباء) أن تغيّر فجأة نظاماً بيئياً لصالح نوعٍ معين ضدّ آخر. يمكن لعصر جليدي أن يقلّل من مستوى مياه المحيط، ما يخلق جسوراً أرضيّة تسمح فجأة (على مدى الزمن الجيولوجي) لأنواع جديدة بغزو جزيرة مسكونة أو مأهولة مسبقاً، أو حتى قارة بكاملها. يمكن لمذنب أن يقضي على قسمٍ ضخمٍ من الحيوانات على الأرض.

هذا الكتاب عن الميمات بشكل رئيسي والتطوّر، وكيف ظهر الدّين إلى الوجود وتطوّر من خلال عوامل الانتقاء الطبيعي. لكنّ عملية التطوّر الثقافي لا تحدث بشكلٍ منعزل. في هذا الفصل، سنخرج قليلاً عن موضوعنا الأساسي، ونلقي نظرة على بعض العوامل الأخرى التي أثرّت على مسيرة تطوّر فيروس الدين.

طوائف الحمولات

Cargo Cults

«أي تكنولوجيا متطوّرة إلى حدٍ كبير لا يمكن تمييزها عن السحر»

[آرثر سي كلارك]

تخيّل أنّك أحد سكان جزر جنوبي المحيط الهادئ وتبلغ من العمر أربعون عاماً، والآن أنت في عام 1944. أنت صيّادُ سمك ماهر، وتعرف طرق البحر ومواقعه، وتستطيع الابحار بزورقك الصغير Proa (زورق إبحار صغير) على مدى 500 ميل في المحيط المفتوح دون الاعتماد على أي شيء سوى الرياح، النجوم، الطيور، والأمواج في الملاحة، لتزور صديقك في جزيرة أخرى. أنت لديك أولاد وأحفاد، كما أنّك شيخ قريتك، وصياد ماهر، كما أنّك تتمتع بإجلال وتقدير جميع أفراد جزيرتك. أنت إنسانٌ مثقف، متمرّس، وخبير، رجل أنجز كلّ ما يتمنى أيّ إنسان إنجازه.

في أحد الأيام يرسو قارب Proa غريب على شاطئ جزيرتك، أكبر من قاربك ومن دون سارية. يخرج من على متنه مجموعة من الرجال، يرتدون ملابس غريبة، ويحملون أدوات وأشياء غريبة وجميلة. لم يسبق لك أن رأيت رجالاً بيضاً من قبل، بل سمعت قصصاً وروايات من جيرانك في الجزر المجاورة، لكنهم لم يسبق لهم أن قَدِموا بهذه الأعداد، وبقوا كل هذه الفترة الزمنية.

أحدهم يتحدّث بضعة كلمات بلغتك، كلمات كافية لجعلك تفهم غرض مجيئهم وزيارتهم. يبدو أنّهم في حالة حرب مع بعض القبائل الأخرى، قبائل

تعيش بعيداً عنك. ومع أنّ هؤلاء الرجال غرباء، فأنت تفهم أنّهم في حالة حرب. هؤلاء الرجال يخبرونك بأنّهم سيركّبون «راديو»، ويفسّرون لك بأنّ البرج الطويل، ذو الأذرع الطويلة والنحيلة، والتي يسمّونها «توصيلات»، ستنزل الغلال والخيرات من السماء. سترى أنت وأصدقاءك الأمر مسلياً جداً، وتستغربون كيف سيتمكّن هؤلاء الغرباء والمجانين من النجاة والبقاء على قيد الحياة وهم لا يعرفون كيفية الصيد، وليس هناك امرأة بينهم.

ثمّ يحدث الأمر! تسمع صوت آلة غريبة صاخبة تحلّق فوق رأسك، تشبه الطيور العملاقة، وعندما يتحدّث الغرباء بلغتهم غير المعروفة بالنسبة لك عبر جهازهم الراديو، سترى هذه الآلات الطائرة وهي تلقي حمولات هائلة على جزيرتك. وما أدراك ما هذه الحمولات. طعام، أغطية، أسلحة، خيام، والعديد من الآلات الأخرى! هؤلاء الرجال أغنياء وأثرياء إلى درجة لا يمكنك تصوّرها. سكاكين، فؤوس، مناشر مصنوعة من الحديد، أكثر حدّة وصلابة من أي شيء كنت قد شاهدته من قبل. طعام مخزّن بالعلب والصناديق، وهؤلاء الرجال الغرباء لا يذهبون أبداً في صيد أو لتجميع الطعام أو تسلق أشجار النخيل من أجل جوز الهند. آلات تزحف في جميع أرجاء جزيرتك بسرعات عالية من دون أن يدفعها أحد. ثم بعد ذلك، أحد أحفادك يصاب بالمرض، ولتكن حفيدتك المفضّلة، ثم تتذكر أنّ جميع الأولاد الذين ماتوا من قبل قد ماتوا قبل أن يبلغوا سن الرشد، فتقع في حزن وكرب شديدين، لأنّ حفيدتك المفضلة قد تكون هي التالية. لكنّ هؤلاء الغرباء يرسلون «طبيبهم»، الذي يعطي حفيدتك العزيزة نوعاً من الدواء، وخلال بضعة أيام تنهض من سريرها بكامل قواها وتقفز للعب مع الأولاد الآخرين.

بعد عام، يخبرك هؤلاء الغرباء بأنّهم قد تغلّبوا على أعدائهم، ثم يوضّبون

أغراضهم وحمولتهم، ويرحل بعضهم. لكن يصل بعد ذلك رجل جديد. هذا الرجل يرتدي ملابس مختلفة، كما أنه ليس محارباً، لكن يسمي نفسه «كاهن». إنه يتحدّث لغتك بشكل ممتاز، الأمر الذي يفاجئ الجميع. يبدأ هذا الرجل بالتحدّث عن إله جديد، هذا الإله يسمّى «يسوع»، نزل إلى الأرض لكي يخلّص الجميع من نهاية مؤسفة. يخبرك هذا الكاهن عن الجحيم والجنة، والجحيم يبدو مخيفاً جداً ومرعباً. وتلاحظ أنّ هذا الكاهن لا يقول فقط عن يسوع أنه إله، بل إنّه يقول أنّ الآلهة الأخرى، التي كنت تعبدها أنت وآباؤك وأجدادك وجميع أسلافك، هي آلهة مزيّفة، وأنّك يجب أن تتوقّف عن عبادتها، وأنّك ستذهب إلى ذلك الجحيم لا محالة إذا لم تقبل بيسوع كإلهك. أغلب أهالي القرية لا يصدّقون كلام الكاهن الجديد. لم يسبق لهم أن سمعوا بيسوع هذا لكن من الصعب جداً فهم الأمر _إذا كانت آلهتك القديمة قوية جدّاً وقادرة، فلماذا لا يؤمن بها هؤلاء الرجال الغرباء وكهنتهم، ولماذا لديهم كل هذه الحمولات من الغذاء والدواء؟ لماذا كان طبيبهم قادراً على إنقاذ حفيدتك العزيزة والمفضلة؟ على الأرجح كان عليك الاستماع لهذا الكاهن، وأن تبدأ بالصلاة لإلهه يسوع، إذ أنه لا بد أن يكون قوياً جداً ليمنح هؤلاء الغرباء كل هذا الثراء، التقنية المتقدمة، والدواء.

القصّة التي سردناها للتو هي قصة خيالية، لكن قد تكون صحيحة _قد تحدث الكثير مثل هذه الأحداث. أمّا مسألة طوائف الحمولات فقد مضت لأبعد من القصة التي في الأعلى، فهناك حالات موثقة حيث حاول السكان الأصليون محاكاة تكنولوجيا أبراج الراديو بأبنية من الخيزران وقطع أشجار الغابات لفتح مدارج لهبوط الطائرات، على أمل استجلاب المزيد من الحمولات من السماء. النقطة التي تهمنا هنا هي ليست «طائفة الحمولات» بحدّ ذاتها، إنّما المشروعية والأهلية التي تضيفها التكنولوجيا الغربية على

فيروس الدين. فالتقدّم التكنولوجي الذي حدث خلال الفترة ما بين العصور الوسطى والقرن العشرين كان يمثّل إنجازاً عالياً للعقل الجمعي لبني البشر. لكنّ فترة الحقبة الكولونيالية، كانت التكنولوجيا الأوروبية والزراعة والطبّ الأوروبيين أكثر تقدّماً من جميع الحضارات والثقافات التي التقت معها. لم يكن بوسع السكان المحليين سوى التعجّب والإعجاب بالسفن والقوارب الضخمة، الأسلحة، السكاكين والخناجر الحديدية، اللغة المكتوبة، الملابس الصوفية، الزجاج، أحجار القدح المعدنية لإشعال النيران، والمئات من العجائب الثقافية والتكنولوجية الأخرى. اجمع جميع هذه الأمور مع فكرة _فكرة تتشاركها جميع الديانات تقريباً_ أنّ جميع الأمور الجيدة والحسنة ممنوحةٌ لنا من قبل الآلهة، آلهتنا، وبذلك فُتِحَ باب طويل وعريض للتعرّف إلى المسيحية.

ومع أنّ هؤلاء البدائيين لم يكونوا متقدّمين تكنولوجياً، لكنّهم لم يكونوا أغبياء. فقد أدركوا بسرعة قيمة التكنولوجيا الغربية وأهمّيتها، وأُعجبوا بها وبالأوروبيين بشكل عام. وطوائف الحمولات هي مثال صارخ، حيث تقوم الحضارات المتقدمة والمتفوقة تكنولوجياً بإلقاء نفسها فجأة وجميع عجائبها وغرائبها في وسط حضارة أقل تطوراً وبدائية من الناحية التكنولوجية.لكن حتى في الحالات الأقل تطرفاً، فإنّ التكنولوجيا البسيطة نسبياً، كالقطع الزجاجية، السكاكين والفؤوس، المناظير، وحتى السكر، جميعها تمتلك القوة لإثارة إعجاب البشر الأقل تطوراً. كانت البعثات التبشيرية تحمل معها بعض الأدوات التكنولوجية، مما يضفي عليها بعض الشرعية والأهلية من خلال ارتباطها بالتقنية المتقدّمة. وأفضل تعبير على ذلك هو: « إلهك جيّدٌ وصالح ويعاملك بشكل جيد، لا بد أنّه أقوى وأعظم من آلهتنا القديمة، لذلك سنستمع إليك ونصغي لتعاليمك».

الدين والتكنولوجيا العسكرية

«عندما قَدِمَ المبشرون إلى إفريقيا كان لديهم الكتاب المقدّس وكانت لدينا الأرض. قالوا لنا: «دعونا نصلي»، ثم أغلقنا أعيننا. وعندما فتحناها بات لدينا الكتاب المقدّس وباتت الأرض ملكهم»

[ديزموند توتو]

الطوائف الحمولات تبيّن بأنّ التكنولوجيا قد أضفت مصداقية على الديانات الغربية، والديانة المسيحية بالتحديد. والجانب المظلم للدّور الذي لعبته التكنولوجيا في نشر الديانة المسيحية يكمن في التفوّق الذي منحته لها في الحرب.

أحد أكثر الأيام سواداً وحلكةً في تاريخ الامبريالية الغربية كان 16 نوفمبر عام 1532، عندما قام المستكشف الإسباني بيثارو[1] ومعه قوة صغيرة مكوّنة من 168 جندي، بأسر أحد ملوك الإنكا (أتاوالبا)[2] عن طريق المكر والخديعة، ثم ذبحوا حوالي 7000 محارب من الإنكا، من دون أن يخسروا هم ولو جندياً إسبانياً واحداً. كانت المجزرة في ذلك اليوم مريعة، كل جندي إسباني لا بد أنه قد قتل حوالي خمسين محارباً من الإنكا بسيفه المعدني. كما أنّ هؤلاء القتلى السبعة آلاف لا يخبروننا القصة كاملةً، لأنّ جيش أتاوالبا الذي تشتت في النهاية خوفاً وذعراً، كان يقدّر تعداده ب 80000 محارب.

---

(1) فرانثيسكو بيثارو غونثاليث، ولد في 16 مارس 1478، ترجالة، إسبانيا - توفي في 26 يونيو 1541، ليما، بيرو هو كونكيستدور إسباني. فتح إمبراطورية الإنكا وأسس مدينة ليما عاصمة بيرو الحالية.

(2) أتاوالبا (بالإسبانية: Atahuallpa) هو آخر ملوك الإنكا وابن واينا كاباك من زوجته باتشا وهي أميرة من مملكة كيتو المحتلة وأخ واسكار.

مع أنّ البنادق والمسدسات قد لعبت دوراً في المعركة، إلا أنّ الأسلحة النارية في تلك الفترة كانت غريبة وبدائية وصعبة التلقيم، ولم يكن بيثارو يمتلك سوى عدة عشرات منها. معظم التفوّق العسكري كان بفضل سيوف الإسبان الحديدية، دروعهم المزرودة، وأحصنتهم. فالمحارب الإسباني المدرع الذي يمتطي حصاناً وبيده سيف حديدي ورمح معدني هو أفضل آلة للقتل، ومنبع عملياً ضدّ أسلحة الإنكا الهشّة والبدائية.

يُنْسَب انتصار بيثارو الساحق أحياناً إلى عامل الخوف والارتباك جرّاء مشهد الأسلحة النارية، الأحصنة، والأبواق الصاخبة، جميع هذه العوامل أربكت الإنكا وأخافتهم، بالإضافة إلى الاصطدام معهم أول مرّة. لكنّ المعارك اللاحقة مع الإنكا، والانتصارات المماثلة التي أحرزها كورتيز ضد محاربي الأزتيك، أثبتت أنّ التكنولوجيا الأوروبية، وليس عاملي المفاجأة والخوف، هي المسؤولة عن الانتصارات التي أحرزها الإسبان.

مرّةً بعد مرّة، فاز الإسبان في جميع المعارك غير المتكافئة، فِرَق صغيرة من عدة عشرات أو مئات من الجنود الإسبان كان ينتصرون بشكل ساحق ضد جيوش الآزتيك والإنكا الجرّارة، حتى عندما كانت هذه الجيوش على معرفة قريبة بأسلحة الاسبان النارية وأحصنتهم.

أسلحة نارية، جراثيم، وفولاذ

«انتقلت الأمراض السّارية والمعدية التي نقلها الأوروبيون إلى أمريكا من قبيلة هندية إلى أخرى، وبشكلٍ أسرع من الأوروبيين أنفسهم، وقتلت حوالي 95٪ من سكّان العالم الجديد».

[جاريد دياموند]

تبيّن حمولات الطوائف كيف أنّ التكنولوجيا المتقدّمة تضفي مشروعية على الدين، كما أنّ هزيمة بيثارو لأتاوالبا تبيّن كيف يمكن للدين أن يكون مدعوماً من قبل مشاركة التكنولوجيا في الفتوحات العسكرية. وهذا يقودنا بشكل مباشر إلى السؤال التالي: لماذا كانت التكنولوجيا الغربية متفوقة ومتقدمة جداً عن باقي حضارات العالم؟ لماذا غزت الثقافة الغربية وهيمنت على العالم؟ هل هناك أي شيء متعلق بالأوروبيين الغربيين يجعلهم متفوقين على بقية الأعراق الأخرى؟ هل كانوا أذكى؟ أو عاملون أنشط، أو متفوقون بدنياً؟ هل كانوا محظوظين فحسب؟ أو (قد يتساءل البعض) هل هناك فعلاً إله يفضل المسيحيين على بقية الشعوب الأخرى؟ لماذا الغربيون متقدمون على الجميع؟ ولماذا انتهى الأمر بهم باحتلالهم قسم كبير من العالم، ناشرين ثقافتهم، لغتهم، ودينهم على حساب العديد من الثقافات الأخرى التي تم محوها أو طمسها؟

عنوان هذا الفصل، والمواضيع المطروحة خلاله، مأخوذة من كتاب جاريد دياموند «أسلحة نارية، جراثيم، وفولاذ» ومكرّسة من أجله. يجيب كتاب دياموند عن هذه الأسئلة بطريقة مقنعة. وإذا كنت تريد استخلاص الفكرة الأساسية في كتاب جاريد وتختصرها في تفسير بسيط، فستكون على

الشكل التالي: « الغربيون محظوظون للغاية!».

بمعنى آخر، لم يكن هناك أي شيء مميز أو فريد أو سحري حول صعود وهيمنة الثقافة الغربية وانتشارها، لم يكن أكثر من مجرد حظ جيد وموفق من ناحية الجغرافيا، المناخ، التنوع الأحيائي، الطقس، الأنعام والمواشي، والأمراض، جميع هذه الأمور التي جعلت الحضارة الغربية تتقدم بشكل أسرع وأكثر من الحضارات الأخرى.

سأقوم بمحاولة هنا، في بضع صفحات، بتلخيص وتوضيح بعض الملاحظات والنقاط التي وضعها دياموند. وهذا بالتأكيد ملخّص كافٍ لبصائر دياموند وآراءه. وأيّة أخطاء ترد في هذا الفصل ترجع إليّ أنا وحدي.

هنا أورد ملخصاً لأهم العوامل التي ساعدت المجتمع الغربي:

الحيوانات الداجنة: أو بالأصح، الحيوانات القابلة للتدجين. فنحن نعيش في ألفة مع الأحصنة، الأبقار، الخنازير، الخراف، والكلاب والقطط، وأغلبنا لم يسبق له أن تساءل من قبل من أين جاءت أو ما مصدرها. لماذا لم يكن للاستراليين البدائيين أو سكان أمريكا الأصليين أيّة حيوانات أليفة وداجنة؟ هذا لسوء حظهم. إذ يحدّد دياموند ستة خصائص أو سمات لا يجب أن تكون متوفرة لدى الحيوانات الداجنة، وأي واحدة من هذه السمات والخصائص تجعل من الحيوان غير قابل للتدجين.

الطباع الحادة: مهما بلغ احتكاكه مع البشر، لا يمكن للبوفالو الأمريكي أن يصبح داجناً أو ودوداً، إذ أنه سيحاول قتلك سرعان ما استطاع ذلك. حمار الوحش الإفريقي سيفعل نفس الشيء. ذكر النعامة البالغ قد يقتلك برفسة واحدة إن أصابك في إحدى النقاط الحساسة بجسمك. لم تنفع مع هذه الحيوانات أي محاولة تدجين، وبقيت برية غير أليفة.

تفزع بسرعة وبسهولة: تميل آكلات العشب التي تعيش في السهول والهضاب المفتوحة أن تكون طعاماً للأسود والضباع. ولكي تستمر وتنجو، طوّرت لديها وبراً يولد استجابات فزع، فتنطلق راكضة بسرعة. هل نستطيع ترويض أو تدجين غزال سيجفل ويفزع بسرعة وسهولة إذا عطست بالقرب منه، ليقفز من فوق سياج يرتفع أكثر من 20 قدماً؟.

حيوانات تكبر ببطء: فسلاحف جزر غالاباغوس لا تصلح لأن تكون حيوانات داجنة، لأنها ستتطلب زمناً طويلاً قد يكون أطول من حياتك لتبلغ سن البلوغ لتستطيع أكلها.

حيوانات لا تتناول إلا أطعمة محددة: دببة الباندا لا تأكل سوى الخيزران. لذا لا يمكن تربيتها في أي مكان لا ينمو فيه الخيزران.

لا تتزاوج وهي في الأسر: هناك بعض الحيوانات التي تتطلب طقوس التزاوج لديها أنماطاً معينة من الحركات أو النشاطات التي لا يمكنها القيام بها في الحديقة أو الحظيرة. فلا يمكنك مزاوجة النسور الأمريكية وهي في الأسر لأن طقوس تزاوج الذكر والأنثى تتضمن عروضاً جوية متقنة ومتناسقة، انقضاض ودوران حر في الهواء، وشبك المخالب في عملية سقوط حر أشبه بالمصارعة لا تنتهي بين الاثنين إلا وهما على وشك الارتطام بالأرض. ومن دون هذه الطقوس ما قبل التزاوج، لا يمكن للطائرين أن يكملا العملية.

ليس بمقدور البشر السيطرة عليها: الحيوانات الأليفة كالقطط والكلاب تتمتّع ببنية اجتماعية قوّية ومتماسكة، وإذا تربّت مع البشر فإنّها ستتقبّل البشر بسهولة وتنظر إليهم بشكل طبيعي بوصفهم «الكلب الكبير».

أمّا الحيوانات «المنفردة أو المُنعزلة» فمن الصعب تدجينها إضافة إلى أنّ الحيوانات الداجنة يجب أن تكون ذات أحجام مناسبة للعمل أو للأكل. قد

تكون قادراً على بناء مزرعة للفئران، لكن جمع عدد كافٍ من الفئران ليشكلوا وجبة مناسبة سيكون عملاً صعباً.

عندما تضع جميع هذه النقاط في حسبانك، يتبيّن لديك أنّ - ومن قبيل الصدفة الحسنة والحظ الموفق- أنّ جميع الحيوانات الداجنة أو القابلة للتدجين تقريباً صدف أن وجدت في قارة يوراسيا. الأنعام، الخراف، الخنازير، الدجاج والأحصنة هي من بين أفضل الحيوانات القابلة للتدجين في العالم، وكلها مصدرها قارة يوراسيا. إفريقيا يوجد فيها بعض الحيوانات الداجنة كالأنعام والمواشي، أمريكا الوسطى فيها اللاما[1] والألباكا[2]. أما أمريكا الشمالية فليس فيها شيء قابل للتدجين، لذلك كان على الأمريكيين الأصليين التوجه لصيد جواميس البوفالو[3] البرية والأيل، وأستراليا أيضاً كانت في نفس الحالة. قدّم لنا دياموند تفسيراً رائعاً وكافياً لكل حيوان داجن محتمل في العالم، وبيّن لنا أن الأوروبيين قد حالفهم كل الحظ.

الجغرافيا: كان الأوروبيون مستفيدون أيضاً من حسن حظهم الجغرافي، إذ تمتد القارة الأوراسية على امتداد 173 درجة طول، وتغطي حوالي نصف

---

(1) اللاما أو اللآمة أو اللامة الأهليّة حيوان من الثدييات من فصيلة الجمليات من رتبة مزدوجات الأصابع.، يعيش في جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية في كل من إكوادور، بيرو، بوليفيا، تشيلي وشمال غرب الأرجنتين.

(2) الألباكا او الألبكة هو حيوان ثديي ذو حافر مدجن شبه مستأنس من فصيلة الجمليات يعيش في أعالى جبال الأنديز بأمريكا الجنوبية ويشبه الخروف طويل الرقبة، ويشبه أيضاً اللاما الصغيرة، وتؤكد الدراسات الجينية الحديثة أنه ينحدر من سلالة حيوان الفكونة الجنوب أمريكي.

(3) البوفالو أو البيسون جنس يَنتمي إلى تحت فصيلة الأبقار ضمن مجموعة البقريات ويَضم نوعين حيين يَعيشان في قارتي أمريكا الشمالية وأوروبا. إن نوعي البيسون هذين هما البيسون الأمريكي والأوروبي أو «الويسنت»، لكن مع هذا فأحياناً ما يَقوم بعض المصنفون بوضع الاثنين ضمن نوع واحد كونه لا توجد فروقات كبيرة بينهما.

الكرة الأرضية الشمالي، وتبلغ مساحتها تقريباً 12000 كيلومتر من الشرق إلى الغرب. هذا يعني أنّ المناطق المناخية - المناطق التي يمكن للحيوانات والمحاصيل أن تزدهر فيها - شاسعة وهائلة. يمكن للحصان أن يتجوّل من البرتغال على شواطئ الأطلسي، إلى الصين على سواحل المحيط الهادي، ويجد مناخاً ملائماً وطعاماً وفيراً في جميع أرجاء المكان. وهذا ما منح الأوروبيين إقليماً اقتصادياً أوسع ليحصلوا منه على حيواناتهم الداجنة ومحاصيلهم.

بالمقابل، القارة الأمريكية تمتد على نفس المساحة تقريباً، لكن على امتداد من الشمال إلى الجنوب. تمتد القارة على مدى حوالي 125 خط عرض، من القطب الشمالي وحتى القطب الجنوبي، ومع ذلك فالمناطق المناخية بالنادر تمتد لأكثر من ألف كيلو متر باتجاه الشرق- غرب، وفي مناطق معينة لا تتجاوز الألف كيلومتر. هذه المناطق البيئية الضيقة والصغيرة نسبياً تحتوي فصائل وأنواع أقل من المناطق الواسعة التي في يوراسيا. والأهم من ذلك أنّ مناخ المناطق ذات الاتجاه شرق- غرب تشكّل عوائق وحواجز أمام هجرات الأنواع المتجهة من الشمال إلى الجنوب. على سبيل المثال، صحراء سونوران التي تمتّد شمال المكسيك والمناطق الجنوبية الغربية لأمريكا تعيق بشكل كامل النباتات والحيوانات الاستوائية من العبور من أمريكا الوسطى إلى أمريكا الشمالية. أغلب الحيوانات والنباتات من الأمريكيتين الجنوبية والوسطى يمكن أن تعيش وتزدهر في أمريكا الشمالية، لكنها لم تستطع عبور صحراء سونوران من قبل.

الأمراض: جميعنا كنا قد سمعنا عن انفلونزا الطيور وانفلونزا الخنازير، وأنّ مرض الإيدز ربما قد انتقل من الرئيسيات في افريقيا. إلا أنه قد تبيّن أنّ أغلب الأمراض القاتلة للإنسان، كالحصبة، الجدري، والانفلونزا، تنشأ عن الحيوانات ثم تنتقل إلى الإنسان عن طريق الاحتكاك المباشر، أو طفرة

عرضية. مرة أخرى، الأوروبيون كانوا يتمتعون بكل الحظ. الأحصنة، الخراف، الأبقار، الدجاج وجميع الحيوانات التي دجّنها الأوروبيون قد نقلت لهم الكثير من الأمراض. أعداد كبيرة من الأوروبيين ماتوا جراء إصابتهم بتلك الأمراض، لكن الأهم من ذلك، أنهم قد طوروا لديهم مناعة أو مقاومة لها. بالمقابل، في القارات التي تفتقر إلى أيّة حيوانات داجنة، كانت الأمراض السارية قليلة ونادرة، وخالية من المناعة في الوقت نفسه. وعندما جاء الأوروبيون الموبوئون بالأمراض واحتكوا مع السكان المحليين في الأمريكيتين، جزر الباسيفيك، استراليا، ونيوزيلندا، عملية نقل الأمراض كانت تحدث في اتجاه واحد وحصرياً: أمراض الأوروبيين انتقلت إلى السكان الأصليين وقضت عليهم.

تاريخ ناثانيل فيلبريك الرائع، «ماي فلاور *May Flower*»، يؤرّخ رحلة الأوروبيين الأوائل إلى أمريكا (الحجاج)، وكيف أسّسوا مدينتهم الأولى. يصف لنا فيلبريك النتيجة النموذجية للاحتكاك بين الأوروبيين والسكان الأصليين.

الأفضلية الكبرى لمنطقة بليماوث كانت أنّها قد تم تنظيفها مسبقاً من قبل الهنود. ومع ذلك لم يقدروا على إيجاد أي دليل على أيّة مستعمرات أصلية في أي مكان. وجد الحجاج أن هذا الفراغ المطبق لهذا المكان بوصفه هبة من عند الله... وقبل ذلك بثلاثة أعوام فقط كان هناك حوالي 1000 إلى 2000 شخص يعيشون على خط الساحل هذا، تلال الميناء كانت مرصعة بالأوغام [مفردها: وَغَم، وهو كوخ بيضوي أو مستدير الشكل كثيراً ما كان يرى عند الهنود الحمر]، وكل كوخ كان يخرج منه دخان مزغب من موقد بداخله... مع حقول الذرة، الفاصولياء، القرع، اليقطين والكوسا تنمو بجانب الأكواخ. زوارق صغيرة مصنوعة من جذوع الأشجار... تجوب سطح الماء... ثم، من

عام 1616 إلى عام 1619، انتشر مرض وبائي قضى على هذا المجتمع الذي يبلغ عمره عدة قرون.

وخلال شتاء عام 1620، كانت هناك دلائل قاطعة على هذا الوباء منتشرة في جميع أرجاء المنطقة. «كانت عظامهم وجماجمهم منتشرة في عدة أماكن مبعثرة فوق الأرض» يقول برادفورد «منظر محزن جداً». هنا على هذه التلال التي تشهد على العظام، تلال بليماوث، بدأ الحجاج حياتهم الجديدة.

كانت تجربة الحجاج هي القاعدة وليست الاستثناء. فأينما ذهب الحجاج، كانت أمراضهم تجلب الموت المُضني والمؤلم بمعدلات مرتفعة: خمسون بالمئة، ثمانون بالمئة، بل تسعٌ وتسعون بالمئة من السكان الأصليين قد ماتوا.

المحاصيل القابلة للزراعة، مرة أخرى، ومن قبيل الحظ الموفق، كانت أوراسيا تتضمن أغلب المحاصيل القابلة للزراعة بالعالم، وكانت تتميز بمناخ مناسب لتطور الزراعة. جميعنا قد تعلمنا في كتبنا المدرسية عن الهلال الخصيب ودرسناه، حيث أنه يمتد من مصر، عبر اسرائيل/ فلسطين، ولبنان، وعبر أجزاء من سوريا، الأردن، العراق، جنوب شرقي تركيا، وجنوب غربي إيران. كان الهلال الخصيب أنسب المناطق لقيام الزراعات، كما أنّ الصدفة شاءت أن يحتوي عدداً من المحاصيل البرية، (كالقمح) مثلاً، التي كانت مناسبة للتدجين. ولسوء الحظ، باقي القارات الأخرى لم تكن تحتوي سوى القليل من المحاصيل المناسبة للزراعة.

في أمريكا، لم يكن من الممكن زراعة سوى عدة نباتات كالذرة، الفاصولياء، واليقطين. فالمحاصيل في أمريكا كانت غير مناسبة -كانت صغيرة، وكانت المحاصيل تنتج القليل من الغذاء، كمية غير كافية. الزراعة الأمريكية كانت معاقة من قبل الجغرافيا: فالقارة الأمريكية [المؤلفة من

أمريكا الشمالية، الوسطى، والجنوبية] تمتد على مساحة واسعة وشاسعة من الشمال إلى الجنوب، في حين أنّ يوراسيا تمتد على مساحات شاسعة من الشرق إلى الغرب. ومن دون قيام أي نمط من التجارة أو التبادل التجاري الموسّع بين شعوب أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، لم تكن أمام المحاصيل القابلة للزراعة في أمريكا الشمالية أي فرصة لعبور المناطق الاستوائية واجتياز صحراء سونوران، والوصول إلى المزارع في أمريكا الجنوبية. بالمقابل، المحصول الذي ينمو بشكل جيد في الصين بإمكانه عبور كامل قارة يوراسيا وصولاً إلى أوروبا، حيث أنّ هناك منطقة مناخية مناسبة لنمو المحصول تمتد عبر القارة بكاملها.

عائق آخر لتدجين المحاصيل يتمثل في أنّ المجتمع الزراعي يحتاج إلى أكثر من محصول ليبقى متماسكاً. لقد دجّن الهنود الأمريكيون محصول الذرة واليقطين، لكن كانوا ما يزالون بحاجة للصيد، لذلك كان من المستحيل تطوّر اقتصاد زراعي كامل ومتكامل. مرة أخرى، كانت يوراسيا لها النصيب الأكبر من الحظ الموفق: النباتات الكثيرة والمتنوعة القابلة للتدجين قد جعلت من تنوّع المحاصيل أمراً ممكناً، وهذا كان أساس الاقتصاد الزراعي المتكامل.

بالكاد يمكننا إنصاف البروفيسور دياموند وعمله الرائع المكوّن من 480 صفحة والحائز على جائزة بوليتزر في عدة صفحات من هذا الكتاب، لكنني آمل بأني قد تمكنت من تغطية ما يكفي من أطروحته الرائعة واستعرضت أهم النقاط فيها: إنّ صعود الحضارة الغربية والتكنولوجيا الغربية محض صدفة سعيدة وحظ جيد وظروف مناسبة بالصدفة لا أكثر، فقد شاءت الصدفة أن يعيش المسيحيون على القارة الأنسب.

التآلف بين الدين، التكنولوجيا، والحكومة

«كان من أهم خصائص الكنيسة المسيحية، وجميع المنظومات الدينية المخترعة، إبقاء الإنسان جاهلاً بالخالق، كما أن من أهم خصائص الحكومة هي إبقاء الإنسان جاهلاً بحقوقه. منظومات الأولى خاطئة وضالة مثلها مثل الأخيرة، وتم ابتكارها لتعزز كل منها الأخرى وتدعمها»

[توماس باين 1737- 1809]

إنّ قصة عودة الاسرائيليين إلى «أرض الميعاد» خاصتهم هي إحدى النقاط المركزية في التاريخ اليهودي. يهوه، بعد أن ترك الإسرائيليين هائمين على وجوههم في الصحراء عدة أجيال، ويعانون من جميع أنواع المذلات والهزائم على أيدي أعدائهم، قرر أخيراً إيصالهم إلى «وطنهم»، إلى أرض الكنعانيين، وهَدَم جدران أريحا بطريقة إعجازية. هذه الارض التي كانت مليئة باللبن والعسل، كانت هدية يهوه لقومه اليهود.

لكن هذا «اللبن والعسل» لم ينبعا من الأرض، فالأرض التي كان يمنحها يهوه للإسرائيليين كانت مأهولة مسبقاً من قبل الكنعانيين، الذين شقوا وبذلوا جهدهم وعرقهم ليبنوا لأنفسهم موطناً جميلاً وآمناً. هناك قول قديم شائع «التاريخ يكتبه المنتصرون»، لهذا السبب بالضبط لم نسمع القصة من وجهة نظر الكنعانيين. لكن يمكننا المراهنة على أنّ الكنعانيين قد نظروا إلى الإسرائيليين بوصفهم مجرمين وسفّاحين متوحّشين. قد كرّس يهوه الإسرائيليين ومنحهم إذنه وبركته «لقتل كل مَن في المدينة بحدّ السيف، الرجال والنساء والأطفال، الشبان والعجائز، الجواميس، الخراف، والحمير».

أغلب القراء (المسيحيين واليهود) لهذه القصة يصنّفون أنفسهم مع المنتصر بشكل لا شعوري أو لا واعي، ففي النهاية، من ذا الذي يحب المهزوم ويقف في صف الخاسر؟ وهذا ما يقودنا إلى ما يسمى بعقلية الفاتح أو المنتصر *conqueror mentality*، وهو الاعتقاد بأنّ الله يقف بجانب المنتصر أو الفائز. والأمر لا يقتصر هنا على الحرب فقط- في أغلب الأمم الأوروبية، كانت الطبقة الارستقراطية والملكية تعزز فكرة أن سلطتها أو وضعها ما هو إلا إشارة إلى موافقة الله. على المستوى الوطني، كانت هناك بلدان بكاملها تؤمن بنفس الفكرة: الأمم الأوروبية الكولونيالية / الاستعمارية كانت ناجحة في توسعاتها الاستعمارية بفضل المشيئة والعناية الالهيتين، فالله كان يدعمها ويساعدها على التوسع لتتمكن بدورها من نشر كلمة الله ونقلها إلى الأمم غير المسيحية. لقد لبسوا «عباءة أريحا» مبررين عمليات غزوهم واحتلالهم للبلدان بالإيمان بأنه كان من واجبهم الهيمنة وتنوير الشعوب الأقل تقدماً التي غزوها. لا تستطيع احتلال مزرعة جارك وسرقة أبقاره من دون عذر جيد، ولا يمكنك غزو بلد مجاور لك (أو في مكان آخر من العالم) من دون سبب. وأريحا كانت ذلك السبب.

هناك مدرسة فكرية جديدة تسمى «اللاهوت ما بعد الكولونيالية» تلقي نظرة أكثر توازناً على الكتاب المقدس، محاولة النظر إلى أحداث معينة كسقوط جدران أريحا من كلا الجهتين. إنّ سقوط جدران أريحا كانت معجزة الإسرائيليين، ومأساة للكنعانيين. انتصار الإسرائيليين كان يمثّل مجزرة بالنسبة للكنعانيين. العاهرة راحاب، التي أخفت جواسيس يوشع، كانت بطلة بالنسبة للإسرائيليين، لكنها خائنة خبيثة بالنسبة للكنعانيين.

نفس هذا الموقف المستنير تم تطبيقه على كافة مجالات التاريخ. مجزرة بيثارو التي ارتكبها بحقّ الإنكا ما هي إلا مثال عن الكيفية التي ترينا فيها

المدرسة ما بعد الكولونيالية التاريخ والفتوحات من كلا الجانبين. بيثارو، بالإضافة إلى أنه بطل إسباني، فإنه كاذب ومخادع وخبيث، رجل غير شريف وغير نزيه أغوى ملك الإنكا وجرّه إلى فخ بأكاذيب حقيرة، ثم ذبح أكثر من 7000 إنكي (من بينهم كان هناك المئات من غير المحاربين) خلال يوم واحد، ولم يتوقف إلا بعد أن هبط الليل وأسدل ستار العتمة على جرائمه.

وعندما نضيف هنا بصائر دياموند في عمله الطليعي «أسلحة نارية، جراثيم، وفولاذ» تصبح القصة أكثر وضوحاً. كان بيثارو مخطئاً بكل بساطة بشأن ادعاءه بأنّ الله كان بجانبه لم يكن يهوه يقف بجانب الامبريالية الغربية ليساعد على نشر الديانة المسيحية. لم يكن لله أيّة علاقة بذلك. المصادفات الجغرافية قد ساعدت الحضارة الغربية على النمو والتطور بشكل أسرع. فيروس الدين مرتبط مع التكنولوجيا والحكومة وبذلك قد أحكم قبضته وبقوة على المجتمع الإنساني. لم يكن بيثارو أكثر من مجرد سارق وقاتل، يقتل من أجل السلب والغنائم.

لقد انتشرت الديانة المسيحية بفضل الحظ السعيد والصدف الموفقة: فمن قبيل الصدفة المحضة أنّ يسوع قد ولد في القارة المناسبة، لا أكثر ولا أقل.

ملحق: إبطال العماد عن العمة كارولين

«لا أستطيع تصوّر أنّ إلهاً قد منحنا العقل والفكر والفطنة قد يطلب منا عدم استخدامها» .

[غاليليو غاليليه 1564- 1642]

الحادثة التي أطلقت شرارة هذا الكتاب وشجعتني على البدء بكتابته كانت وفاة والدي. عاش عمره حتى ناهز الثمانين، أعتقد أنه كان ليعيش حتى المئة لولا بعض الحظ السيء.

خلال الحرب العالمية الثانية، كان والدي وصديقه «دوغ» (اسم مستعار) قد غادر الجيش الأمريكي في إجازة نهاية الأسبوع، وقفزا على دراجة والدي الهندية الكبيرة والقوية للتوجّه إلى المنزل (كان دوغ يقود الدراجة النارية ووالدي يجلس خلفه). سافرا عبر وادي كاليفورنيا، طريق الولاية السريع 33 كان معبداً بشكل كامل وعلى امتداد مئات الأميال، شمالاً من طريق ارماوث بالقرب من نهر سان خواكيم، وبطول 215 ميلاً جنوباً حتى تصل إلى مكتيريك، قبل أن يتجه الطريق السريع 33 إلى جبال سانتاينيز. الطريق مستوٍ ومعبّد باستثناء تلّة واحدة فقط، بالقرب من بلدة ويسلي. ولسببٍ ما في ذلك اليوم المصيري، قرّر دوغ تجاوز شاحنة تسير ببطء عندما بلغوا قمة التلة الوحيدة على ذلك الطريق. ما أن دار دوغ حول الشاحنة وارتقى التلة، وإذا بدراجة آلية أخرى تظهر أمامهم متجهة نحوهم، قادمة من الطرف الآخر. ولسبب معين مجنون، جفل دوغ وانحرف نحو ميسرة الدراجة القادمة، طبعاً، انحرفت الدراجة القادمة في نفس الاتجاه. وقبل الاصطدام مباشرة، ارتبك كلا السائقين، واصطدمت الدراجتان مع بعضهما بسرعة مركّبة من مجموع سرعتيهما تبلغ حوالي مئة ميل في الساعة، ما

أدى إلى تحطم أرجل الركاب الثلاثة بين معدن هاتين الآليتين الثقيلتين.

بعد الاصطدام بعدة ساعات استيقظ أبي وبدأ يسترد وعيه، حيث وجد نفسه ممدداً فوق حقل. وعلى بعد مئة ياردة منه كان بإمكانه رؤية سيارة الإسعاف، شاحنتين، وعدة سيارات شرطة، والكثير من الناس المجتمعين حول موقع الحادث. صرخ ونادى بصوتٍ عالٍ، وبعد زمن قصير لاحظ أحد الأشخاص صوته وشاهده. كانوا مصعوقين - وجدوا دراجتين آليتين، وسائقين، واعتقدوا أن هذا كل شيء. وعندما زار الموقع لاحقاً، قدّر أنه كان قد طار من فوق خطوط الهاتف وسكة القطار حتى حطّ على هذا البعد من الموقع.

كانت رجلاه مكسورتان في سبعة عشر موقعاً، إحدى ركبتيه كانت مهشمة بالكامل، وعانى من العديد من الإصابات والأضلاع المكسورة، لكنه كان على قيد الحياة.

هذه الحادثة كانت قد أرسلت والدي إلى المستشفى لأكثر من عام، وتركته بركبة مكسورة، من دون صابونة ركبته، وبعدوى فظيعة وغير قابلة للشفاء في عظامه (التهاب نقي العظم). خضع في وقت لاحق لثلاث عمليات تغيير ركبة ووضع أخرى اصطناعية، ولم تنجح أياً منها، وهذا معناه أنه لن يعود إلى ممارسة الرياضة أو ممارسة حياته الطبيعية على الإطلاق. كل هذا، بالإضافة إلى خمسين عاماً من التدخين الكثيف ونظاماً غذائياً مليئاً بالسلامي، الجبنة على البسكويت، والدجاج المقلي، كان يعني أن الصلابة الطبيعية وطول العمر اللذان يجريان ضمن عائلتي قد تم تخريبهما كلياً. ربما كان سيعيش قرناً كاملاً، لكن بدلاً من ذلك تحوّل إلى إنسان عاجز ومقعد في بدايات عقده السابع وتوفي بعد ستة أشهر قبل موعد عيد ميلاده الثمانين.

عمتي كارولين (شقيقة والدي) كانت تتمتع بنفس بنية الجسم القوية

والصلبة كوالدي، لكنها كانت أكثر صلابة منه - إنها أصغر من أبي بعام واحد، وهي بعمر الثامنة والسبعين ، كانت قد تطوعت لقيادة سيارتها بنفسها إلى نفس منزل الرعاية الذي قضى فيه والدي شهوره الأخيرة، لكي تعزف على البيانو وتغني من أجل «العجائز».

الموت ليس سهلاً أبداً، حتى عندما تستعد له وتعلم أنّه سيجلب السلام للشخص. كانت العمة كارولين قد قدمت لي سريراً للنوم وكتفاً للبكاء عليه خلال الأشهر الصعبة الأخيرة من حياة والدي، عندما كنت بحاجة للسفر دائماً للاعتناء به ورعايته. رعايتها الحنونة والمحبّة ومنزلها المريح والدافئ كانت ملجأً لي، وفوق كل ذلك، كانت تعرف تماماً متى يجب أن تصغي. فبعد أن أكون قد أفرغت همومي ويأسي في كل مساء، كنا نخوض أنا وعمتي كارولين نقاشات حول كل شيء تقريباً حتى وقت متأخر من الليل، من السياسة إلى الأخلاق العائلية، الانتحار، ووجود الله.

قد تتذكرون من قصتي السابقة، جدي وغروب الشمس، بأني قد أتيت من عائلة متدينة جداً من جهة والدي، وذلك يتضمن عمتي كارولين. لذا بوِسعكم تخيّل دهشتي وتفاجئي عندما علمت أنّ العمة كارولين، التي كانت مسيحية ملتزمة خلال معظم حياتها، قد انقلبت 180 درجة خلال مرحلة متأخرة من حياتها وأصبحت ملحدة. وجدت الأمر مدهشاً، لكنّ وفاة أبي بعد فترة قصيرة من هذا الحديث، كان عليّ الاهتمام بعدة أمور. ودّعت عمتي كارولين وتوجهت إلى منزلي. كان ذلك في شهر يناير/ كانون الثاني.

في 31 يوليو/ تموز كانت لتكون عيد ميلاد والدي الثمانين، وقررت الاتصال بعمتي كارولين لإعادة التواصل. بدأنا بالتحدث عن الدين مرة أخرى، وسألتها عن مسألة «إبطال عمادها»- أي تحولها من المسيحية إلى نوع من أنواع الإلحاد. يمكن القول عن قصتها أنها «نمطية» باستثناء النهاية.

أول صدع حدث في إيمانها كان خلال سنوات مراهقتها عندما سمعت عن فظائع هتلر ومجازره بحق اليهود والغجر. لم تفهم عمتي كارولين كيف يمكن لإله محب وحنون وعطوف أن يسمح بحدوث ذلك. واستمرت في طريقها كالمعتاد وبشكل عادي، من دون صلوات مستجابة، مرعوبة من كل هذه التعارضات والتناقضات التي تتخلل الكتاب المقدّس والتي لم يفسرها لها أحد ويرضيها، وكلما كانت تكبر كانت تدرك الواقع الأليم، وترى الكوارث الطبيعية الفظيعة، وغيرها من الأمور التي يصعب تفسيرها إذا كان الله هو ذلك الإله العطوف والحنون والمحب الذي عرفته في الكنيسة. لكنها حاولت جاهدة المحافظة على إيمانها، مع أنه كان من الصعب فعل ذلك، لعقود عديدة من الزمن. خلال السبعينيات كانت عمتي كارولين قد قررت أنها تريد استعادة إيمانها فعلاً، وكرّست نفسها بصدق للديانة المسيحية ويسوع المسيح. في عام 1984، انضمت إلى الكنيسة الأسقفية، حيث قضت حوالي خمس سنوات وهي تدرس اللاهوت وتحاول التوفيق بين تعاليم الكنيسة والواقع الذي عاشته ووجدته من حولها. وقد نجح الأمر تقريباً.

لكنّ إيمانها بالله انتهى تماماً وبشكل كامل خلال يوم واحد. كانت العمة كارولين قد سافرت إلى عدة أماكن وبلدان في أمريكا الوسطى والجنوبية بصفتها زوجة أحد الدبلوماسيين. كانت قد زارت البيرو، والاكوادور عندما انفجر بركان. كانت الحمم والطمي تنساب من فوهته والرماد يتطاير في الهواء، ما أدى إلى قتل وتدمير كل شيء يأتي في طريق الحمم. كان هناك رجل علق في الطمي، حيث غرق فيه حتى كتفيه، وأصبح عاجزاً عن الحركة. لم يكن بمقدور أحد إنقاذه و تخليصه. كان الرجل مدفونٌ حياً تقريباً، لكنه كان قادراً على التنفس، كان يصرخ مستجدياً الرحمة، يرجو ويتوسل إلى الكاهن الكاثوليكي لكي يقتله، على الأقل يسمح لأصدقائه بأن يفعلوا ذلك. كان الكاهن، وجميع

أهالي القرية، بمن فيهم الرجل العالق نفسه، يعلمون أنه سيموت لا محالة. إلا أنّ الكاهن كان قد رفض قتله، لأنّ قتل إنسان سيكون خطيئة كبرى. كانت تلك مشيئة الله، أنّ هذا الرجل يجب أن يموت لأسباب «طبيعية»، حتى إن كان ذلك يعني أياماً وأياماً من العذاب المضني والأليم. كان الرجل يصرخ ويتوسل، لكن القرويين وجميعهم من الكاثوليك لم يكونوا يجرؤون على مخالفة أوامر الكاهن. الرجل مات أخيراً لكن بعد ألم ومعاناة لا يمكن تصوّرهما

وعندما سمعت العمة كارولين هذه القصة، تبخّر إيمانها وتلاشى خلال يوم واحد في تلك اللحظة، كانت قد أدركت أخيراً أنّ الجواب الوحيد لسعيها الطويل والشاق كان أمامها طوال الوقت: ليس هناك إله.

أساس هذا الكتاب ومصدره قد جاء خلال محادثتي المتأخرة في الليل مع عمتي كارولين قبل موت والدي، عندما سألتني عن معتقداتي الخاصة. ما أن سمعت عن إلحادها وتخليها عن العماد حتى تشجعت كثيراً لإخبارها عن آرائي ونظرياتي. بطريقة ما، وخلال خمس دقائق، كنت قد قدمت لعمتي تفسيراً واضحاً وجلياً وبسيطاً لهذه الأفكار. كانت إحدى تلك اللحظات التي لطالما تمنيت لو أني كنت قد سجّلتها، لأنني لن أكون بهذا القدر من الوعي والوضوح مرة أخرى. لكن تلك اللحظة كانت قد ألهمتني- كنت قد أدركت أنّ جميع هذه الأفكار قد تجمعت أخيراً مع بعضها داخل رأسي، وقد حان الوقت لأضع هذا الكتاب.

وها هو الآن. شكراً، عمتي كارولين، لعنايتك ورعايتك، شكراً لسؤالك عن معتقداتي، وشكراً لإصغائك حين كنت أتحدث بلا توقف طوال خمس دقائق. لا يسعني إخبارك إلى أي مدى أثرت فيّ قصتك وألهمتني.

وشكراً لك لاستضافتي في منزلك وداخل قلبك في وقت الحاجة.

10

﴿ خَتم العِظَة ﴾

«يظهر التاريخ أنّ العقل البشري، يُغذى بمدخلات ثابتة ومستمرة من المعرفة، حيث ينمو تدريجياً لحجمٍ أكبر من أجل مضامينه ومحتوياته النظرية، ثم يمزقها إرباً لتظهر بمظهر جديد وحلّة جديدة، ومع نقص التغذية وقلّة النمو، على فترات، يخلع عنه ثوبه الضيق القديم ويرتدي ثوباً آخر، ... حقاً إنّ مرحلة نموّ ونضوج الجنس البشري بعيدة جداً، لكن مع كل عملية خلع للرداء القديم ولبس آخر جديد، هي خطوة جديدة نحوها»

[تشارلز داروين 1809– 1882 «أصل الأنواع»]

عودٌ على بدء: أين كُنّا

«علينا احترام أديان الأخرين، لكن فقط ضمن سياق احترام رأي صديقنا بأنّ زوجته جميلة وأولاده أذكياء»

[هـ . ل . منكين]

الأديان كما نعرفها اليوم ليست هي الأكثر تنويراً وتثقيفاً، بل كيف تقارن

مع الأديان التي زالت واندثرت. على مرّ الألفيات، تفرّعت جميع التركيبات الميمائية لمختلف الأديان. حول العالم، تغيرّت، تطوّرت، جرّبت خُدَعاً وحِيَلاً مختلفة ثم اندثرت. فقط التركيبات الميمائية الدينية الأقوى والأقدر على التكيّف مع العقل البشري، تلك التي كانت أكثر جاذبية من غيرها _من الناحيتين الإيجابية والسلبية_ هي التي نجت واستمرت.

خلال رحلتنا عبر هذا الكتاب، كنّا قد مررنا على العديد من المجالات العلمية والفلسفية. لنلقِ نظرة سريعة:

الميمات *memes*: كنّا قد تعلّمنا أنّ الأفكار ما هي «أجزاء من معلومات» يمكن مضاعفتها ونقلها، كما أنّها يمكنها أن تتطفّر، تتنافس وتناضل من أجل البقاء، وقد تعلّمنا عن التركيبات الميمائية *memeplexes*، وهي مجموعات من الأفكار التي تدعم بعضها البعض بشكل متعاضد وتحسّن فرص بقاء ونجاة بعضها البعض.

طفولة الدين *Religion's Infancy*: لقد تعلّمنا عن الميمات الثمانية الأساسية التي تطوّرت خلال الفترة الزمنية ما بين زمن ابراهيم وزمن يسوع، وكيف أنّ هذا التطور للتركيبات الميمائية الدّينية التي أحاطت بيهوه جميعها حوّلته من إله إقليمي محلّي إلى إله عالمي على شاكلة الإله الذي نعرفه اليوم. هذه الميمات قد تضمّنت التوحيد، التعصّب، العولمة، الأخلاق ذات المصدر الالهي، اللطف، ومُعاداة العقلانية. هذه الميمات مع بعضها وَضَعَت يهوه على الطريق الصحيح للهيمنة على العالم، والقضاء على جميع الديانات [الميمات] التعدّدية المنافسة التي كانت سائدة في زمن يسوع.

علم التطوّر *Evolution Science*: لقد ألقينا نظرة سريعة على أساسيات ومبادئ علم التطوّر، وتعلّمنا عن بعض مفاهيمه المفتاحية:

التناسخ/التكاثر، الازدحام السكاني، التطفّر، والانتقاء الطبيعي، هذه المفاهيم هي أساسيات فكرة داروين اللامعة. نفس المبادئ التي اكتشفها داروين للحياة البيولوجية يمكن أن تنطبق على الأفكار والثقافة، وعلى الدّين بالتحديد. الأديان التي نعرفها اليوم هي نتيجة مئات آلاف السنوات من عمليات التكاثر الصعبة، والطفرات القاسية، والتنافس ما بين ملايين الميمات، معظمها بات اليوم منقرضاً ومندثراً.

الدّين ينمو *Religion Grows Up*: بفهمنا الجديد لتطوّر الميمات، نظرنا إلى تطوّر الدين منذ زمن يسوع وحتى زمننا الحالي، ودرسنا العديد من الميمات الأخرى التي تطوّرت ضمن التركيبة الميميائية لفيروس الدّين، ومن بينها عملية التنقية التي جَرَت على ميم التعصّب، وكيف تحوّل الذنب إلى عامل وقوة أساسية للاضطهاد والتعسّف، وميم الجنة/الجحيم، وكيف أنّ القديس بولص قد وسّع يهوه وطوّره ليصبح إله المسيحيين. وقد ألقينا نظرة على مفهوم التعاون والتآزر، وكيف أنّ ميمات الجنة/ الجحيم، والذنب، والتوحيد، والتعصّب قد تآزرت وعملت مع بعضها.

مواضيع متقدمة في التطوّر: في المرحلة التالية ألقينا نظرة أكثر قرباً وتفصيلاً على التطوّر، ودرسنا مفاهيم مثل: الفجوات البيئية، التعايش، الأوبئة، الطفيلية، وغزو الأنواع الغريبة (كحالة الأرانب في استراليا).

الدين، التكنولوجيا، الحكومة *Religion, Technology and Government*: أخيراً، رأينا كيف يمكن للدّين أن يتآزر مع التكنولوجيا ومع الحكومة، ليتمكّن من الانتشار أسرع وعلى نطاق أوسع ممّا هو ممكن لو كان يعمل لوحده. وقد درسنا التكنولوجيا على حدة، لنعرف سبب كون الثقافة الغربية أكثر تقدّماً من باقي ثقافات العالم خلال الحقبة الكولونيالية / الاستعمارية، واكتشفنا أنّ كل ذلك مردّه إلى الحظّ الجيد والصدف الموفّقة

فحسب، وليس إلى الذكاء المتفوّق. عن طريق قطف زهرة من كل بستان والمقاطعة بين العديد من المجالات العلمية المختلفة: التطور، الثقافة، التاريخ، علم الإناسة، علم الاجتماع، الدّين، علم الأحياء، علم الحيوان، السياسة والعديد من الميادين العلمية الأخرى. لا بدّ أنّني كنت قد قَدّمت العديد من الأفكار، والحجج، والحقائق الهامّة. وإذا كنت قد أثرت اهتمامك وحفّزت مَلَكَة التفكير لديك وشعرتَ بالحاجة لمعرفة المزيد والتعلم أكثر، أو إذا كنت لا توافقني الرأي وأردت دحض وتفنيد أفكاري، فقد نجحت في مهمتي وحقّقتُ المطلوب. لا يسعني سوى أن أشجّعك بأن تُلقي نظرة على مراجع أخرى للاستزادة في نهاية هذا الكتاب، أو أن تقوم ببحثك الخاص لتتعلّم أكثر حول هذه المواضيع.

إلى أين نمضي؟

«الدّين ما هو إلا بقايا من المرحلة الطفولية لذكائنا، وسرعان ما سيختفي ويزول ما أن نعتنق العقل والعلم كمرشدين أمينين لنا»

[برتراند راسل 1872- 1970]

عندما ننظر إلى حياتنا، سنرى كيف أنّنا نبدو أناساً طبيعيين وعاديين، كل واحدٍ فينا يكبر، يجد لنفسه عملاً، يتزوّج، ينجب أولاداً، يستمتع برفقة الأصدقاء والأصحاب، قد يحدث بينه وبين هؤلاء خلافات من حين لآخر، ويتقاعد في أواخر حياته مرتاحاً مع القليل من الحظّ. لا يبدو أنّ هناك أي شيء عميق أو جوهري يلفّ حياتنا، القرارات التي نتّخذها _عدد الأولاد الذين نريد إنجابهم، إلى أيّ مدى نهتمّ بصحّتنا، وما إذا كنّا نساعد أقاربنا في أوقات الضيق والحاجة_ جميعها تبدو أمور عاديّة وحسّاسة. من الصعب بالنسبة لأغلب الناس رؤية كيف أنّ حياتهم الخاصة ترتبط بعلم التطوّر الداروينى. لكن إذا خطونا خطوة وخرجنا خارج إطار حياتنا، واستخدمنا عدسة علم التطوّر لدراسة أنفسنا، لوجدنا أنّنا جميعاً عبارة عن خطوة صغيرة أخرى ضمن عملية التطوّر الحياتية التي تتجاوز الأربعة مليارات سنة على هذا الكوكب. كلّ قرارٍ نتّخذه يجعل منّا احتمالاً وإمكانية للتأثير على مستقبل تطوّر الجنس البشري.

لكي تفهم التطوّر فعلياً، لا تستطيع استثناء نفسك عن دراساتك.

إنّ أعضاء كنيسة معينة، وقادتهم وزعمائهم، يرون أنفسهم أناساً عاديين، يذهبون إلى دور عبادتهم أسبوعياً ليصلّوا لربّهم ويختلطوا بالآخرين. إنّهم يناقشون الإنجيل أو التوراة أو القرآن، يحاولون تفسير معاني كلمات هذه

الكتب وتأويلها، يتّخذون قرارات محدّدة بشأن مسائل وقضايا معاصرة سواء حول قبولهم بالمثليين بينهم أو تبوّئهم مكانة دينية على سبيل المثال، ويبحثون عن أفضل الطرق الممكنة لإيصال رسالتهم هذه إلى الأخرين. كلّ ذلك يبدو مألوفاً وعادياً. لكنّنا إذا خطونا خطوة ونظرنا إلى هذا النشاط عبر عدسة علم التطوّر الثقافي، الميمياء، لوجدنا أنّ كلّ فرد، وكل دار للعبادة، ما هي إلا خطوة صغيرة ضمن عمليّة تتجاوز مئة ألف عام من تطوّر الفيروسات الدينية المختلفة التي تؤثّر على أدمغتنا. فإذا لم يتطوّر دينك ويستمرّ في تطوره، ليحظى بأتباع أكثر، وأن يبدو جذاباً ومرغوباً بالنسبة للكثيرين، لانقرض واندثر خلال عدّة مئات أو حتى عدة آلاف من السنوات. إذا تطوّرت كنيستك لتصبح أكثر جاذبية، وأرسلت المبشرين والواعظين لنشر رسالتك، فستكون على الأرجح هي الكنيسة الناجية، وتستمر في بقاءها حتى الألفية التالية.

كنتُ أريد حقاً، من خلال تأليفي لهذا الكتاب، تحقيق هدفٍ واحد: أريد من كل شخص يقرأه أن يختبر «تغيراً في النموذج» لديه عندما يعيد النظر في الدين بعده. فالأمر أشبه بأن تكون قد عشت في قرية طوال حياتك، وكنت تعرف جميع طرقها وهضابها وسهولها كراحة يدك، ثمّ فجأة في أحد الأيام وصل السيدان جوزيف وجاك مونتفولفاير إلى قريتك مع منطادهما الضخم الذي يعمل بالهواء الساخن، وأصعداك إلى المنطاد وارتفعا بك حتى وصلتم إلى ارتفاع ألف قَدَم فوق القرية، ثم تنظر إلى القرية التي كنت تعتقد أنّك تعرفها جيداً بأي شكل. وحتى بعد أن يعود بك السيدان جوزيف وجاك إلى الأرض، لن تستطيع أبداً نسيان ما قد رأيته من الأعلى، وفي كل مرة تفكّر فيها بقريتك، سيخطر في بالك منظرها من الأعلى.

أملي هنا أنّ كل شخص سيقرأ هذا الكتاب أن ينظر إلى الدّين من الأعلى

من على ارتفاع 1000 قدم في الهواء، وبدلاً من الإيمان الأعمى بمعتقد كنيستك ومذهبها الدوغمائي بأنّ دينك أو مذهبك هو من عند الله، آمل بأن أكون قد خلعت عنه غطاء الغموض الذي يخفي تحته أصل كنيستك ونشأتها.

آمل أن أكون قد ساعدتك على طرح الأسئلة المناسبة بدلاً من التسليم والإيمان الأعمى بمعتقداتك الدّينية. أرجو أن تكون قد عرفت الآن قوة التطوّر الميميائي، وكيف أنّ هذه العملية بالتحديد _وليس الله_ قد شكّلت دينك وصاغته وقولبته إلى فيروس ديني بالغ القوّة والتأثير والجاذبية على الشكل الذي نراه فيه اليوم.

الميمات، مثلها كمثل أشكال الحياة الأخرى، هي في حالة تنافس دائم مع بعضها الآخر من أجل البقاء والاستمرار. هذا الكتاب هو مساهمتي الصغيرة والمتواضعة في هذه المعركة: آمل بأنّني قد خلقت تركيبة ميميائية مضادّة للدين، نوع من التلقيح أو التطعيم ضدّ فيروس الدّين. والهدف الذي أشاركه مع العديد من الملحدين، والعديد من الربوبيين وأعضاء كثيرين من الكنائس الأكثر تحرّراً أو ليبرالية، هو توضيح المناخ الإيديولوجي/ الثقافي/ الفكري للفيروسات الدّينية الضارّة والخبيثة التي تُسقِم الإنسانية المعاصرة وتنشر الوباء فيها. ومن خلال كشف بذور وأصول فيروسات الدّين، أملي هنا هو أن أضعِفَ قبضته على الإنسانية وأرخيها حتى يتسنّى للإنسان التّحرّر منها.

جميع الأنواع تتأثّر ببيئاتها ومحيطها، وفيروس الدين ليس استثناءً. وكلّما زادت رقعة العلم وكشفت التكنولوجيا المزيد من أسرار الكون وألغازه، انحسرت رقعة الدّين واضمحلّت. لقد أصبح الوسط البيئي لفيروس الدّين أكثر عدائية. آمل بأنّي قد تمكّنت، ولو بمقدارٍ ضئيل، من جعل هذا الوسط البيئي أكثر عدائية وقسوة بالنسبة للفيروسات، حتى تُشَلّ حركة هذه

الفيروسات وتصبح أعجز عن إصابة المزيد من العقول ونقل عدواها إليها.

***

انتهى الكتاب

Bibliography

BOOKS:

_Darwin, Charles (1872). *The Origin of the Species* (sixth edition). New York: Singet.

_Dawkins, Richard (2006). *The God Delusion.* Boston, New York: Houghton Mifflin Company.

_Dawkins, Richard (1986). *The Blind Watchmaker.* New York: W. W. Norton and Company.

_Dawkins, Richard (1976). *The Selfish Gene.* Oxford: Oxford University Press

_Dawkins, Richard (2005). *The Ancestor's Tale.* Boston: Houghton Mifflin.

_Dennett, Daniel C. (2006). *Breaking the Spell.* New York: Viking Penguin.

_Dennett, Daniel C. (1995). *Darwin's Dangerous Idea: Evolution and the Meaning of Life.* New York: Touchstone.

_Dennet, Daniel C. (1991). *Consciousness Explained.* New York: Little, Brown and Company.

_Diamond, Jared (1999). *Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Society.* New York: W. W. Norton

& Company.

_Diamond, Jared (2005). C*ollapse: How Societies Choose to Fail or Succeed.* New York: Viking, The Penguin Group.

_Durham, William H. (1991). *Coevolution: Genes, Culture, and Human Diversity.* Stanford University Press.

_Ehrman, Bart D (2005). *Misquoting Jesus: The Story Behind Who Changed the Bible and Why.* New York: HarperCollins.

_Garrison, Becky (2007). *The New Atheist Crusaders and Their Unholy Grail: The Misguided Quest to Destroy Your Faith.* Dallas: Thomas Nelson.

_Gladwell, Malcolm (2002). *The Tipping Point: How Little Things Can Make a Big Difference.* New York: Back Bay Books / Little, Brown and Company.

_Gould, Stephen Jay (1989). *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History.* New York: W. W. Norton & Company.

_Gould, Stephan Jay (1977). *Ever Since Darwin: Reflections on Natural History.* New York: W. W. Norton & Company.

_Gould, Stephan Jay (1980). *The Panda's Thumb: More Reflections in Natural History.* New York: W. W.

Norton & Company.

_Gould, Stephan Jay (2002). *The Structure of Evolutionary Theory.* Cambridge, Massachusetts: Belknap Press.

_Hamer, Dean and Copeland, Peter (1998). *Living With our Genes.* New York: Doubleday.

_Harris, Sam (2005). *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason.* New York: W. W. Norton & Company.

_Hitchens, Christopher (2007). *God is Not Great: How Religion Poisons Everything.* New York: Twelve, Hachette Book Group USA.

_Kelly, David (1986). *The Evidence of the Senses: A Realist Theory of Perception.* Louisiana State University Press.

_Kirsch, Jonathan (2004). *God Against the Gods: The History of the War Between Monotheism and Polytheism.* New York: Viking Compass, the Penguin Group.

_Kuhn, Thomas S. (1970). *The Structure of Scientific Revolutions* (2nd edition). Chicago: University of Chicago Press.

_Lamont, Corliss (1988). *The Philosophy of Humanism* (sixth edition). New York: The Continuum Publishing Company.

_Lewis, David (1994). *We, the Navigators: The Ancient Art of Landfinding in the Pacific.* Honolulu: University of Hawaii Press.

_March, Frederic (2006). *The Bible Through the Eyes of its Authors.* New York: iUniverse.

_Mills, David (2006). *Atheist Universe: The Thinking Person's Answer to Christian Fundamentalism.* Berkeley: Ulysses Press.

_Paulos, John Allen (2008). *Irreligion: A Mathematician Explains Why the Arguments for God Just Don't Add Up.* New York: Hill and Wang.

_Philbrick, Nathaniel (2006) *Mayflower.* New York: Viking, The Penguin Group.

_Russell, Bertrand. *Why I am Not a Christian and other essays on religion and related subjects.* Edited by Paul Edwards, 1957. New York: Simon and Schuster.

_Wills, Christopher (1989). *The Wisdom of the Genes: New Pathways in Evolution.* New York: Basic Books.

SCIENTIFIC PAPERS:

_*The Amung Way: the Subsistence Strategies, the Knowledge and the Dilemma of the Tsinga Valley People in Irian Jaya, Indonesia.* Cook, Carolyn Diane Turinsky (1995) PhD Dissertation, Southern Illinois University at Carbondale. http://www.papuaweb.org/dlib/s123/cook/_phd.html

_Herrick's 1910 case report of sickle cell anemia. The rest of the story. Journal of the American Medical Association, 1989 Jan 13;261(2):26671-.

_Vichinsky, Elliott P., M.D. *Pulmonary Hypertension in Sickle Cell Disease.* The New England Journal of Medicine, 2004 Feb 26; Number 9, Volume 350:857859-

_Goodall, J. 1977. *Infant Killing and Cannabalism in Free-living Chimpanzees.* Folia Primatologica. Vol. 28, 259282-. (As cited on http://www.primates.com/chimps/chimpanzee-info.html)

WEB RESOURCES:

_History of Judaism, Christianity, Islam, and much, much more ...

http://www.wikipedia.com/

_Online Searchable Bible, many editions:

http://www.biblegateway.com/

_The Catholic Encyclopedia:

http://www.catholic.org/encyclopedia/

_The Skeptics Annotated Bible>

http://skepticsannotatedbible.com

_Religions in the United States, from the CIA Factbook:

https://www.cia.gov/library/publications/the-world factbook/geos/us.html

_William Paley, Cicery quote:

http://en.wikipedia.org/wiki/Watchmaker_analogy

_John Morris quote, from Institute for Creation Research:

http://www.icr.org/articles/print/1078/

_History of Papua New Guinea:

http://www.geographia.com/papua-newguinea/papuahistory.htm

http://en.wikipedia.org/wiki/New_Guinea

_*Who was the First Observed Sickle-Cell Patient?* www.nslc.wustl.edu/sicklecell/part1/noel.pdf

(No author listed in PDF file)

_Hayes, Diana. 1998. Reflections on Slavery, in Curran, Charles E. Change in Official Catholic Moral Teaching, as quoted in Wikipedia, http://en.wikipedia.org/wiki/Dum_Diversas

_Zeus and Jupiter:

http://www.nowpublic.com/culture/zeus-or-jupiter-last-you-know-difference

_The Evolution of Language.

http://library.thinkquest.org/C004367/la1.shtml

_Article on Biblical Inerrancy, by Stephen L. Andrew.

_Chaffer Theological Seminary Journal, volume 8, number 1.

http://www.chafer.edu/journal/back_issues/v8n1_1.pdf

المحتويات

[1] «إنها نشأة الدين ملكة العقل الوراثية» ... 7

إله إبراهيم 7

ميم الدجاجة المناسخ 10

نسخ المعلومات.. 14

المخالفات الموروثة الساخطة 16

ميم تحت أي مسمى آخر 19

ثلاثة مصادر للمعرفة 21

طريقنا 23

قليلاً عن التطور 24

ملحق 26

جدتي وغروب الشمس 26

[2] «طفولة الدين» 29

الميم المسمى «إله الغايات الشاملة» 29

ميم التوحيد 39

ميم التعصب 44

ميم العولمة 49

ميم «الإله المجرد» 53

ميم الأصل الإلهي للأخلاق 63

ميم العطف والرأفة 69

الميم اللاجنسي 72

تضافر الميمات الثمانية 74

ملحق: إجراء قطع القناة الناقلة 76

[3] ﴿التطوّر والميمات﴾ 79
متى تحوّلت المعلومات إلى ميمات؟ 79
التكرار/التكاثر 80
بقاء الأصلح 84
الطفرة 89
الصراع مع الرّبّ 97
الاكتظاظ السكاني 99
الوسط الفكري والفَجَوات 102
التركيبة الميميائية memeplext 105
الدين كمجموعة من الميمات 107
خطورة المَجَاز 109
مثال: هل كان يوسف والد يسوع أم لَم يَكُن؟! 112
ملخّص: التطوّر والميمات 114
ملحق: المَعمَدانيون الجنوبيون 116
[4] ﴿الدين ينمو﴾ 119
عود على بدء: من إبراهيم إلى يسوع 119
ميم «التعصّب» ينمو 121
القدّيس بولس يوسّع نطاق ميم العولمة 129
ميم الذنب 131
مِيمَيّ الجنة والجحيم 137
ميم الهِداية 140
ميم هرمجدون/ أو الكارثة 144
تعاضد ميمات: الذّنب، الجنّة، النّار، والتوحيد 150
ملحق: بيلي العنصري 154
[5] ﴿لماذا يتكلّم البشر؟﴾ 159

هل جاءت اللغة نتيجة تكيّف أم مصادفة؟ 159
التطوّر بطيء 160
البديل السريع 163
الميمات القصدية 165
الميمات السيّئة ليست فتّاكة 167
التطوّر عالي الموجة 169
استقرار الميم وثباته 171
الميمات: إحدى «الخدع الناجحة» للتطوّر 174
مُلحَق: صلاة 176
[6] ﴿نظام المناعة الديني﴾ 177
الميم المضادّ للعقلانية 178
ميم «الجهل نعمة» 183
ميم العصمة من الخطأ 187
ميم الشهادة 194
ميم «الضحية» أو «المظلوم» 199
ميم «أمّةٌ واحدة تحت الرّبّ» 202
تعاون ميمات المناعة وتضافرها 206
مُلحَق: هذا الكتاب 208
[7] ﴿ لماذا الدّين جذّاب ومرغوبٌ إلى هذه الدرجة؟﴾ 213
الكلاب وطيور الوقواق 213
ما الطفيلي؟ 215
ما الانتقاء الطبيعي؟ 217
لماذا الدين جذّاب ومرغوب؟ 221
لماذا البدء في سنٍ مبكّرة جدّاً 225
ملحق: سعالٌ قد يقتلك 227

[8] ﴿مُعضلَة الملحد﴾ 233
المعضلة 233
مأساة الشُّيوع 236
طفيليات، متطفّلات ومتعايشات 240
غزاةٌ غرباء 244
فقر الدم المنجلي 250
ذهاب الصالح مع الطالح 250
حلّ معضلة الملحد 253
ملحق: شكسبير، سفر التكوين، والانفجار العظيم 255
[9] ﴿الدين، التكنولوجيا، والحكومة﴾ 259
طوائف الحمولات Cargo Cults 260
الدين والتكنولوجيا العسكرية 264
أسلحة نارية، جراثيم، وفولاذ 266
التآلف بين الدين، التكنولوجيا، والحكومة 274
ملحق: إبطال العماد عن العمة كارولين 277
[10] ﴿خَتم العِظَة﴾ 283
عودٌ على بدء: أين كُنّا 283
إلى أين نمضي؟ 287
Bibliography 291

THE RELIGION VIRUS

Why we believe in God

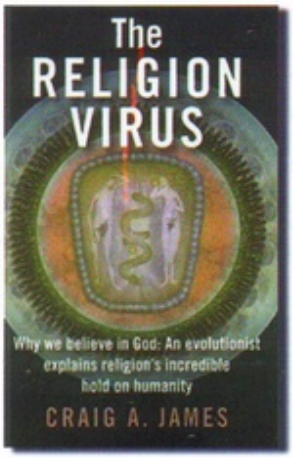

يقدم هذا الكتاب قراءة رائعة ومثيرة للفكر وهي تقدم بالفعل تفسيراً معقولاً للغاية للسيطرة الاستثنائية التي يتمتع بها الدين على الكثير من البشر.

يأخذ كتاب "The Religion Virus" أفكار ريتشارد دوكينز حول الميمات ويطبقها على ظاهرة الدين. أطروحته المركزية هي أن الميمات المرتبطة بالدين تعمل إلى حد كبير مثل الفيروسات التي تصيب الكائنات الحية.

تبقى الميمات الأكثر ملاءمة فقط لأنها قادرة على الانتشار، بدقة عالية من شخص إلى آخر. تعمل الميمات كوحدة للتطور الثقافي تعادل الجينات كوحدة للتطور البيولوجي هذا يجعل الميمات فيروسات. تكون المفاهيم الدينية ميمات، تطورت هذه الميمات بمرور الوقت واللغة والتواصل.

JOHN HUNT PUBLISHING

BN 978-1-482371-00
9 781482 371000

SCAN ME

الدار الليبرالية
Liberal Library